

وراسات في تاريخ العراق وحضارته

المریئة ولا الحیاة للدریسة

الجزء الأول

نخبة من أساتذة التاريخ

بغداد ١٩٨٨

الحرية والحياة الحديثة

تقديم

أهمية المدن :

للمدن مكانه متميزة في تاريخ الحضارة الاساية إذ أن كلا منها يضم عددا كبيرا من السكان الذين يعيشون معارين ويكونون بعضهم مع بعض علاقات اجتماعية متعددة ، ويتطلب تجمعهم ظما ادارية تؤمن النظام والاستقرار والامن ونسر التقدم والازدهار • ونجمع العدد الكبير من الناس للعيس الدائم معا في مكان واحد يبرز بكل اوصح حاجاتهم المادبة وبنطلب بخصصا في العمل لتيسير توفير الحاجات الواسعة التي تؤمن مسكنهم ومآكلهم وملبسهم والمتطلبات الحياتية الاخرى التي زداد او تنقص تبعا لطموحات السكان واهوائهم واذواقهم ومدى توافر الامكانيات المادية لتحقيقها •

واجتماع العدد الكبير من الناس في المكان الواحد يسر ابارة التفكير وبعده الآراء وتبادلها ومن ثم نميه الفكر بمعناه الانملى ، فاذا رافق ذلك نمو الكتابة فان هذه الافكار سجل وتحفظ لنشرها على مديان مختلفة من

السعة بين المواطنين او للأجيال التالية ، ومن هنا كانت للمدن مكانة خاصة في نمو الحركة الفكرية وتوسع آفاقها وطغيانها على اهل الريف والبدو الذين تنقسم حياتهم بالتفرق والعزلة .

ان المدن بحياتها المزدهرة اكثر ملاءمة في ان تكون مراكز ادارة البلاد التي تقع فيها ، وسواء اقامت الدول مراكزها في مكان قائم ام اوجدته ، فان المركز يصبح اكثر هيمنة على الريف والمناطق القديمة بصرف النظر عن مدى اعتماد هذا المركز على التوابع في حياته المادية وخاصة من حيث توفير الغذاء والمقاتلة ، والصلة الوثيقة بين المدينة وريفها او المناطق التابعة لها يرافقه عادة تبادل حضاري وفكري ، فتأخذ المدينة بعض ما في الريف ولكنها تقدم اكثر وخاصة للقادمين اليها مما يجعلهم في مدة يختلف مداها وبمقدار متباين ، متأثرين بالمدينة آخذين بحياتها .

تنوع المدن في خصائصها :

ومع أن اية مدينة تتأثر بالاحوال الجغرافية للبقعة التي تظهر فيها الا ان العامل الاكبر في تطور اية مدينة هو تصرفات اهلها ، فالسكان هم العنصر الاساس في كل مدنة ، وعلى تصرفاتهم يتوقف ازدهار او تدهور المدن ، وعلى مثلهم السلوكية والذوقية والفكرية يتوقف شكل المدينة وسماتها المميزة ومن حيث العمول فان التبدلات تحدث ببطء .

وحجم المدن يتوقف على عدد السكان وعلى الرقعة التي تشغلها مساكنهم ولا يوجد معيار متفق عليه لتقرير هذا الحجم الذي يتوقف عند حده الأدنى التمييز بينها وبين المراكز التي هي أصغر منها والتي يطلق عليها في أية لغة عدة اسماء منها البلدة والقرية والحاضرة .

ومما يقرر مكانة المدينة الوظائف التي يقوم بها أهلها او غالبيتهم او ما يختصون بها ، ودور ذلك في صرف نشاط السكان وعملهم او دورهم في

المنطقة التي توجد فيها المدينة • والواقع ان هذه الاعمال تكون مصدر صفة مميزة لها فيقال عنها انها مدينة صناعية او تجارية او ادارية • والمقصود ان عددا كبيرا من اهلها يعملون في هذا الجانب فيظهرون ميزاتها ولكن ذلك لا يعني ان السكان كافة يعملون في ما تميزت به المدينة اذ لابد ان كثيرا منهم يعملون في خدمات اخرى قد لا تكون لها علاقة مباشرة بما تميزت به المدينة ، ولا يمكن وضع مقياس لتحديد عدد من يعمل بما تميزت به ، وتختلف اسس تقرير هوية « المدينة » وتمييزها عن التجمعات البشرية الاخرى ، فقد يكون هذا التقرير بتشريع خاص يحدد مكان المدينة من التنظيم ويرافقه عادة بعض المتطلبات التي ينبغي ان تتوافر في المدينة او الاعمال التي تختص بها ، واشهر مثل في ذلك هو ما كانت تسير عليه الدولة الرومانية في هذه الامور حيث تقرر بالتشريعات المراكز الرئيسة والمدن واصنافها وبعض امتيازاتها •

وقد تتقرر هوية المدينة بالعمل الذي يحصر بها كأن تكون مركز اصحاب السلطة السياسية او الادارية •

العرب والمدن : الدلائل القرآنية :

لقد عرف العرب في جزيرتهم قبل الاسلام المراكز الحضرية والمدن ، وفي القرآن الكريم نعاير لانواع متعددة من التجمعات البشرية الكبيرة ومنها « المدينة » « والبلد » « والقرية » « والحاضرة » « وحاضرة البحر » بالاضافة الى اسماء عدد من الاماكن مثل مصر ، وبابل ، وأرم •

وذكر القرآن الكريم نعاير عربية عن نظم سياسية واحوال حضارية لا تقوم الا في مجتمعات مركبة ، فقد ذكر البدو والبادية في آيات قليلة ، وأفاض في ذكر اظمة سياسية وحضارية لا يمكن ان تزدهر إلا في ظل مدن

متقدمة النمو ، وقد وردت هذه التعابير ضمن سياق يظهر انها كانت مألوفاً عند العرب او معروفة فيهم ، اضافة الى ما هم مطلعون عليه من نظم الاسم الاخرى بالسماع أو عن طريق المعلومات المستمدة من التجار .

نشأة المدن في العراق : -

اشتهر اهل العراق منذ اقدم الازمنة باهتمامهم بالزراعة والعمل فيها ، وساعدهم على ذلك توفر مياه نهري دجلة والفرات ، واستواء الارض ونعومة التربة ، مما يسر لهم تنظيم الافادة من هذه المياه بفتحهم الترع ، وانشائهم السدود لضبط الفيضانات ، والخزانات لحفظ المياه ، والمنشآت لتنظيم توزيعها ، وقد عرف العراق بوفرة ما ينتجه من المزروعات وخاصة الحنطة والشعير والرز والنخيل ، اضافة الى عدد كبير اخر من انواع المحاصيل كالماش والدخن والذرة والبقول والخضر والكروم والزيتون وانواع اخرى غير قليلة من اشجار الفاكهة . وادت هذه الاحوال الملائمة الى اشتغال كثير من اهل العراق بالزراعة التي كانت تؤمن لهم قوتهم ومواد معيشتهم فضلاً عن الارباح التي تدرها عليهم .

وتتطلب الزراعة من العاملين فيها ان يتوزعوا على الاراضي . وينتشروا فيها ، غير ان ضرورات التعاون للعمل او للدفاع كانت تقضي باحداث تجمعات يقيم فيها الفلاحون ، وبهذا رافقت الزراعة ظهور القرى التي فيها يقيم عدد من الفلاحين الذين يزرعون الاراضي التي حول مكان اقامتهم ، وقد يتعاونون في زراعتها ، فتكون ملكية هذه الاراضي عامة بينهم ، أو على الاقل ملكية

بعض مرافقها كالمراعي والمحتطب * وقد وردت اشارات الى حجم بعض القرى الصغيرة التي لا يتجاوز سكان الواحدة منها عن ستين قسما ويتبين من وصف الارض التي شيدت عليها بغداد ان كثيرا من هذه القرى كانت متقاربة لا يفصلها عن بعضها الا مسافات قصيرة *

غير ان الزراعة كانت تتطلب وجود مراكز يتيسر الحصول منها على كثير من مستلزمات الزراعة كأدوات الحراثة والبذور والحصاد ، وكذلك بعض الحاجات التي لا يوفرها العمل البيتي من ألبسة وحيوانات ، بالإضافة الى بيع الفائض من المنتج الزراعي * لذلك رافق نمو الزراعة ظهور مراكز فيها اسواق وقتية او دائمية تختلف سعتها والنشاط فيها ، يعتمد اهلها على معاملات البيع وليس على الزراعة ، وقد يتبع ذلك ان تكون في هذه المراكز صناعات مما يحتاج اليه المزارعون والغالب ان هذه المراكز السوقية تكون في الاماكن التي تتوافر فيها المياه ، أي قرب مجاري الانهار التي توفر المياه للشرب والاستعمالات الاخرى وتيسر نقل المنتجات الزراعية وغيرها ، والغالب ايضا ان تقام هذه الاسواق في اماكن متوسطة لعدة قرى ، وكلما ازدادت القرى حولها وكثرت غلتها اتسع السوق وتحول الى مركز اقامة دائمي وصار المقيمون عنده يعملون في الصناعة والبيع والشراء مما يدر ارباحا تزيد من اهميته ، وقد يتخذ مقاما للاغنياء من الفلاحين ، وللمسؤولين عن الادارة * فالسوق في اصله قرية نمت فيها حياة اقتصادية وادارية ، وازداد المقيمون عنده ، وانشأوا بينهم علاقات جديدة تميزهم على الايام عن القرى الزراعية الصرف ، وان كانت تبقى صلتها وثيقة بها *

وباستقرار مراكز الاسواق نمت صناعات تتجاوز حاجات الفلاحين والمزارعين ، وتؤدي الى تزويد السكان بحاجاتهم التي تتزايد بتقدم الحضارة

والازدهار الاقتصادي ، وقد تفيض المنتوجات الصناعية عن هذه الحاجات المحلية فتصدر الى الاماكن البعيدة .

كما ان عددا من مراكز الاسواق ، وخاصة التي تقع على المسالك العامة، تفيد من التجارات التي تمر بها ، فتسهم في نقلها او اعمالها وبذلك تكون مراكز تجارية ايضا .

غير ان هذه المراكز لا تبقى احوالها ثابتة او مطردة ، وانما تتعرض لتطورات وتبدلات تبعا للاحوال العامة في البلاد ، فقد تتابع النمو والازدهار فتصبح مركزا حضريا كبيرا ، او قد يصيبها الجمود والانحطاط والتدهور فتضمحل وتتحول الى ما يشبه القرية، او ربما تزول من الوجود ، غير انه في كل الاحوال تبقى المدن اهم مراكز الحضارة والفكر .

وتتأثر المدن بالاحوال الجغرافية للرقعة التي تقوم فيها الا ان العامل الاكبر في تطورا اية مدينة هو احوال اهلها ، فالسكان هم العنصر الاساسي في كل مدينة ، وعلى نشاطهم يتوقف ازدهار المدينة او انحطاطها ، كما ان شكلها وسماتها المميزة تقرره الى حد كبير مثلهم السلوكية والذوقية والفكرية .

ويتوقف حجم المدينة على عدد سكانها وعلى الرقعة التي تشغلها مساكنهم ، اما مكانتها فتقرره الوظائف والاعمال التي يقوم بها اهلها او غالبيتهم او ما يختصون به فتكون صفة مميزة لها ، فيقال انها مدينة صناعية او تجارية او ادارية ، ويقصد بذلك ان عددا كبيرا من اهلها يعملون في ذلك الميدان ولا يمكن وضع مقياس لتحديد عدد من يعمل بما تميزت به المدينة .

وتختلف اسس تقرير هوية المدينة وتمييزها عن التجمعات البشرية الاخرى ، كالبلدة والقرية والحاضرة ، فقد يكون هذا التقرير بتشريع خاص يحدد مكان المدينة من التنظيم ويرافقه عادة بعض المتطلبات الواجب توافرها في المدينة او الاعمال التي تختص بها ، واشهر مثل على ذلك ما كانت تسير عليه الدولة الرومانية في هذا المضمار حيث تقرر بالتشريعات المدن واصنافها وامتيازاتها •

وقد ظهرت المدن في العراق منذ ازمة قديمة ، وانتشرت في ارجائه ، وبقي بعضها قائما اماما طويلة ، غير أن أوج ازدهارها كان في العهود الاسلامية التي بدأت عندما ضم العرب العراق الى دولتهم الواسعة ، وبلغت اوج عزها بعد ان اتخذ العباسيون مقر الخلافة في العراق ، ودام هذا الازدهار بضعة قرون ختمت باستيلاء المغول على العراق وقضائه على الخلافة العباسية • ثم عاد العراق يشهد نموا واسعا في الحياة والحضارة ، يرافقه نمو في المدن ، وازدهار في الحياة الحضرية ، وتقدم في مختلف جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والادارية والفكرية •

يصف هذا الكتاب الذي نضعه بين أيدي القراء نشوء المدن ونموها في العراق منذ اقدم الازمنة ، ويتابع تطور احوالها عبر مدة تتجاوز خمسة الاف سنة جرت خلالها احداث اثرت في المدن واحوالها ، فمرت بعهود من النمو والازدهار ، وفترات من الضمور والانكماش ، ولكنها ظلت قائمة حية ، وهي تشهد انفجارا هائلا في النمو والازدهار ، وتقدم اساسا لمستقبل مفعم بالخير والامل •

تم اعداد هذا الكتاب باشراف هيئة كتابة التاريخ ، وكتب فصوله باحثون عراقيون عرف كل منهم باهتمامه في موضوع الفصل الذي كتبه ،

وأجريت تعديلات في الفصول لتؤمن التناسق بينها وتنسيق علاقات الفصول بعضها ببعض ، غير ان نميز كل كاتب بأسلوبه الخاص جعل فصول الكتاب قد تبدو غير موحدة وفيها بعض التداخل الذي بذلنا جهدنا لتقليصه الى الحد الأدنى .

والكتاب باجزائه الثلاثة يبحث عن المدينة وتطور نظمها في العراق عبر العصور ، وتجمع مادته معلومات متفرقة وتضعها ضمن وحدة عامة رابطة ، وهو يعبر عن اهتمام الباحثين العراقيين بالمدن وحياتها ، وهي أبرز مظاهر الحضارة الانسانية .

ونرجو ان يسد الكتاب فراغا في المكتبة العربية ، ويكون مرجعا للمستريدين من الباحثين وللمثقفين المتطلعين الى دراسة الحضارة والحياة المدنية .

والله من وراء القصد ..

الدكتور صالح احمد العلي

رئيس المجمع العلمي العراقي

الفصل الاول

من القرية الى المدينة الاولى

الدكتور تقي الدباغ

أستاذ الآثار القديمة بكلية الآداب – جامعة بغداد

مقدمة :-

توجد فروق كثيرة بين حضارة القرية وحضارة المدينة ومع ذلك فليس هناك إلا اتفاق ضئيل على تحديد الخط الفاصل بين الاثنين ولهذا زاد ادراك اهمية دراسة تطور هذا النوع من المجتمعات البشرية في هذه الايام بين اوساط الباحثين والمتتبعين لجذور المدينة • ان نشوء المدينة تلمير اجتماعي واقتصادي له من الاهمية في موضوع النمو الحضاري ما لاي موضوع آخر ويعتبر مساوياً في أهميته للثورة الزراعية التي حصلت قبله والثورة الصناعية التي حدثت بعده ، ولعله من الافضل ونحن نشير الى هذه الاهمية ان نحدد ماذا تعني كلمة مدينة • انها رقعة واسعة من الارض تأوي عدداً كبيراً من السكان غير المزارعين الذين يعيشون على مبادلة المنتجات المصنعة والخدمات

الضرورية بمواد الطعام والمواد الخام ، ويعتمد وجودها على هذه المبادلة .
ولذلك تختلف القرية عن المدينة فسكان القرية يحصلون على طعامهم والمواد
الضرورية لهم من المناطق القريبة جداً منهم ، ومنطقة استغلالهم للأرض
تحددها المسافة التي يستطيع ان يمشيها المرء ليعمل في الحقول ثم يعود الى
منزله في اليوم نفسه . وعدد السكان الذين يمكن ان يعيشوا في مسنوى
الحياة القروية يختلف بطبيعة الحال باختلاف البيئة ولكن من النادر ان يزيد
على بضع مئات من الالف (٢٠٠ - ٥٠٠) في القرى المبكرة . اما المدينة
فليس لها حد اعلى معروف لعدد سكانها ومساحتها .

ان هذا التعريف مثل جميع التعريفات ينطوي على كثير من الصعوبات
وقد يصادف المرء بعض الحالات التي لا ينطبق عليها . وكثيراً ما تتطور القرية
الى مدينة في خطوات لا يكاد يشعر بها أحد . وفي نواحٍ كثيرة من العالم
توجد قرى تقوم بزراعة كل ما يلزمها من طعام ولكنها في الوقت نفسه تقوم
بصناعة واحدة تتخصص بها معتمدة على مواد محلية متوافرة ثم تبادل غيرها
من القرى فتصدر لها ما صنعت وتستورد بدلا من ذلك ما تخصصت به القرى
الآخري . وقد تقوم قرى صغيرة باستغلال مورد طبيعي معين مثل المعادن في
ظروف يضطر فيها اهلها جلب معظم طعامهم عن طريق التجارة ومع ذلك فأن
تعريف المدينة بانها رقعة واسعة من الارض تأوي عدداً كبيراً من السكان غير
المزارعين الذين يعتمدون في حياتهم قبل اي شيء آخر على التجارة والخدمات
للحصول على مواد الطعام والمواد الخام لا يزال صحيحاً على وجه العموم .

يعتبر ظهور المدينة خاتمة عصر القرى ويصعب علينا احياناً ان نعين
النقطة التي تركزت عندها الحضارة في المدينة بحيث اتضحت لها مميزات
خاصة تفرد بها عن القرية ولكننا لا نخطئ القول اذا نظرنا الى المدينة على
انها مؤسسة جديدة ظهرت اولاً في منطقة جنوب غرب اسيا وبخاصة في
العراق في منتصف الالف الرابع (٣٥٠٠) قبل الميلاد وظهرت ايضاً في مصر

في اواخر الالف الرابع (٣١٠٠) قبل الميلاد • اما مدن وادي السند فقد ظهرت في منتصف الالف الثالث (٢٥٠٠) قبل الميلاد بينما لم تظهر مدن الصين إلا في منتصف الالف الثاني (١٥٠٠) قبل الميلاد • واذا رجعنا الى اوربا فلا نجد فيها إلا عددا قليلا مما يمكن ان نطلق عليه بحق اسم المدن حتى في اليونان نفسها قبل عام ٨٠٠ قبل الميلاد بينما لم تتأسس المدن في شبه جزيرة اسكندناوه إلا في عام ١٠٠٠ ميلادية ومثل ذلك يمكن ان يقال بخصوص مدن العالم الجديد •

وبما ان موضوع هذا الفصل هو « من القرية الى المدينة الاولى » فمن الضروري والمعتق ان نتابع نشوء القرية وتطورها الى مدينة لاول مرة ونستعرض التغيرات التي طرأت على الحياة القروية في جميع المجالات اعتبارا من مرحلة التأسيس البدائية الى مرحلة الانقلاب الحضري والتمدن ، ومن هذه المتابعة والعرض نستطيع ان نفهم جذور التطور والخطوات التدريجية التي مهدت السبيل الى ظهور المدن في عصر فجر التاريخ قبيل قيام دول المدن في عصر فجر السلالات التاريخية •

لقد سادت عملية نشوء القرية وتطورها ببطء وبخطوات تدريجية استغرقت زمنا طويلا واذا تذكرنا ان بداية الحياة القروية قد ظهرت في جرمو بشمال العراق في نهاية الالف الثامن قبل الميلاد او في حوالي سنة ٧٠٤٠ قبل الميلاد حسب اختبار كربون ١٤ الاشعاعي وان اولى المدن ظهرت في السهل الرسوبي بجنوب العراق في عصر فجر التاريخ بمنتصف الالف الرابع قبل الميلاد اي حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد تكون المدة التي استغرقتها هذا التطور قد تجاوزت الثلاثة الاف سنة وقد غطت بعرف علماء الآثار العصر الحجري الحديث والعصر الحجري المعدني وبعضاً من عصر البرونز • وبوسعنا ان نحدد مسيرة هذا التطور في العراق على النحو التالي :

١ - تأسيس القرى في العصر الحجري الحديث من سنة ٧٠٠٠ - ٥٠٠٠ قبل الميلاد .

٢ - تطور القرى في العصر الحجري المعدني من سنة ٥٠٠٠ - ٣٥٠٠ قبل الميلاد .
ويمكن تمييز ثلاث مراحل في هذه الفترة تمثل الاولى منها قرى عصر حلف
ما بين سنة ٥٠٠٠ - ٤٢٠٠ قبل الميلاد وتمثل الثانية قرى عصر العبيد
ما بين سنة ٤٢٠٠ - ٣٨٠٠ قبل الميلاد وتمثل الثالثة قرى عصر الوركاء
ما بين سنة ٣٨٠٠ - ٣٥٠٠ قبل الميلاد .

٣ - نشوء المدن في عصر فجر التاريخ ما بين سنة ٣٥٠٠ - ٢٨٠٠ قبل
الميلاد وازدهارها في عصر فجر السلالات ما بين سنة ٢٨٠٠ - ٢٣٧٠
قبل الميلاد .

١ - قرى العصر الحجري الحديث :

كاف الثورة الزراعية وليدة ازمة المناخ التي أنهت عصر الجليد ومهدت
الطريق للاستزراع وتدجين الحيوان والخطوتان لهما علاقة ببعضهما ولكن
بعضهم يرى ان الزراعة في كل مكان اقدم من تربية الحيوان ويرى اخرون
ان مرحلة الرعي في العالم سبقت الزراعة ويعتقد فريق ثالث بان بعض
الجماعات كانت بادئة في زراعة النباتات بينما كانت جماعات اخرى تدجن
الحيوانات ، ويعتقد فريق رابع بأن الزراعة والرعي كاتتا متلازميتين
ومتزامنتين ، وهذا النمط الاقتصادي يسمى بالزراعة المختلطة وهو ما نرجحه
وتبناه . ومن المحتمل ان جماعي الطعام حصدوا الحبوب الغذائية الصالحة
للاكل قبل ان يبدأوا بزراعتها بزمان طويل . وتؤيد ذلك موجودات العصر
الحجري المتوسط التي اكتشفت في مواقع الاثار . ومن المحتمل ان اقدم نوع
من الزراعة بدأ بنشر البذور على ارض رطبة تروىها مياه الامطار او مياه
الفيضانات فتنمو بالري الطبيعي دون حرث ، ثم استخدمت العصا الحافرة .

وهناك مجموعة كبيرة من النباتات لها قدرة على انتاج غذاء جيد بالزراعة مثل القمح والشعير والرز والذرة والدخن والشوفان والشيلم والعدس واليام والبطاطا الحلوة . ولكن القمح والشعير يكونان اساس اقدم الحضارات في الشرق الادنى والهند ولذلك سوف نركز اهتمامنا عليهما . وكلاهما زرعاً من نباتات برية بالاختيار المقصود لافضل البذور من احسن النباتات وبالتهجين العرضي غير المقصود لعدة انواع برية وكانت النتيجة الحصول على حبوب اكبر حجماً واوفر غذاء . اما الحيوانات التي دجنها الانسان لغرض الطعام فكانت الاغنام والماعز والمواشي والخنازير . ويلاحظ ان اسلاف حيوانات الحقول كانت تعيش متوحشة في معظم انحاء المنطقة التي تؤلف مهد زراعة الحبوب . وكان التدجين في البداية من اجل اللحم . اما الفوائد الاخرى فقد اكتشفت فيما بعد . فاكشف الحلب في مرحلة لاحقة واستفيد من شعر الماعز وصوف الغنم لنسج الملابس والبسط . اما استخدام الحيوان لحمل الاثقال وجر المحراث والعربات فكان ممارسة متاخرة يمكن اعتبارها من الخطوات التي أدت الى الانقلاب الحضري .

لقد ارتبط تاسيس القرى منذ البداية ارتباطاً تاماً بالنمط الاقتصادي الجديد الذي احدثه الانقلاب الزراعي ، والمنطقة التي شهدت نشوء اقدم القرى هي تلك التي تقع في جنوب غرب اسيا بين البحر المتوسط في الغرب وهضاب وسط اسيا في الشرق والبحر الاسود وبحر قزوين وسهوب اوراسيا في الشمال والحزام الصحراوي الممتد من سيناء وحتى الهند في الجنوب . وبالرغم من ان المخلفات الاثرية تدل على ان زراعة القمح والشعير وتربية الحيوانات قد نمت في فلسطين وجنوب الاناضول وغرب ايران وتركستان السوفيتية إلا ان تلك المخلفات تشير الى ان العراق من المناطق الاولى التي جرت فيها المحاولات المبكرة للزراعة والرعي وان المنطقة الشمالية الشرقية منه هو الموطن الاول لزراعة القمح والشعير وتربية الحيوان في الالف الثامن

قبل الميلاد • ان سفوح جبال العراق الغربية توافرت فيها الاصول البرية للحيوانات والنباتات التي دجنها الانسان • وقد تم العثور في هذه المنطقة على مستوطنات قديمة ظهرت فيها البوادر الاولى للزراعة من قبل جبايى الطعام في العصر الحجري المتوسط في بالي كورا وزاوي جمى وكريم شهر وملفغات وتدل الاثار المكتشفة في هذه المواقع على مرحلة انتقالية تدريجية الى ممارسة الزراعة الحقيقية في القرى • وفي هذه المنطقة توافرت الاحوال الطبيعية المناسبة من مناخ ملائم ومطر موسمي وحيوانات غير اليقة وانسان نشيط استغل ما يحيط به •

ان اهم القرى العراقية الاولى التي كسفت فيها معاول المنقبين عن اثار مزارعين مستقرين هي قرية جرمو وحسونة ونيوى ويارم تبه وام الدباغية والصوان ومطارة وشمشارة^(١) • في هذه القرى المبكرة ظلت حياة الانسان بسيطة تقل فيها الآلات والادوات اللازمة للتعامل مع الحياة المادية • ان موجودات تلك القرى تعكس طبيعة معيشة بدائية تمثل المرحلة الاولى من الاستقرار فقد وجد المنقبون بين القليل من المخلفات المطاحن المؤلمة من حجرين توضع الحبوب بينهما ويدار احدهما فوق الاخر او يضرب احدهما بالاخر ، ووجدوا الاطباق الفخارية ذات التواءات البارزة لفصل الحبوب عن قشورها ووجدوا المعازق البدائية واقراص المغازل لغزل خيوط الصوف والكتان ووجدوا ثقالات أنواع النسيج التي استعملت لحياكة الملابس والبسط ، وفي هذا الوقت تعلم نساء المزارعين صنع الفخار بايديهن • وكانت الاواني المصنوعة من النوع البدائي الخالي من الزخرفة والالوان او ملون بلون واحد وكانت الزراعة انذاك زراعة محدودة بمساحة صغيرة من الارض تكفي لاعالة اسرة واحدة كما كانت حقلية وخالية من البستنة وغرس الانجار المثمرة التي لم تعرف الا في العصور النالية • وكانت الزراعة متنقلة ايضا لان الارض بعد ان تضعف خصوبتها بتركها للفلاح ويبحث عن ارض خصبة

جديدة • وهذه الزراعة كانت ديمية ترويه مياه الامطار في الاقسام الشمالية من العراق وهي كافية في العادة للانبات • وكان انتاج القوت يعتمد بالدرجة الاولى على الزراعة وتربية الحيوان • ونجم عن هذا الانقلاب الزراعي نشوء الملكية الفردية اي ملكية المزرعة وادوات الانتاج والحيوانات الداجنة في المرعى •

وكرس المزارعون بعض الوقت لاكتشاف نباتات مناسبة واساليب مناسبة لزراعتها ولصنع الات خاصة بحرث الارض وحصد المحصول وتحويله الى طعام • ولجل نبتن الارض استعملوا العصا الحافرة ثم اخترعوا المحراث في العصور التالية ، وحصدوا الحبوب في البداية بمنجل من الصوان او الزجاج البركاني المسنن المركب في قطعة خشبية مستقيمة او مقوسة بمساعدة القير • ومن عناصر الاقتصاد الزراعي المبكر الاساسية جمع حبوب غذائية كافية في كل موسم وخزنها حتى نضوج محصول السنة التالية ولذلك كانت عنابر الحبوب او المخازن من المظاهر البارزة في كل قرية وقد تبين وجودها في كثير من انحاء الشرق الادنى القديم وفي اقطار العالم القديم الاخرى • وتحتاج بذور القمح والشعير الى عملية فصلها عن السنبلة وعن قشورها بالدرس والتذرية تم الى عملية الطحن للحصول على الدقيق ، وكان الدرس يتم بتسيير الحيوانات عليها في حركة دائرية ، اما التذرية فتكون بنشرها في الهواء في يوم يكون فيه هبوب الرياح شديداً نسبياً فيتطاير القش وتسقط الحبوب عند قدمي من يقوم بهذه العملية • ويمكن اجراء الطحن بالدق في هاون غير ان الطريقة التي يسرت انتاجاً اكثر واتبعت عموماً كانت تتمثل في وضع الحبوب على حجر مستدير لطحنها بحجر آخر يدور عليها او يحتك او يضرب بها • ومثل هذه المطاحن كانت في العادة من حجر صلب وإلا فان الطعام فد يخلط فيه الحجر والطحين وكان الطحين يتحول الى خبز باستعمال الخميرة والتور •

وكان سكان هذا العصر يعيشون في جماعات صغيرة في قرى او دساكر وتبين عند اكتشاف هذه القرى اكتشافاً تاماً انها كانت نغطي مساحة تتراوح بين فدان ونصف وحوالي سبعة افدنة وفيها منازل يتراوح عددها بين خمسة وعشرين وثلاثين منزلاً . ان مثل هذه القرى كانت في الواقع وحدات اجتماعية يتعاون جميع افرادها في المشروعات المشتركة . وكانت المنازل تتصل ببعضها بشوارع متوازية ضيقة . وقليل من القرى كانت محاطة بسياجات او اسوار وخنادق^(٢) لتحميها من الاعتداءات البشرية والحيوانات الضارية . ولا بد ان هذه الاحتياطات قد شيدت بمجهود مشترك .

يفترض علماء الانسان (الانثروبولوجيون) وجود تخصص ضيق ومحدود جداً في القرية . وبالمقاييس مع الجماعات التي كانت الى وقت قريب تعيش في مستوى بدائي فان كل عائلة في العصر الحجري الحديث كان من شأنها ان تزرع وتعد طعامها وتصنع آئيتها الفخارية وملابسها وسائر ما يلزمها . ومن شأن النساء طحن الحبوب وتحضير الخبز وغزل الخيوط وحياسة الملابس وصنع الاواني الفخارية . ومن المحتمل جداً من جهة اخرى ان الرجال كانوا ينظفون الحقول ويعدون لها للزراعة وينون الاكواخ ويهتمون بالحيوانات في المراعي ويصطادون ويصنعون الالات والاسلحة اللازمة . وكان بإمكان كل قرية ان تكفي نفسها اذا زرعت مواردها الغذائية وصنعت جميع الالات والادوات الاساسية من المواد المتوافرة في القرية كالحجر والعظم والخشب والطين وغيرها . وهذه الكفاية الكامنة في الجماعة المحلية يمكن ان تتخذ علامة فارقة تميز العصر الحجري الحديث عن المدنية في عصور المعدن . ومن نتائج ذلك ان اقتصاد العصر الحجري الحديث لم يكن فيه حافز مادي للفلاح كي ينتج اكثر مما يحتاج اليه لاعاشة نفسه وايجاد المواد الضرورية للموسم القادم . واذا سارت كل عائلة على هذا النظام فان المجتمع يمكنه ان يعيش من غير فائض ، ولكن لم تكن اية جماعة من

جماعات العصر الحجري الحديث في الغالب تتبع هذه الاصول اتباعاً تاماً • وحتى في أفدم فبور هذا العصر وجد علماء الآثار مواد استوردت من مسافات بعيدة • فاصداً البحر المتوسط والخليج العربي صنعت منها العقود والاساور • والمواد المستوردة لم تقتصر على مثل ادوات الترف هذه فالاحجار البركانية الصلبة والزجاج البركاني وانواع الصوان والحجارة الخضراء كانت تنقل الى مسافات بعيدة جداً • وحتى الاواني الفخارية نفسها التي يظن انها كانت تحتوي اشياء في داخلها كانت تحمل الى مسافات بعيدة لاغراض التجارة •

وكان هناك تنوع في حضارة العصر الحجري الحديث فالقرى تختلف في التوازن بين الزراعة وتربية الحيوانات وفي تخطيط البيوت وبنائها ثم في شكل سائر الالات والمادة التي تصنع منها وفي شكل الاواني الفخارية وزخارفها ، وهناك اختلافات اشد في اشكال التماثيم وفي طقوس الدفن واساليبها • وهكذا فان كل قرية تمثل تكييفاً تقريبياً لبيئة معينة مع مجموعة افكار تتناسب معها كثيراً او قليلاً • والتنوع ينتج عن تعدد الاكتشافات او الاختراعات البسيطة التي تكون في اول الامر محلية بحتة قوامها بعض الخصائص الاقليمية • فلم يكن هناك مثلاً اسلوب عام للخزافين بل كانت توجد طرق لصنع الفخار • وحتى لو ظهرت هذه التقاليد على هيئة تنوعات لاسلوب اساسي واحد فان النساء اللواتي قمن بنقلها لم يميزن في الغالب بين الاسلوب الاساسي وبين التحسينات الطارئة عليه •

ولا بد ان السحر كان يمارس في قرى هذه المرحلة بالرغم من السيطرة المحدودة التي كانت للجماعات على الطبيعة ولدينا برهان مباشر على ذلك في التماثيم التي اكتشفت في المواقع الاثرية • ويمكن الافتراض بان النظام القبلي والمجتمع المبني على القرابة قد دام الى ما بعد الانقلاب الزراعي في العصر الحجري الحديث دون تغيير جوهري • وربما كانت القبيلة تشترك بصورة

طبيعية بملكية الارض واذا لم تفلح بصورة مشتركة فان بعض الحقول تخصص لعائلات بمفردها • اما المراعي فكانت بطبيعة الحال ملكاً مشتركاً •

ومما لا شك فيه ان سكان هذا العصر كانت عندهم عقيدة دينية • ولعل اول معبود تصوره وعبدوه كان ذا صلة بقوى الارض المنتجة وخصبها وهذه الالهة هي التي أطلق عليها اسم الالهة الأم التي صيغت بدمى من طين مصنوعة بهيئة نسوة بدينات • ولقد وجد الكثير من نماذجها بين انقاض القرى • وقد دفنت معظم جماعات العصر الحجري الحديث موتاهها تحت المنازل او في جانبها باحتفالات تفوق احتفالات صيادي العصر الحجري القديم •

٢ - قرى العصر الحجري المعدني :

تمثل قرى العصر الحجري المعدني انتقالاً تدريجياً بطيئاً الى مدن عصر فجر التاريخ وعصر فجر السلالات • ففي هذه المرحلة الانتقالية اتسعت القرى في المساحة وزاد عدد سكانها وازدهرت العمارة والفنون والصناعة والتجارة والنقل وحدث تقدم ملموس في التقنية • والمنطقة التي حدث فيها هذا التطور هي المنطقة نفسها التي حدثت فيها الثورة الزراعية • وقد اتضح ان الاحوال الطبيعية والاقليمية كانت مناسبة لحدوث هذا التطور في هذه المنطقة • فقد وجدت فيها المواد الاولية اللازمة للاكتشافات والاختراعات كما انها احتوت عوامل مشجعة للتنظيم الاجتماعي وللتعاون على مقياس واسع بالاضافة الى تسهيلات المواصلات التي يمكن بواسطتها جمع المواد الاولية وتركيزها وتوزيعها • والى جانب ذلك فان المنطقة التي ذكرناها رغم جفافها النسبي فان الاقامة الدائمة ممكنة فيها بجانب احد الانهار او الينابيع ، والزراعة تعتمد على الامطار ولكن في السهول الفيضية على الري • وكانت تنمو في هذه

المنطقة انواع مختلفة من الاشجار المثمرة بصورة طبيعية وامل الحصول على محصول جيد ومنظم من التمر والزيتون والتين والعنب في كل سنة متسجع قوي للسكن في الاماكن التي تنمو فيها هذه النباتات * وتعترض هذه المنطقة جبال وصحارى لا تصلح للسكن ، ولكن هناك سهولا قابلة للاستيطان حول هذه الجبال والصحارى وفيما بينها * ويمكن ان تقام فيها قرى غير متباعدة كثيراً * ويمكن لاصحاب المواشي ان يتجولوا بقطعانهم في ارجائها * وفي بلاد اشور تكفي امطار الشتاء لتزويد الاغنام بالمراعي ولارواء محاصيل الحبوب * غير ان السكنى الدائمة اقتضت في الواقع على الينايع وضفاف الانهار المنحدرة من جبال أرمينية كالفرات والبالخ والخابور ودجلة * وبالرغم من خطر الجفاف فان صعوبات اعداد التربة هنا كانت اقل خطورة مما في سهول الانهار الكبرى التي تحصل الفيضانات فيها *

في هذه المنطقة تتابعت الاختراعات بسرعة بالمقارنة مع التقدم البطيء في العصر السابق ففيما بين سنة ٧٠٠٠ - ٣٥٠٠ قبل الميلاد تعلم الانسان تسخير قوة الحيوانات والرياح في النقل * واخترع المحراث وعجلة العربات والخرف والزوارق الشراعية واكتشفت العملية الكيماوية لاذابة خامات النحاس والمحتويات الطبيعية للمعادن ، ووجد تقويم فلكي ، فتمهد بذلك الطريق لحضارة تحتاج الى كتابة * وقد ركز علماء الاثار انتباههم على التجمعات السكانية المستقرة في مواقع القرى التي غالباً ما تكون قد نمت وتطورت الى مدن * وحتى هذه القرى تستعرض موجوداتها تنوعات في الحرف والفنون والاقتصاد ضمن المزايا العامة التي تشملها جميعاً * وكان سكان تلك القرى مقيمين غير مترحلين * وفضلوا مواقع بقيت مستمرة ومأهولة بالسكان الى العصور التاريخية * لقد كثرت القرى الصغيرة ، اما القرى الرئيسة فامت حتى اصبحت مدناً * ولقد كان تحضير الارض عملاً ثقيلاً وشاقاً ويحتاج الى جهود مشتركة من قبل المزارعين وخصوصاً اذا كان

الهدف زيادة انتاج الطعام ففي جنوب العراق كانت بين نهري دجلة والفرات رقعة واسعة من الاهوار تنتشر فيها الادغال وتكثر الطيور والاسماك . وقد دفعت هذه المسطحات المائية المستوطنين الاوائل الى ترويض دلتا النهرين وجعلها قابلة للاستيطان . فحفروا الترع والقنوات لسقي الحقول وجففوا المستنقعات وبنوا السدود ورفعوا الارصفة لحماية السكان والقطعان من خطر الفيضانات وقطعوا القصب والبردي وزرعوا الارض المستخرجة من الهور وكانت المكافأة محصولاً جيداً من الحبوب والتمور والمراعي . وكان طلائع المستوطنين يلتصقون بالارض ولا يهجرونها بحثاً عن مساكن جديدة اذ يسهل عليهم تنظيف ما يحيط بالارض لتوسيع رقعة الاستيطان والحقول الزراعية بدلاً من البحث عن اماكن اخرى في وسط الاهوار التي تحتاج هي الاخرى عملاً شاقاً لتجفيفها تمهيداً لاستثمارها . واية زيادة في السكان كانت ذات فائدة ايجابية للقريه فبجهودهم يمكن صرف مياه الاهوار لتطهير مساحات واسعة من اجل المساكن والمزارع وبجهودهم ايضاً تفتح الجداول والترع لري الحقول . وفي السهول الرسوبية بجنوب العراق كانت الظروف الطبيعية تشجع على وجود تجمعات سكانية مزدحمة وتعاون اجتماعي واسع النطاق . ولذلك فان افضل المواقع كانت تستلح بالجهد والكدح . وكان العمل جماعياً وفائدته تهم الجميع ولم يستطع شخص واحد بمفرده القيام به . وحصلت زيادة في قائمة مواد الطعام فالتمور والتين والزيتون والفواكه الاخرى اضيفت الى طحين القمح والشعير وهذه الفواكه كانت سهلة الحنط والنقل وكانت في البداية تجمع من الاشجار البرية ثم اصبحت هي والاعناب تزرع وبذلك بدأت البستنة .

اعدت الاكواخ في البداية من البردي او الحصر ثم بنيت من الطوف ثم اللبن او الاجر واصبح الانسان قادراً على التعامل مع اللبن كيفما شاء ويسر لاتخاذ الشكل والحجم الذي يريده لمبانيه . وفي العصور التاريخية

استبدل بسقف الكوخ الذي كان بشكل سقف كوخ البردي سقفا معقودا .
والى جانب المزارعين الذين كانوا منهمكين بالعمل الزراعي لانتاج فائض من
المحصول يزيد عن حاجتهم للاستهلاك كان هناك الصيادون وانصاف البدو
من الرعاة الذين يتجولون بين الاحراش والمراعي . وكان هذا الفائض من
الغلة يستبدل بحيوانات الصيد ومنتجات الرعاة . وتشير الدلائل الاثرية
على خروج القرى من العزلة التي كانت فيها في ظل نظام الاكتفاء الذاتي الذي
مارسه اهل العصر السابق فقد استوردت الاحجار الكريمة كالعقيق والفيروز
والياقوت واللازورد من اماكن بعيدة مما يشير الى بداية قيام التجارة . ومن
المحتمل ان البدو المجاورين للمزارعين هم الذين كانوا يستوردونها . وهذه
الاحجار لم تكن تثنى لجمال منظرها بل لانها ذات اهمية سحرية
ايضا ، وفوائدها السحرية يشار اليها كثيرا في الاداب القديمة . وكان الطلب
عليها شديدا لاهراز النجاح وكسب الثروة والتمتع بالحياة الطويلة وللحصول
على الابناء . واوحت هذه المجوهرات بتطور حرفة جديدة وهي قطع الاختام
وتثقيب الاحجار الصلبة لصنع الخرز والتمائم . وكانت التمائم تحور بشكل
حيوان او طير او يحفر عليها رسم شيء او رمز معين واذا طبعت على طين
طري يطبع عليه الشكل المرسوم وهكذا ظهر الختم على فم الجرار واصبح
وسيلة لسلامة وحماية الملكية . وفي عقيدة صاحبه يكون الختم هو الحارس
السحري لمحتويات الجرة ولا يجوز كسرها .

وقد ادى الاهتمام بالاحجار الكريمة الى نوع من البحث عن الصخور
والى التعرف على خامات النحاس فالملاكايت هي كربونات النحاس والفيروز
هو فوسفات الالمنيوم المشوبة بالنحاس وكلاهما يوجد فيما له علاقة
بخامات النحاس . وعديد من هذه الخامات لها لون براق يجتنب الانسان
ولهذا شجعت احجار الملاكايت والفيروز والاحجار الملونة الاخرى الانسان
على البحث عن خامات النحاس والمعادن الاخرى في المناطق التي تتوفر فيها

مما ادى الى ظهور التعدين الذي يعتبر عاملاً مهماً في الانقلاب الحضري . لقد بدأ استعمال معدن النحاس للتو ولكنه لم يحل محل الحجر كمادة اساسية لصناعة الالات . ولذلك كانت حضارات العصر الحجري المعدني حضارات انتقالية من العصر الحجري الى العصر البرونزي ثم الى عصر الحديد . ولم يمر الناس في كثير من جهات العالم بهذه المرحلة الوسطى بل حصلوا على معلوماتهم الاولى عن النحاس مباشرة من اولئك الذين كانوا قد طوروا فعلاً فن صناعة النحاس تطويراً كاملاً . ويختلف زمن حضارات العصري الحجري النحاسي في كل مكان باختلاف الوقت الذي مضى حتى انتشر العلم بصناعة المعدن . وكان الانتقال من عصر الى عصر يحدث في ازمان مختلفة وتصحبه هجرات هامة للشعوب . ووجدت اقدم الحضارات التي عثر فيها على النحاس في الشرق الادنى وبدأ استخدام النحاس في العراق في مطلع الالف الخامس قبل الميلاد واصبح استخدام المعدن امراً شائعاً في بلاد الشرق الادنى في الالف الرابع قبل الميلاد بينما بدأ هذا العصر في جزيرة كريت وشبه جزيرة اليونان في اوائل الالف الثالث قبل الميلاد^(٣) .

عرف سكان الشرق الادنى ما لديهم من معادن منذ زمن مبكر ويرجح ان الناس عرفوا بعض المعادن في العصر الحجري الحديث . وكانت كميات تلك المعادن المحلية قليلة كما ان اكتشاف هذه المواد الجديدة لم يكن ذا اثر ملحوظ على الحضارة في البداية . ومن المحتمل ان احد القدماء قد اسقط بعض الملاكيت على نار مشتعلة في موقد ورأى كريات النحاس . وقد عولجت المعادن في اول الامر باعتبارها مواد صلبة غير عادية وانها حجر قابل للطرق . وكانوا يزاولون العمل فيها وهي باردة بالطرق والحك . اما صناعة التعدين الحقيقية فلم تبدأ إلا بعد ان اصبح في الامكان استخراج المعادن من خاماتها وحتى في ذلك الحين ظلت كل انواع المعادن مدة طويلة تزيد على الالف عام

فادرة وقيسة لدرجة ان استخدامها اقتصر على بعض الاسلحة وادوات الزينة .

بدأ استخراج المعادن من خاماتها في الشرق الادنى بين سنة ٥٠٠٠ — ٤٠٠٠ قبل الميلاد ويظهر ان النحاس كان اول المعادن التي تمكن الناس من صهره ذلك لان اوكسيد النحاس وكربونات النحاس وكبريتات النحاس وسليكات النحاس استخرجت وسحقت لعمل الالوان وهي تتحول الى مادة النحاس في درجة حرارة منخفضة نسبياً .

وكان الصناع يعالجون معدن النحاس الذي يحصلون عليه محلياً بالطرق الذي يكسب المعدن صلابة ملحوظة فطرق سكيته نحاسية طرقاً شديداً يجعله حاداً ولكن بنفس الوقت فان الطرق الشديدة يجعل النحاس سهل الكسر . وبالطرق يمكن الحصول على قضبان وصفائح وقطع صغيرة منه . وفي وقت مبكر نسبياً تعلم عمال المعادن الاستعاضة عن هذه الطريقة بطريقة الاحماء اي بوضع المعدن على نار شديدة حتى يصبح لونه ابيضاً ثم يغمس في الماء بعد ذلك . وبهذه الطريقة يلين النحاس والمعادن الاخرى الممزجة به ويسهل استمرار الطرق .

ان استخدام النحاس في الصناعة مهم من عدة نواحي فهو قابل للطرق وللصهر ويمكن استخلاصه من المعدن الخام ويمكن مزجه ببعض المعادن الاخرى ، وفي الامكان شحذه كي يقطع مثلما يقطع حجر الصوان او الزجاج البركاني ، وفي الامكان حنيه وتغيير شكله بالطرق واذا تعرض للحرارة يلين ويصبح سائلاً ويتخذ شكل اي اناء او قالب يصب فيه . وعندما يبرد يصبح قوياً كالحجر . والآلة النحاسية تدوم اكثر من الآلة المصنوعة من الحجر او العظم ويمكن جعلها قاطعة من جديد بالشحذ او بالطرق ويمكن صبها من جديد اذا انكسرت . وكثير من هذه الصفات لا تتوفر في الحجارة والعظام والخشب .

ويبدو ان اقدم عملية سبك كانت عبارة عن صب المعدن المنصهر بعد خروجه من كورة الصهر مباشرة في قوالب قليلة الغور مفتوحة ولها الشكل العام للادوات التي يراد صنعها وكانوا يكملون صنع السبائك المصنوعة بهذه الطريقة بواسطة الطرق والحك . ومن المحتمل ان عمال التعدين القدامى قد تأثروا بالتغيرات الفجائية في درجة حرارة الصهر والانسياب والتماسك والصلابة التي كان في امكانهم الحصول عليها حتى باضافة كمية قليلة جداً من معدن آخر الى معدن النحاس مثل الزرنيخ او الرصاص . ومن الواضح انهم قاموا بتجاربهم الى ان اهتمدوا في النهاية الى اتحاد معدني النحاس والقصدير الذي اصبح يسمى البرونز والذي سمي عصر البرونز به .

واحسن انواع البرونز الذي يؤدي جميع الاغراض هو مزيج من النحاس والقصدير وكلما زادت نسبة القصدير زاد المعدن تماسكاً وان كانت قابليته للكسر تزداد ايضاً . وفي عصر البرونز والقصدير او حتى قبل ذلك بوقت قصير اخترعت في العراق طريقة فنية خاصة لعمل السبائك وهي طريقة الشمع المفقود . وحدث هذا في حدود عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد . وتنطوي هذه الطريقة على صنع قالب داخلي من الطين له الشكل العام للشيء الذي يراد صبه وعند جفاف ذلك القالب يغطى بطبقة من الشمع تشكل عليها التفاصيل التي يراد وجودها في السبيكة ثم يغلف القالب المشمع بغلاف من الطين ويوضع على النار فينصهر الشمع ويتبدد تاركاً تجويفاً يمكن ان يتدفق فيه المعدن المنصهر ثم يكسر الغلاف الخارجي ويستخلص القالب الداخلي الذي يظف سبيكة معدنية .

وبالرغم من ان هناك بعض الادوات من العصر البرونزي المبكر تظهر فيها كل انواع السبائك الا ان البرونز القصديري كان دائماً افضل تلك المواد فحل محل جميع المواد الاخرى بالتدريج ، ويدل استخدام البرونز القصديري على تحول من الحجر الى المعدن ، واصبح امتلاك المعدن

لاستخدامه في صنع الاسلحة امراً بالغ الاهمية . ولهذا لم تستخدم السبائك النحاسية إلا في الاغراض الحربية او اغراض الزينة في اول الامر . ولم تصبح الآلات والادوات البرونزية عامة الاستعمال إلا في الحقب الاخيرة من عصر البرونز عندما تراكمت كميات معدن البرونز على مدى الاجيال . وحتى في ذلك الوقت ظل استخدام الحجر شائعاً بين القرويين في بلاد الحضارات الكبرى بين الشعوب البعيدة عن مواطن المدنية . ان تحول المعادن الخام المتبلورة الزرق منها او الخضر التي هي بشكل مسحوق الى نحاس احمر صلب هي عملية معقدة ولذلك لا عجب ان يكون المشتغلون في المعادن في اقدم المجتمعات التاريخية اخصائيين وان يكون صنع المعادن منذ البدء حرفة وفناً .

استخدم العراقيون النحاس في البداية في صنع الاسلحة ومواد الزينة بواسطة الطرق والحك . ولم يعرفوا صهر هذا المعدن إلا في عصر جمدة نصر في حدود نهايات الالف الرابع قبل الميلاد^(٤) ، وتوصل العراقيون الى اذابة النحاس وجعله باشكل وحجوم مختلفة بواسطة القوالب المفتوحة اولاً ثم بواسطة القوالب المغلقة التي تصنع من عدة قطع ، واستخدمت الطريقة الاخيرة في عمليات صب التماثيل في عصر فجر السلالات^(٥) . وتشير الوثائق السومرية عمليات السباكة بالشمع المذاب^(٦) .

وكانت هذه العملية مألوفة في العصور التاريخية القديمة . وحصل صناع المعادن على النحاس من منطقة كيماش في جنوب كركوك واستوردوه من دلمون (البحرين) ومكان (عمان) وقبرص والاقسام الشمالية الشرقية من شبه جزيرة العرب ومن جبال طوروس وبوغاز كوي وكول تبه في تركيا . ولصنع البرونز استوردوا القصدير من عربستان وقيام وتركيا وارمينية بالاضافة الى القصدير المحلي من مرتفعات القنديل^(٧) .

وبما ان الاحجار الاعتيادية والاحجار الكريمة وخامات النحاس لم تكن موجودة في المناطق السهلية في جنوب العراق فقد اقتضت الضرورة استيرادها

واستعين بالحيوانات لاغراض النقل والزراعة • فبعد ان تم تدجين المواشي للاستفادة من لحمها ولبنها وجلدها استخدمت الثيران في حمل قسم من عبء الحراثة • وربما كانت الخطوة الاولى في هذا المجال هو جعل زوجين من الثيران يجران في الحقل نوعا مختلفا من آلة الحرث ، وهذا النوع الجديد هو المحرث بدلا العصا الحادة الطويلة الحافرة والمعول • وقد أوجد المحرث ثورة في عالم الزراعة وبواسطته استطاع الانسان ان يحرق حقلا واسعا وترتب على استخدام المحرث محصول اكثر وطعام اوفر بل وفائض في الانتاج استخدم في المقايضة • وباستخدام المحرث ايضا حل الرجل محل المرأة والعصا الحافرة في فلاحه الارض • وكان على الانسان ان يخترع النير والعدة اللازمة له ليكون هناك اتصال بين المحرث وقدرة الثور على الجر • وبما ان المحارث الاولى صنعت من الخشب فليس لدينا برهان مباشر على تاريخ اختراعها ولكن الوثائق المكتوبة تشير الى انها استعملت في العراق ومصر حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد^(٨) • وقد حوّل المحرث عمل المزارعين من تعهد حقل صغير الى زراعة الحقول الواسعة ، واحتاجت الثيران التي استخدمت في الحراثة الى علف انسب لتحمل جهد الحراثة المرهق ولذلك بنيت لها اصطبلات واصبح روث الاصطبلات سمادا للحقول •

ومن المحتمل ان الزحافة قد عرفت في هذا الوقت ومن المؤكد ان بإمكان زوج من الثيران جر زحافة بنفس السهولة التي يجران بها محراثا • وكانت الزحافات التي تجرها الثيران تستخدم في اور لنقل الاموات الى المقبرة ولكن قبل هذا بكثير حصل انقلاب في اعمال النقل عند اختراع الدولاب فتحوّلت الزحافة الى عربة ذات عجلتين وذات اربع عجلات • وكانت العربات تصنع من الخشب ولذلك لم يبق منها شيء في مواطن الاثار ولكن يمكن معرفة ذلك من نقوشها على الاواني الفخارية ومن منحوتات الاحجار ، وهناك اشارات الى استعمالها منذ عصر حلف • وعلى كل حال فان النماذج من تبه كورا ،

تربيا عربات ذات عجلتين وذات أربع عجلات كانت مستعملة في الألب الثالث قبل الميلاد وهناك نقوش للعربات في الفنون السومرية . وكانت العجلة مؤلفة من ثلاث أو خمس قطع متداخلة من الخشب المتين تربطها مسامير نحاسية . وتدور العربة قطعة واحدة مع المحور الذي يتصل بباقي العربة باحزمة من الجلد . لقد أصبح استخدام العربات شائعاً في العراق وسورية في سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد وانقل استخدامها الى الهند في هذا التاريخ . وبعد خمسمائة سنة استخدمت في كريت واسيا الصغرى . اما مصر فلم تعرف العربات إلا عندما ادخلها الهكسوس في سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد .

واقدم صورة للنقل هو الحمال البشري رجلاً كان او امرأة ولكن عندما بدأ استخدام قوة الحيوان انتقلت الاحمال اليه . والثور لا يصلح كثيراً لهذا الغرض وربما كان الحمار اقدم الحيوانات الحاملة للاثقال . وعرف الحمار المدجن قبل عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد في مصر واستخدم للنقل هناك كما استخدم في العراق لجبر المحراث وللنقل في اوائل الالف الثالث قبل الميلاد . واصبح السفر والنقل في البر اكثر سرعة باستخدام الحمير ثم الخيول بعد ذلك لجبر العربات ذات العجلات . والسرج الذي استعمل للخيول هو نفس السرج الذي اخترع لقيادة الثيران بعد ادخال التعديلات عليه . واللجام الذي كان يستخدم في سحب العربات السومرية صنع وفق النموذج الذي صنع للثور الذي يجر العربة . ان استخدام الحيوانات لجبر العربات ولحمل الاثقال على ظهورها سهل المواصلات ونقل البضائع . والتجارة بين بابل واسيا الصغرى في اواخر الالف الثالث قبل الميلاد كانت تنقل على ظهور الحمير .

والى جانب التحسينات في النقل البري سارت التحسينات في الملاحة . ففي العصر الحجري الحديث صنع صيادو السمك زوارق من قطع الاشجار بعد ان جوفوها ، وصنعوها ايضا من الجلود . وفي الرسوم المصرية التي تعود لعصور قبل التاريخ نشاهد زوارق من البردي المضافور تستوعب اربعين

جذافاً • وفي عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد اخترعت الزوارق الخشبية واقدم نموذج لها في العراق وجد في اريدو^(١٠) • والظاهر ان الزوارق الخشبية التي تشاهد في الفنون المصرية بعد هذا التاريخ هي زوارق غير مصرية بل عراقية او صنعت وفق النموذج العراقي • وفي حدود سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد وجدت زوارق تبحر في شرق البحر المتوسط • ويبدو ان الشراع استخدم في الالف الرابع قبل الميلاد • وكانت زوارق هذا الوقت سواء تستعمل الشراع او المجذاف او تجر على ضفاف الانهار والترع تنقل احمالا ثقلة بنفقة اقل، من نفقات النقل البري •

وفي هذا العصر غزا الدولاب صناعة الفخار • وكان هذا الدولاب يدور بسرعة حول محور عمودي • والانية التي تصنع بواسطتها تكون في غابة التناسق ويتطلب صنعها مهارة فائقة لا يمكن الحصول عليها إلا بعد مائة طويل وجهد كبير • ويستغرق صنع الانية بالدولاب بضعة دقائق بينما يستغرق صنعها باليد عدة ايام •

ان استخدام الدولاب في صنع الاواني الفخارية وصنع العربات يوضح خطوة في تقسيم العمل وظهور المتخصصين • ومن ناحية اخرى نلاحظ ان هذا الاستخدام لم يكن متوافقاً في الزمن في بعض الاقطار ففي مصر استعمل دولاب الخزف قبل العربة ذات العجلات بينما في جزيرة كريت كانت العربات اقدم من الاواني الفخارية المصنوعة على الدولاب • وفي اوربا لم يستخدم دولاب الخزف في الاقطار الواقعة الى الشمال من جبال الالب حتى بعد عام ٥٠٠ قبل الميلاد بينما كانت العربات ذات العجلات تستعمل قبل ذلك بآلف سنة •

وأهم قرى هذا العصر المتطورة التي تمثل انتقالاً تدريجياً الى المدينة هي الاربجية ونيوى وتبه كورا والطواجنة وابراهيم عزو وبانا هلك وبكم وجوخه مامي واريدو واور وحاج محمد والوركاء والعقير ولكش وبسمي

واتسونا وتوتب ونوزي وكري رش وقره تبه وقرية سفرة • ان المجموعة الاولى من اماكن السكن التي تمثل المرحلة الاولى لهذا الانتقال التدريجي بناها سكان قرى عصر حلف (نسبة الى تل حلف على الخابور) • انها اكثر بطوراً من سابقتها وشهدت تقدماً حضارياً مهماً • ففي هذه المرحلة ازدادت القرى واتسعت مساحتها وتطور بعضها في النهاية الى مدن • واتسعت الزراعة التي كانت توصف فيما مضى بالاكتفاء الذاتي من ناحية الانتاج الزراعي • وصار الفلاحون يبادلون فائض الانتاج بالمواد التي لا توجد محلياً فاسوردوا الاصداف من مناطق الخليج العربي والزجاج البركاني من ارمينية والاحجار الكريمة من افغانستان وزيادة على ذلك فان اهل قرية حلف كانوا يعرفون المعدن بالتأكيد • هذا ان لم يكونوا قد عرفوا صناعة المعادن ايضاً • وهناك آنية من تل حلف يبدو عليها اقدم رسم لعربة ذات عجلات ومع ذلك فمند كانت الاواني الفخارية لا تزال تصنع باليد غير انها كانت مزخرفة بشكل جميل يدعو الى الاعجاب ومعدة في كورة خاصة كما لو ان صانعيها كانوا من المحترفين • وكانت نقوشها هندسية ونباتية وحيوانية مثل الازهار واوراق النباتات والشجيرات والطيور والافاعي والغزلان ورؤوس اشيران الطبيعية او المرسومة بهيئة رمزية • وشاع تلوين الاواني في الدور الاول باللون الاسود وفي الدور الثاني بلونين او بعدة الوان كالاخضر والبرتقالي والاصفر والبني والاسود • وانتشرت هذه الاواني الفخارية في الجهات الغربية عبر الجزيرة والقرات الى سورية واسيا الصغرى •

وتدل البقايا العمرانية على التقدم في التنظيم واساليب البناء فقد توزعت البيوت على جانبي شوارع مبلطة بالاحجار الطبيعية • ومع ان الطين بقي المادة الشائعة في البناء إلا ان الآجر المجفف بالشمس ظهر في هذه المرحلة واستخدم في بناء الدور والمعابد • وفي اواخر هذه المرحلة ظهرت مباني مدورة لبعضها مدخل بشكل حجرة مستطيلة

اكتشف متلها في جزيرة قبرص وجزيرة كريت وفي ما يسيناي في شبه جزيرة اليونان ولعلها تكون نوعاً من المعابد او المزارات الدينية او مضيفاً للمجتمع القروي او طرازاً خاصاً من دور السكن . ووجدت بين انقاض قرى هذه المرحلة انواع جيدة من القلائد والاقراص الحجرية الصغيرة المزخرفة بخطوط مستقيمة او متقاطعة ربما كانت تستعمل لختم السدادات الطينية على الجرار . انها كانت اختتاماً منبسطة تطورت في العصور اللاحقة الى اختتام اسطوانية . كما وجدت رؤوس العصي الحجرية والتماثيل الحجرية والدمى الحيوانية والتماثيل البشرية للالهة الام .

وفي المرحلة الثانية اي مرحله حضارة العبيد (نسبة الى تل العبيد قرب اور) انتشرت القرى في جميع انحاء العراق بينما كانت قرى المرحلة السابقة منتشرة في المنطقة الشمالية بالدرجة الاولى ووجد قليل منها في وسط العراق ولم يعثر لها على أثر في الجنوب . فقبل نهاية عصر حلف بدأت في تبه كورا بمحاظفة نينوى عناصر قوية من حضارة العبيد بالظهور . ويمكن القول انه في المناطق الوسطى والجنوبية قامت المدن التاريخية فوق انقاض عصر العبيد والوركاء كما تشير الى ذلك التحريات التي تمت في مدن كثيرة مثل اور واريديو ولكش وفهر والوركاء وتوتب (خفاجي) وغيرها . ويسكن القول ايضاً انه في نهاية الالف الخامس قبل الميلاد كانت عدة قرى من عصر العبيد منتشرة على النهرات المتفرعة من الانهار الرئيسية وتتميز هذه القرى المتطورة بالاسوار التي تدور حولها وبازدياد عدد سكانها بدليل ازدياد عدد دور السكن وكثرة القبور التي تجمعت بهيئة مقابر عامة خارج المستوطنات . فقد وجد مالا يقل عن الف قبر في اريديو . وكانت هذه القبور منتظمة ومبنية باللبن . وتطورت المعابد من حيث ازدياد مساحتها وتعدد مرافقها ومتانة بنائها وتطور طرزها العمارية . وحصل بعض التقدم في التعدين اذ وجدت فؤوس نحاسية في قرية تبه كورا مع الالات التي صنعت من الحجارة او

الفخار مثل رؤوس المحار التي كانت نجرها الثيران والحمير ومثل المناجل الفخارية واقراص المغازل والمسامير والاو تاد * اما صناعة الاواني الفخارية فتدل على ضعف في المستوى الفني اذا فورنت بالاواني الفخارية من القرى السابقة من حيث تقنية الصناعة والزخرفة والتلوين اذ لونت بلون واحد فقط هو اللون الاسود وقد اضيف هذا اللون الى سطح خال من الطلاء * اما النقوش الزخرفية فقد اصبحت اقل روعة وجمالاً * واتسعت الزراعة واصبحت بالضرورة زراعة ري في السهول الرسوبية الوسطى والجنوبية * وكانت زراعة الري في اولى مراحلها تمثل اقدم تجارب ومحاولات مشاريع الري التي كانت في مقدمة العوامل التي حفزت الانسان على تنظيم المجتمع * ومع ان الحبوب الغذائية استمرت طعاماً رئيساً في الجنوب مثلما كانت في الشمال فان التمر في الجنوب دخل في قائمة مواد الطعام * وكان لظهور المعبد اثر مهم في التنظيمات الادارية والاقتصادية والاجتماعية *

وكانت لسكان هذه القرى اتصالات تجارية مع الاقطار المجاورة لتوريد وتصدير المواد الضرورية * وكانت تلك الاتصالات تستخدم في الغالب الطرق البرية مع سورية وتركية وايران * ووجدت دلائل تشير الى ان بعض تلك الاتصالات كانت بطريق البحر * ونذكر بهذه المناسبة نموذج القارب المصنوع من الفخار الذي وجد في قرية اريدو * ان قرية اريدو وقرية اور القرية منها كانتا على بعد قليل من ساحل الخليج العربي وربما كانتا تتصلان بالخليج بواسطة منخفض مائي كبير * وفي السنوات الاخيرة تم مسح اثري في بعض جهات المملكة العربية السعودية ولاسيما في المناطق الساحلية من الخليج ورصد اكثر من سبعة عشر موقعاً اثرياً وجدت في بعضها اثار من عصر العبيد كما وجدت اثار قروية من عصر العبيد ومن عصور لاحقة في واحة البريمي في الامارات العربية المتحدة وفي البحرين وقطر *

وفي قرى المرحلة الثالثة اي قرى عصر الوركاء تطورت بعض القرى
مثل العبيد وايدو والوركاء ونيوى وتبه كورا واور ولكش ونيبور *
فالمرارات الصغيرة التي تتابع بناؤها في نفس المكان اصبحت معابد واسعة
شيدت بالطابوق وتقسمت الى غرف عديدة * وصنعت الاواني الفخارية على
الدولاب ووجدت العربات الخشبية مما يدل على ان وسائل النقل ذات
العجلات اصبحت مألوفة والاشياء المصنوعة من النحاس او حتى البرونز لم
تكن نادرة * وصنعت لأول مرة الاختام الاسطوانية *

٣ - نشوء المدن في عصر فجر التاريخ :

استعرضنا فيما سبق نشأة القرى الزراعية ومقومات الحياة القروية في
العصر الحجري الحديث من حيث تدجين النبات والحيوان وبناء البيوت
واختراع الآلات والادوات الخاصة بحرث الارض وحصاد الغلة وتخزينها
وطحنها ومن حيث صناعة الفخار * واستعرضنا التطورات التي
حصلت في قرى العصر الحجري المعدني من حيث ازدياد عدد القرى واتساع
مساحتها وتكاثر سكانها واستيطان السهل الرسوبي وقيام زراعة الري
وتشييد المباني العامة وصنع المعادن وخصوصا النحاس واختراع الدولاب
والعربة ذات العجلات واستخدام الحيوان في النقل البري والزوارق
الشرعية في النقل النهري وابتكار المحراث والسرغ ونعل الحصان وظهور
الصناع المتخصصين والمتاجرة بفائض الانتاج الزراعي * كل هذه التطورات
مهدت الطريق لقلب قرى عصر النحاس الى مدن عصر البرونز *

ولاسباب غير معروفة بشكل واضح يتبين ان التمدن حصل في جنوب
العراق لا في شماله * وهذه الظاهرة تثير الدهشة والاستغراب فالمتبع
للتطورات الحضارية في هذا القطر يلاحظ ان اقدم استيطان بشري في العراق
حصل في المنطقة الشمالية * وفي هذه المنطقة صنعت اقدم آلة وبدأت اولى
عمليات الاستزراع وتم اول تدجين للحيوانات وتأسست اولى القرى ويتوقع

الباحث ان يلاحظ الانقلاب الثاني في تاريخ البشرية وهو الانقلاب الحضري قد حدث في شمال العراق ايضاً ولكن هذا لم يحصل ولا تعرف اسبابه الحقيقية لغاية الوقت الحاضر .

ان الصورة التي يستطيع رسمها عالم الاتاو عن المستوطنات العراقية بعد التطورات السريعة التي حصلت في قرى العصر الحجري المعدني ليست صورة عن مجتمعات زراعية بسيطة بل عن مجتمعات مدن تحتضن عدة طبقات اجتماعية ووظائف واختصاصات مثل الكهنة والحكام والامراء والكتّاب والحرفيين المتخصصين والتجار وعمال النقل والجنود وغيرهم . وهؤلاء جميعاً لم ينتجوا الطعام بل استهلكوه وعرضوا بضاعتهم وبنائهم وخدماتهم على القرويين المجاورين لهم لمبادلتها بفائض الانتاج الزراعي . والاثار التي تعود لهذا العصر ليست آلات صيد وزراعة وصناعات محلية بل اثاث معبد والآت وادوات منزلية واسلحة برونزية واوراني فخارية صنعت على الدولاب او اوراني معدنية ومجوهرات ذهبية وفضية واحجار كريمة وعربات ذات عجلات ومحاريث ومعاول وفؤوس وسكاكين وسيوف وخناجر معدنية صنعت من قبل فنانين محترفين واكتشفت على نطاق واسع . وبدلاً من الاكواخ والمنازل البسيطة يجد علماء الاثار مخلفات بيوت جيدة وواسعة وقصور ومعابد وحوائث عمل ومقابر مشيدة واسوار وخنادق . المدينة الجديدة كانت اوسع مساحة واكثر سكاناً من القرية الزراعية التي امتصتها المدينة او بقيت بالقرب منها . ومقابر المدن تشهد على زيادة الثروة والسكان . ان التحول الذي حصل في اقتصاد يقوم على الاكتفاء الذاتي الى اقتصاد يفيض انتاجه كان متماثلاً في جميع المدن واساسه لغة مشتركة ودين مشترك ونظام اجتماعي مشترك .

في العراق استطاع علماء الاثار متابعة عدة مراحل لهذا الانقلاب الحضري في عدد من المواقع المختلفة في السهول الجنوبية مثل الوركاء واريكو

واور ونقر ولكش ولارسا وشروباك * وفي بلاد اكد في كيش وجمدة نصر
واشنونا ونوتب وسبار وماري * وفي بلاد اشور في نينوى واشور * ونتائج
التنقيبات في الوركاء يمكن ان توضح تطوراً مماثلاً في المواقع الاخرى *
وهذه النتائج بين ان الوركاء في عصر فجر التاريخ اي بحدود سنة ٣٥٠٠
قبل الميلاد كانت مدينة *

ونمشياً مع موضوع بحثنا فنحن نعتبر الوركاء والمدن المعاصرة لها في
الجنوب اولى المدن في العالم *

في الوركاء فتح الالمان حفرة عميقة في وسط التل في ارضية معبد تبين
فيما بعد ان تاريخه يعود الى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد * ومن هذه الارضية بدأ
النزول بين جدران الحفرة المتعرجة الى اكثر من عشرين متراً واثناء النزول
كان باستطاعة المنقب التقاط قطع الفخار والاجر والالات الحجرية من جوانب
الحفرة * ان هذه الانقاض كانت بقايا مستوطنات متتابعة * وفي القعر ظهرت
التربة البكر وهي تربة الاهوار *

لقد بدأت الوركاء قرية في العصر الحجري الحديث واوجد انهدامها
وإعادة بنائها بنفس المكان عبر تتابع العصور تلا ارتفع ببطء فوق مستوى
الهور * والامتار العثرون الاولى (العد من الاسفل) من هذا التل
الاصطناعي كانت تتألف كلياً من خرائب اكواخ البردي واطلال بيوت الطين *
والاثار التي استخرجت منها توضح التقدم والتطور الذي شرفه آثفاً * ان
هذه الاثار تشير الى زيادة في استخدام المعدن ودولاب الخزف والمجلة
والعربة والالات المنزلية * والقرية توسعت في المساحة ولكنها مع ذلك كانت
لا تزال قرية * ثم ظهرت فوق هذه الانقاض في الطبقة الرابعة بدلاً من جدران
ومواقد الاكواخ البسيطة اسس المباني الضخمة لمجموعة من المعابد والقرب
منها زقورة * وفي قمة هذا التل لم يعد المشهد مشهد قرية بسيطة بل مشهد

مدينه^(١١) . ففي القسم الامامي من المدينة كشف المنقبون عن عدد من المعابد المقامة على مصاطب اصطناعية في منطقة معبد عرف في عصر حجر السلالات باسم معبد اينانا . وكشفوا عن معابد اخرى لاله عرف فيما بعد عند السومريين بالاله آنو في المكان الذي شيدت فيه زقورته . ففي المنطقة الاولى وجد مالا يقل عن ستة معابد موزعة بين الطبقتين الخامسة والرابعة وقد شيدت على هيئة ازواج يتجاور كل معبدین لعبادة إله وقرينته . وقد سمي احد المعابد من الطبقة الخامسة بالمعبد الكلسي لانه اقيم على مصطبه من حجر الكلس وكانت سعته ٧٥ × ٢٩ متراً . ويمتاز هذا المعبد والمعابد التالية له بان جدرانه زينت بمخاريط فخارية لونت رؤوسها باللون الاسود او الاحمر او الالبيض وادخلت بملاط الجدران عندما كان رطباً مكونة زخارف هندسية جميلة . وكشف المنقبون في الطبقة الرابعة / ب ما لا يقل عن ثلاثة معابد وعن معبدین في الطبقة الرابعة / أ . ابعاد احدهما ٨٣ × ٥٣ متراً وابعاد الاخر ٥٤ر٢٠ × ٢٢ر٢٠ متراً . وبرزت خلف معبد اينانا زقورة متصلة بمعبد عرف في العصور التاريخية بمعبد الاله آنو بلغ ارتفاعها نحو سبعة عشر متراً وشيد فوقها معبد صغير فيه غرفة للعبادة بنهايتها مذبح للنذور والقرايين وعلى كل جانب منها غرفة صغيرة . وقد اطلق على هذا المعبد اسم المعبد الالبيض^(١٢) . ويقال ان اسوار الوركاء كانت تحيط بمساحة قدرها خمسة كيلومترات مربعة^(١٣) ثم زادت في عصر فجر السلالات فبلغت ستة كيلومترات مربعة وكان محيطها في هذا العصر تسعة كيلومترات^(١٤) وكان سكانها قد قاربوا الخمسين الفا^(١٥) .

ان بناء الزقورة والمعابد وجمع مواد البناء ونقلها وصنع الاف المخاريط والاجر كان يستدعي بالضرورة استخدام أيدي عاملة كثيرة ومجموعة كبيرة من الحرفيين المتخصصين اي وجود عدد كبير من السكان . ومما لاشك فيه ان هذا المستوطن اصبح في هذا الوقت مدنة نوافرت فيه مواصفات المدن كما انه اصبح غنياً .

ومن معابد عصر فجر التاريخ المهمة التي كشفت عنها معاول المنقبين
«معبد العقير»^(١٦) ويعد هذا من المعابد العالية او الزقورات وهو مقام على
مصطبة ترتفع زهاء اربعة امتار * وزينت جدران المعبد العالي المشيد فوقها
بصورة جدارية ملونة جميلة قوامها اشكال ادمية رسمت على هيئة موك
واشكال لبعض الحيوانات *

وتتميز معابد هذا العصر باستعمال نوع من اللبن مربع المقطع في البناء
يرجح ان اول استعمال له ظهر في الطبقة السادسة في الوركاء واستمر في
الاستعمال في ادوار الوركاء التالية وفي دور جمدة نصر *

لقد وجد الاله مستقراً له على الارض وكان لهذا المستقر رجال يراعون
مصالحه ويديرون وارداته واملاكه المنقولة وغير المنقولة وهؤلاء الرجال هم
الكهنة الذين استأثروا بتفسير الارادة الالهية واقامة الطقوس وطلب القرابين
والنذور فصارت لهم سلطة مقدسة * واغلب الظن ان رجال الدين الكهنة
وجدوا في اول معبد * وتذكر النصوص التاريخية فيما بعد انهم كانوا يديرون
خزانة الاله ويفرضون على الناس واجبات جديدة كالنذور والقرابين واقامة
الصلوات * وفي معبد الزقورة وجد المنقبون رقيماً طينياً يحمل طبع ختم فيه
ارقام ، ويظهر ان هذا هو اقدم رقيم حساب ، وقد سبق رقم المعابد
السومرية التاريخية * وهكذا نجد ان معبد الطبقة الرابعة في الوركاء يكشف
عن جماعة ارتفعت الى مستوى مدينة تنصرف بفائض ثروة حقيقية تجمعت
في يد إله المدينة ويديرها رجال الدين الكهان وتشرف على تنظيم القوى
العاملة وتتوافر في المدينة صناعات متخصصة وتجارة بدائية ونقل بطيء
وبدايات للمحاسبة بل وللكتابة ايضاً * وبالطبع لم تكن الوركاء وحدها بمثل
هذه الحالة فمواقع المدن السومرية الكبيرة خلّفت بقايا لنفس المرحلة
الحضرية * ومن هنا يمكن تتبع الانقلاب الحضري في عملية تطويرية مستمرة
حتى ظهور نور التاريخ * وباختصار فان التطور الذي حصل في فجر عصر

التاريخ شمل تجمع الثروة وتحسين المهارة التقنية وزيادة نخصص العمل وتوسع التجارة وتفاوت الطبقات وسيادة المعبد الذي اصبح مركز حياة المدينة في الاهمية ويزاحمه في النفوذ والسلطة في عصر فجر السلالات عصر الحاكم الذي اتسع في المساحة مثل قصر كيتس واريديو وماري • ان كفة القصر اي السلطة الزمنية اصبحت ترجح على المعبد والسلطة الدينية منذ ان تولى الاكديون زمام الحكم •

والمرحلة التي تمثلها اعادة البناء الرئيسة الرابعة (الطبقة الرابعة) في الوركاء وجد ما يماثلها في جمدة نصر • وفي هذا الوقت حصلت زيادة في الثروة والاستيراد وتقدم في المهارة التكنولوجية اذ اخترع البرونز بعد اضافة القصدير الى النحاس واستخدم الرصاص والفضة وصنعت عربات الحرب الحقيقية وتعددت رقم المحاسبة الطينية واصبحت تكتب عليها الرموز والارقام • وفي المواقع الاخرى يمثل هذا العصر المعبد الاول في اريدو والطبقات ١٦ - ١٢ في معبد اينانا في نيبور والمعبد في العقير ومعابد سن. الخسة في توتب (خفاجي) والطبقة الرابعة في نينوى والطبقة السابعة في نوزي ومعبد العين في براك على الخابور والطبقة السادسة في تل بلا بمحافظة نينوى والمعبدان العاشر والتاسع في تبهكورا بمحافظة نينوى ايضا ومعبد قالينج آغا في محافظة اربيل •

وبعد عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد توضح المقبرة الملكية من عصر فجر السلالات في اور الازدهار الحضري فالصاغة كانوا يصوغون الاسلاك والسلاسل الدقيقة والحلي الجميلة المحببة والمخرمة من المعادن الثمينة ويشقون اقوى الصخور وينحتونها لعمل الاختام • وعمال التعدين كانوا مهرة في الطرق والصب وصنع التماثيل والفؤوس والسواطير والازاميل والمثاقب والسكاكين والمناشير والمسامير والابر والاقداح والنحاتون بدأوا

ينحتون الاواني والنماثيل من احجار الكلس والرخام ومن الاحجار
البركانية • والتجارون اجادوا صنع العربات والزوارق والقيتارات •

ان استعمال المواد الاجنبية المستوردة كالذهب والفضة والنحاس
والقصدير والرصاص واللازورد والفيروز والعقيق والياقوت والاصدف
والاخشاب والزجاج البركاني الى السهل الرسوبي يعني ان العلاقات
التجارية التي لاحظناها في العصور السابقة قد توسعت الان • وكانت مدن
سومر لها علاقات تجارية مع مدن النيل والسند التي شهدت هي ايضاً فيما
بعد مثل هذا الانقلاب الحضري • ففي عدة مدن عراقية وجدت اختام وخرز
واواني لم تكن سومرية الاصل بل مستوردة من السند • وعند
توحيد مصر وجدت مواد ذات اصول عراقية مثل الاختام الاسطوانية ومثل
نوع جديد من الزوارق • ان العراق ومصر والهند لم تكن منعزلة عن بعضها
قبل الانقلاب الحضري بل كان بينها تبادل للبضائع والافكار • وهذه
العلاقات ازدادت عند حدوث الانقلاب الحضري او بعده مباشرة • ولم تكن
هذه التجارة مجرد تجارة نقل من مكان الى مكان بل رافقتها اقامة المحطات
على الطرق وفي الاقطار التي تصل اليها البضائع حيث كان تجار القوافل
والمسافرون في الزوارق الشراعية يطيلون التوقف • وكان هناك ممثلون في
الاقطار المصدرة لتسلم البضائع وارسال بضائع بديلة عنها اضافة الى
الاهتمام براحة المسافرين • ومثل هذه الوكالات يحتمل وجودها في أور
وكيش وكانت موجودة في كبدوكيا باسيا الصغرى •

ان التغييرات الجديدة التي يلاحظها المنقبون في الفخاريات ومواد البناء
وطرز العمارة والفنون وطقوس الدفن والاثاث والالات وغيرها في مواطن
الاثار تدل على تغييرات في التقاليد والتقنية والى تبدل السكان وتسرب
اناس جدد الى المستوطن بالغزو او بالهجرة • والاقطار التي تتعرض الى
الجفاف والفيضان تكون الهجرة منها متوقعة ! لحدوث عند حلول الكارثة • ان

المجاعة، بدعو المزارعين والرعاة الى الهجره الى مناطق اخرى يقيمون مع اهلها في تعايش سلمي ويعملون فيها مقابل الحصول على الطعام او يلجأون الى غزو جيرانهم • وفي كلتا الحالتين يحدث الاختلاط بين الوافدين الجدد والسكان الاصليين ويترتب على ذلك ظهور حاجات وارهاء وطقوس جديدة في المجتمع الذي يحلون فيه •

ان هذا الغزو كان يمارس قبل الانقلاب الحضري ولكن اشتد امره بين المدن بعد الانقلاب الحضري بسبب حقوق الارض والماء والمنافسة التجارية ، ان الحروب هي التي جعلت المدن محصنة باستحكامات واسوار وخنادق • ووسائل الدفاع هذه كانت ضرورية لرد الغزاة وصد الحيوانات الضارية ولحماية الحقول والمراعي • ان الحروب حفزت على انتاج المعدن لصنع الاسلحة لاغراض الدفاع او الهجوم • وساعدت الحروب على ظهور افراد شجعان اصبحوا قادة وزعماء وملوكاً • ان الحروب كانت ايضاً عاملاً من عوامل ظهور العبودية ، التي ساعدت على تجمع الثروة وفائض الانتاج • ولم تكن الحروب وحدها هي التي توفر العبيد بل ان الناس الضعفاء والفقراء كانوا يعرضون خدماتهم على الموسرين مقابل الطعام والسكن • والمنفيون من المدن الاخرى كانوا يجدون ملجأ لهم على وفق الشروط نفسها ، واللاجئون من القحط والجفاف كان يسمح لهم بالعيش في المدن والضواحي لقاء واجبات وخدمات •

ان هذا الوضع الاجتماعي الجديد وما فيه من طبقات تضاربت مصالحها اوجبت وضع القوانين لتنظيم السلوك الاجتماعي ومنع الجريمة • وكانت مجتمعات عصر فجر التاريخ والعصور السابقة له تخلو من القوانين • وكل فرد كان يعرف حقوقه وواجباته وفقاً للعادات والتقاليد • فاذا اضيف اليها تأمين سماوي عن طريق الدين تصبح العادات والتقاليد قوية التأثير في السلوك الاجتماعي • والعرف والتقاليد هي انتخاب طبيعي لانواع السلوك

التي ثبتت صلاحيتها في خبرة المجتمع • وعلى العموم تكون حقوق الفرد في المجتمع البدائي اقل منها في مجتمع المدينة • ومن المحتمل ان تكون التقاليد والاعراف في الاصل قد فرضها اقوى عضو في المجتمع مثل شيخ القبيلة فاصبحت بعد نجاح تطبيقها مقبولة ومرغوباً فيها • ومن المحتمل ان يكون اصلها قرارات صدرت باتفاق مشترك بين اعضاء القرية وخضع لها افرادها لانها استهدفت النفع العام ، ومهما يكن مصدرها او اصلها فأن تطبيقها قد عاد بالفائدة على الجميع فقبلها الافراد وظموا سلوكهم بموجبها •

وحيثما حلت دولة المدينة في عصر فجر السلالات محل القرية ومشيختها حل القانون محل التقاليد والعرف فدونت الشرائع من قبل الحكام ورؤساء الدول ليخضع الجميع الى قواعد مشتركة واحدة في تنظيم الحقوق والواجبات والمعاملات والعقوبات • وهكذا تدرجت القوانين من عادات وتقاليد تمتد جذورها في ذاكرة الشيوخ والكهنة الى تشريع مكتوب على الواح الطين او اوراق البردي ونشر للناس للعمل بموجبه كما فعل اوركاكينا ولبت عشتار وارنمو وحمورابي في العراق هانزسيلاس وشوبلليوما في اسيا الصغرى وليكرغوس وصولون في بلاد اليونان •

في مصر العليا والسفلى توفرت السلطة الحاكمة قبل توحيدها وكان الفرعون الاول من مصر العليا ولكن توحيد القطر حدث في عصر الانقلاب الحضري • اي ان الملوك كانوا موجودين قبل ظهور المدن • ونفس الشيء يقال عن العراق فالملوك وجدوا فيه قبل الطوفان وبعده • وفي جميع الحالات كان الطريق مفتوحاً الى السلطة الملكية قبل بدء الحياة في المدن ولم تكن الحرب الطريق الوحيد الى العرش فالنجاح في مجال الاقتصاد والسحر والدين كان يقدم الانسان الى المجد •

هكذا كانت مراحل الانقلاب الحضري في وادي الرافدين وهكذا كانت نتائجه الدينية والصناعية والتجارية والفنية والاجتماعية والعلمية •

بهذه الخطوات نمت وتطورت بقدم اقوام جديدة عبر العصور الماضية
 فطفوس الدفن في العصر الحجري الحديث نختلف عما كان شائعاً في عصر
 فجر التاريخ بجمدة نصر وهذه كانت تختلف عما عرف من المقبره الملكية في
 اور • وحصل تغيير في العمارة يدل على شيء آخر غير التقنية فالمعبد الرابع
 (الطبقة الرابعة) في الوركاء بني على اسس من حجر الكلس لا يتوفر في
 السهل الرسوبي ومن لبن مربع المقطع وفي المرحلة التالية استبدل بهذا الحجر
 طابوق اعد في كورة وكان من النوع المستوي ولكن اكثر المعابد والمباني
 الكبيرة الاخرى بنيت بطابوق مستوي محذب • ويبدو ان هذا التغيير
 العماري يمثل طرازاً جديداً استخدمته جماعة جديدة • والاخام ترك اشارات
 الى الحروب وعندما شاعت الكتابة نجد ان وادي الرافدين كانت تسكنه
 مجسوعتان لغويتان بعض سكانه يتكلمون باللغة السومرية وبعضهم باللغة
 الاكدية • ان هذا الاستيطان المزدوج لم يؤثر على مسيرة الحضارة كثيراً
 فالالهة ومعابدها بقيت ورجال الدين احتفظوا بسلطانهم وامتيازاتهم •
 والوثائق المدونة تصف تغييرات متكررة لسلالات حاكمة وغزوات متعددة •
 وفي اثناء ذلك كانت المعابد تنهب او تهدم ولكن الملك الجديد يعيد بناءها
 حتى ان الاسكندر المكدوني اختتم فتوحاته في الشرق في عام ٣٣٣ قبل الميلاد
 باعادة بناء الايساكيلا المعبد الكبير في بابل • ان اعادة البناء المتكرر لمعابد
 عصور قبل التاريخ في الوركاء والمدن الاخرى في نفس مكانها القديم خير
 شاهد على استمرار تقاليدهم في العصور التاريخية • وباستمرار طبقة رجال
 الدين وازدياد ثروتها فان مهمة ادارة الواردات المتزايدة اصبحت اثقل وأعقد
 فكان على الاداريين ابتكار طريقة جديدة لتسجيل حساباتهم فابتكروا الكتابة
 التي قرأها اهل زمانهم والعلماء المحدثون • وفي زمن المعبد الرابع في الوركاء
 ظهرت وثائق مدونة على الطين قابلة للقراءة وحلت محل اثار عصور قبل
 التاريخ • وتصف النصوص المدونة بعد هذا التاريخ صورة عن النظام
 الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والفكري لمدينة العراق القديم •

ويفهم من تلك النصوص ان الارض كانت مقسمة الى خمس عشرة
او عشرين مدينة او دولة مدينة يتكلم اهلها بلغة واحدة • ومركز المدينة هو
المرنفع الذي تقوم عليه معابد إله المدينة ومعابد الالهة الاخرى • والالهة هي
تجسيد للقوى السحرية وتمثيل لموت النباتات واعادة نموها • وتقام له
الطقوس السحرية للانبات وزيادة الغلة • وبمرور الزمن اخذ الممثلون الذين
يرمزون الى الحبوب وسحر الانبات دور الالهة التي تمتلك القوى السحرية •
وقبل بداية التاريخ وضع المجتمع آماله ومخاوفه في هذا الشخص فاحترمه
باعتباره سيد الدولة المقدس • وكان لكل اله مدينة مستقر على الارض وهو
معبد المدينة الذي يتألف من مكان للعبادة ومن كهنة ومن حقول زراعية
وحوانات داجنة ووسائل للانتاج • وتشمل الوثائق المبكرة للمعابد قروضاً
من البذور والحيوانات الى المزارعين والصناع • وكان المقرض لا يسدد
الدين فقط بل يضيف اليه قليلاً من النذور تعبيراً عن الشكر الذي يسمى
بالفائدة في وقتنا الحاضر • هذا النظام الاقتصادي الذي جعل من اله المدينة
اعظم الرأسماليين ومن معبده اضخم مصرف يعود الى عصور قبل التاريخ
فالرقم الطيني ذو النقوش من اقدم معبد في اريدو ، والرقم الطينية ذات
الكتابة الصورية من جمدة نصر تعتبر سلفاً لرقم حسابات المعبد في العصور
اللاحقة •

ومنذ سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد ظهر الى جانب الاله في كل مدينة حاكم
زمني سمى نفسه بتواضع ممثل الاله او نائبه وسمى نفسه ملكاً ايضاً • وربما
كان هذا الشخص مجسداً لاله في الطقوس الدينية التي تخيلها اهل عصور
قبل التاريخ • وفي الواقع اخذ هذا الكاهن او الحاكم او الملك دور الاله في
بعض الطقوس واعتصب الحصة الاساسية لقوة الاله في سيادته على الناس
وفي حكمهم حكماً مطلقاً بموجب الحق الالهي المقدس • ومع ذلك فقد انجز
الملك اموراً مهمة كان لها تأثير حسن في تطور مجتمع المدينة لانه امتلك قوة

الزعيم المدني والقائد العسكري فسعى للتوازن بين المصالح المتضاربة للطبقات ودافع عن استقلال المدينة وفتح قنوات الري وبنى المعابد واستورد المعادن والاششاب والاحجار الكريمة وكان جيشه يحرس المدينة والحقول والمراعي ضد الغزاة من السهوب المجاورة او القبائل من الجبال *

وفي بعض الاحيان كان الغزو الحربي يغرس حضارة المدن بعد تحول قرى كبيرة او مدن صغيرة الى مدن صناعية وتجارية ففي عهد الاكديين وربما في عهد السومريين قبلهم تحولت نينوى الى مركز حضري ثانوي للتوزيع . ان اهل نينوى لم يأتوا من بلاد سومر او بلاد اكد ولكن افدم المعابد في المدن الاشورية بناها السومريون والاكديون . كانت اشور مأهولة بالسكان قبل عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد ومن المحتمل انها كانت كذلك قبل الاستيطان في سومر ولكن في الاقطار السهوية مثل اشور يتوافر المطر للزراعة الدائمة فانتشر السكان في العديد من القرى الدائمة فافتقرت الى الحافز الذي يدعو الى رصّ التنظيم الاجتماعي لبناء مشاريع الري وفتح الجداول والترع واقامة السدود والارصفة . هذا الحافز الذي اثار بشكل فعّال لاحداث الانقلاب الحضري في جنوب العراق . ان سكان قرى اشور حافظوا على نسطهم الاقتصادي القديم ، ولكن بعد عام ٢٨٠٠ قبل الميلاد وربما في ايام سرجون الاكدي بدأوا يستخدمون الالات والاسلحة المعدنية ويقايضون فائض انتاجهم الزراعي بالمواد والسلع التي لا تتوافر في منطقتهم ، ولا ريب في ان السومريين هم الذين علموهم فنون التعدين *

وفي بعض الاحيان كانت مقاومة الغزو او مقاومة التهديد به يدفع اهل القرى الى اقتباس مقومات التمدن للدفاع عن الاستقلال بامتلاك الاسلحة المعدنية . وهذا لا يكون إلا بعد تعلم التعدين وانتاج فائض من المحصول لاعالة الحرفيين اي الاخذ بثورة التمدن وتبني الاقتصاد الحضري . ان بدايات حياة المدن الابتدائية في بلاد اشور يمكن ان تفسر بهذه الطريقة *

ليس هذا فقط في بلاد اشور بل في كل المناطق التي خضعت للنفوذ السومري والاكدي كما في لورستان وعيلام وسورية حيث ظهرت مراكز التعدين بعد سنة ٢٨٠٠ قبل الميلاد ووجدت فيها نماذج من الصناعات العرفية او نماذج مفصلة لها . وبين سنة ٢٨٠٠ - ٢٠٠٠ قبل الميلاد تأسست حضارات البرونز في الهند وجزيرة كريت وشبه جزيرة اليونان وهضاب اسيا الصغرى وايران وبلوچستان وشمال القفقاس . ان هذه المراكز الثانوية ليست مراكز اصلية بل ظهرت نتيجة تبني تقاليد وافكار وعمليات اقتبست بالتشابه من المراكز الاصلية القديمة التي كانت مدن العراق اقدمها .

ويظهر ان عوامل نشوء المدن كثيرة وانه ليس هناك سبب واحد لنشأها ولكن توجد عدة مظاهر حضارية تضافرت على تكوين المدن يأتي في مقدمتها فائض الانتاج الذي كان قليلا ان لم يكن معدوماً في المجتمعات القروية ذات الاكتفاء الذاتي ولهذا لم يظهر تخصص واضح ولا طبقات اجتماعية متميزة فيها . هذا النوع من المجتمعات موجود اليوم إلا ان مجتمعات مماثلة تطورت الى مجتمعات اكثر تعقيداً وسارت على درب التمدن قبل الالف السنوات بفضل فائض الانتاج الذي يقوم على اختيار الحبوب ذات الانتاج الغزير والقوة الغذائية العالية والتي تتحمل الخزن لمدة طويلة . وبفضل التقدم التكنولوجي وفائض الانتاج ظهر تقسيم العمل والتخصص فيه ونشوء الطبقات الاجتماعية وظهور الزعامة السياسية التي سعت لتأسيس وتطوير وادامة نظم الري التي زادت بدورها من فائض الانتاج . ومن عوامل نشوء المدن التقدم التكنولوجي الذي حفز على التعدين وصناعة المعادن واختراع المحراث والعجلة والعربة وصناعة الآلات التي ضاعفت الانتاج والتوزيع كما حفز على تسخير الرياح للنقل التجاري وطحن الحبوب ، وبالتقدم التقني يمكن جمع الفائض وتخزينه وتوزيعه . والعامل الاخر الذي عجل في الوصول الى مرحلة الانقلاب الحضري هو الكتابة ، والمقصود بها ليس فقط الحساب

البسيط بل تدوين الحوادث التاريخية والمعتقدات الدينية والاداب والقوانين التي توارثتها الاجيال . وفي ظل الكتابة وجدت نخبة متعلمة كان لها الدور الرائد في مجتمع المدينة . وهذه النخبة رغم قلة عدد افرادها كانت تقود هيئة سياسية تدعمها عقيدة دينية في طبيعتها عادة تستطيع ان تنظم القوة العاملة لبناء المباني العامة والاسوار والخنادق ومشاريع الري . والعامل الاخر الذي يسر نشوء المدن هو البيئة الطبيعية التي لا تتوفر فيها التربة الخصبة لنمو النباتات فحسب بل الماء الكافي للحقول والبساتين وللاستهلاك الحضري . هذه الظروف توافرت في وديان الانهار ، وفي سهولها الفيضية ظهرت اولى مدن العالم من تجمعات سكانية كثيرة العدد من غير المزارعين الذين يقيمون في مساحة مناسبة لمبادلة بضائعهم ومصنوعاتهم وخدماتهم مقابل فائض الانتاج الزراعي الذي ينقله اليهم المزارعون من القرى او الضواحي المجاورة .

في جنوب العراق لم تكن الارض خصبة والمياه متوافرة فحسب بل لأن المنطقة تقع على شبكة من الطرق سهلت الاتصال المستمر باقوام متباعدين لآلاف السنين . والاختلاط الذي حدث بين الحرف والمهارات الغريبة والاصلية اضافة الى العوامل التي شرحناها سابقاً كان لها تأثير قوي على ظهور اولى المدن الحقيقية التي اخذت شكلها حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد في هذه المنطقة . وتأتي مدينة الوركاء في مقدمة تلك المدن وتزامنها جمدة نصر واريديو ونيبور والعقير وتوتب ونوزي وكورا وبلا وينيوى وبراك . وتأتي بعدها مدن عصر فجر السلالات السومرية والمدن الاكدية مثل الوركاء وجمدة نصر واريديو واور ولارسه ولكش وكرسو وسرغل واوما وشروباك وبسمي ونيبور وكيش وايسن وسبار وكوثي وبابل وبورسييا واشنونا وتوتب وينيوى ولراك واوبي واكد (١٧) .

وعلى قدر ما يتوفر لدينا من احصائيات بشأن مساحة وسكان بعض هذه المدن نذكر ان مدينة اور وعديد من مدن جنوب العراق بلغت مساحتها

في عصر فجر السلالات حوالي كيلومتر مربع واحد^(١٨) . وكانت مساحة مدينة توتب (خفاجي) ٤٠٠٠٠٠ متر مربعا^(١٩) ومساحة مدينة الوركاء ستة كيلومترات مربعة^(٢٠) . اما من حيث النفوس فقد بلغ عدد سكان مدينة لكش ١٩٠٠٠ نسمة واوما ١٦٠٠٠ نسمة وتوتب ١٣٠٠٠ نسمة واشنونا (تل اسمر) ٩٠٠٠ نسمة^(٢١) والوركاء ٥٠٠٠٠ نسمة^(٢٢) .

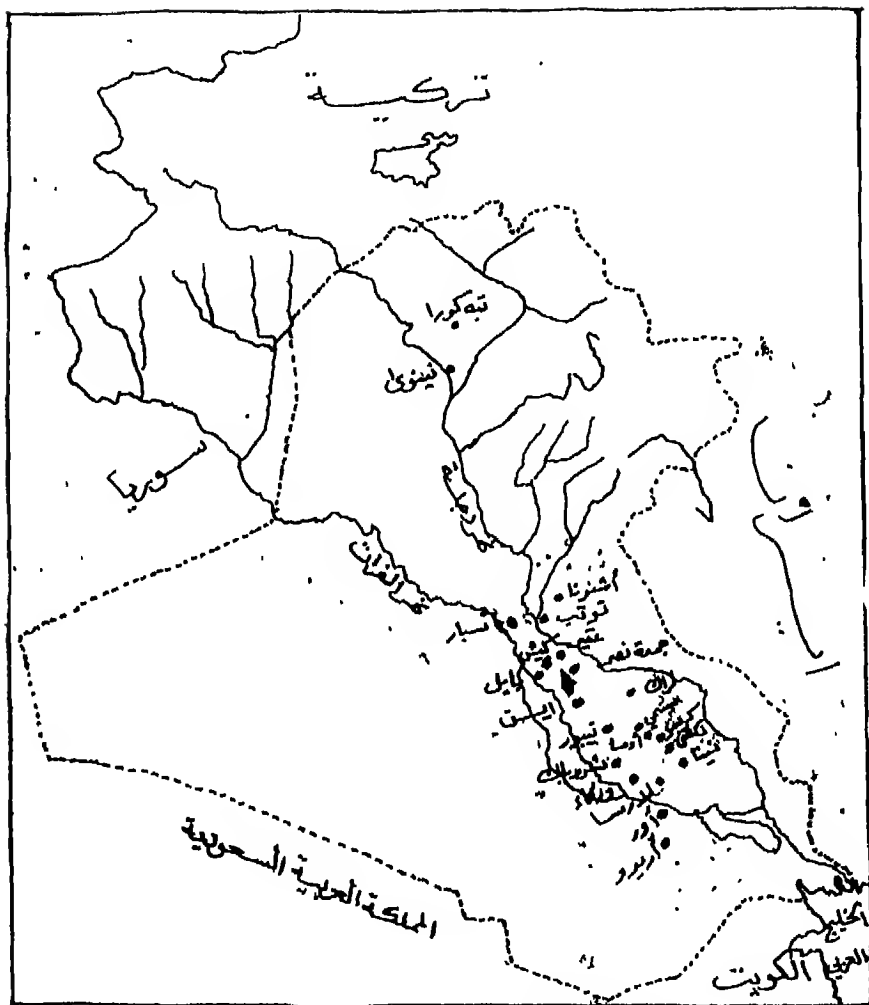
وبالرغم من التنوع الحضاري الكبير بين سكان الشرق القديم فان المدن المبكرة في هذه المناطق كان فيها عدد من الصيغ المنظمة المشتركة كالتيوقراطية لان الملك والكاهن الاعلى شخص واحد . والنخبة المتعلمة او الكهنة كان مستقرها الرئيس في وسط المدينة وان خدمهم وتابعيهم كانوا يقيمون حولهم في هذا المركز الذي يحظى باحترام الجميع . وفي وقت لاحق نسبيا اقيم الى جوار هذا المركز الديني قصر الحاكم او الامير او الملك ، وبنيت بالقرب منه المباني الحكومية ودور الموظفين . وعلى بعد قليل من هذه النواة كانت مساكن وحوائث الفنانين والحرفيين . وفي هذا المركز تأسست السوق لتبادل السلع والبضائع بمواد الطعام والمواد الخام . ومن هذا المركز العام كانت الشوارع تتجه نحو الابواب الخارجية في الاسوار . وكانت الشوارع مبلطة وغير مبلطة وكثيرة التراب ولكنها كانت مستقيمة وعريضة بحيث تكفي لمرور العربات ذات العجلات . وعلى طول الطريق تقع منازل الاغنياء المجهزة في بعض الاحيان بنظام لصرف المياه الوسخة . اما بيوت الفقراء فكانت تقع في الخلف والدخول اليها من ازقة ضيقة او تقع في الضواحي والاعمال التجارية كانت تصرف على ارضية المواني المجاورة للانهر او في السوق او عند بوابات المدن . ويحيط بالمدينة سور واحد او اكثر من سور حوله خندق احيانا لاغراض الدفاع ضد الغزاة . وخارج جدران السور كانت زرائب الحيوانات والحقول . وخلف الحقول تمتد الصحراء وفي الصحراء يسكن البدو .

ان جنوب العراق وحدة جغرافية اعتمد سكان مدنه في معيشتهم على خصوبة التربة وماء الرافدين واعتمد في حضارته على استيراد المواد الغريبة من مصادر مشتركة ، ونظرا لاعتماد المدن على الماء من نفس الانهار فان النزاعات بشأن الارض وحقوق الماء كانت متوقعة بين عديد من المدن المستقلة . ونظراً لان جميعها اعتمدت على التجارة الخارجية لاستيراد نفس الاحتياجات الصناعية فقد ظهرت المنافسة بين دويلات المدن . ان التناقض بين النظام الاقتصادي القائم على استقلال المدن وبين الاتصال السياسي كان واضحاً في حروب السلالات . والمدن المبكرة تسجل بعد حسابات المعابد الحروب بين المدن المتجاورة التي كانت تنتهي بمعاهدات ولكن لفترات مؤقتة ، اذ لم يوضع حد لهذه الحروب الاهلية إلا حينما وحد سرجون الاكدي دول المدن المستقلة . ولم يتوقف تاسيس المدن بل استمر في ظل الدولة القومية وتوسع نفوذها .

الهوامش

- ١ - تقي الدباغ . حضارة العراق ج/١ ص ١٢١ - ١٤٥ . بغداد ١٩٨٥ .
- ٢ - Wailly, F. and Abu Al - Soof, B. The Excavations at Tell
Es - Sawwan, First. Preliminary Report, 1964, Sumer,
Vol. 21, 1965, P. 18.
- ٣ - تقي الدباغ ووليد الجادر . عصور قبل التاريخ ص ٢٢٨ ، ٢٤٨ بغداد .
١٩٨٣ .
- ٤ - Tobler, A. Excavations at Tepe Gawra Vol. 11, Philadelphia,
1950, P. 211, pl. XCVIII, Nos. 5 and 6.
- ٥ - وليد الجادر . حضارة العراق . ج/٢ ص ٢٤١ بغداد ١٩٨٥ .
- ٦ - وليد الجادر . نفس المصدر ص ٢٤١ .
- ٧ - وليد الجادر . نفس المصدر ص ٢٤٣ - ٢٤٦ .
- ٨ - كوردن جايلد . ماذا حدث في التاريخ ' . ترجمة جورج حداد ص ٧٩ .
- ٩ - Speiser, E., Excavations at Tepe Gawra, Vol. I. 1935, pl.
XXXV, a.
- ١٠ - Safar, F., Mustafa, M., and Lloyd, S. Eridu, Baghdad, 1982,
P. 231, Fig. 111.
- ١١ - كوردن جايلد . ماذا حدث في التاريخ . ترجمة جورج حداد ص ٩٠ .
- ١٢ - طه باقر . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج/ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .
بغداد ١٩٧٣ .
- ١٣ - كوردن جايلد . ماذا حدث في التاريخ . ترجمة جورج حداد ص ٩٣ .

- ١٤- طه يافر . مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج/١ ص ٣٢٥ بغداد ١٩٧٣
- ١٥- Adams, R., in Avenues to Antiquity, Readings in Scientific American. ed. Fagan, B., 1975, p. 191.
- ١٦- Lloyd, S. and Safar, F., in JNES, 1943.
- ١٧- طه يافر . نفس المصدر . ص ٧٥ - ٧٦ .
- ١٨- Adams, R., Ibid, P. 191.
- ١٩- Delougaz. P., The Oval Temple at Khafajah, 1940.
- ٢٠- طه يافر . نفس المصدر . ص ٣٢٥ .
- ٢١- Frankfort, H. Town Planing in Acient Mesopotamia, 1950, P. 104.
- ٢٢- Adams, R. Ibid, P. 191.



مدن عصر فجر التاريخ والعصور التاريخية المبكرة
في العراق

الفصل الثاني

التجمعات الزراعية الأولى

الدكتور وليد الجادر

كلية الآداب - جامعة بغداد

يعتبر بعض المتخصصين ان فترة موضوعنا المباشر الخاص بالمستوطنات
أو التجمعات الزراعية ما هي الا مرحلة أولى لانتاج القوت او بالاحرى
بدايات العصر الحجري الحديث الذي يتحدد ببداية الالف الثامن قبل الميلاد.
والمعروف ان الظروف البيئية والمناخية كانت ملائمة
ويضاف الى هذه المناطق منطقة الجزيرة التي تحدد جغرافيا بالمنطقة الكائنة
تقريبا بين دجلة والفرات ابتداء من شمال وسط العراق جنوبا الى سلسلة
جبال جنوبي اسيا الصغرى شمالا وتتميز هذه المنطقة بكونها عبارة عن
منطقة سهوب او هضبات تقع على ارتفاع (٥٠٠ - ١٠٠٠ قدم)^(١) .

وتعتبر هذه جزءا من هضبة جزيرة العرب وهذه الظروف كانت متكاملة
لتوفر غابات لاشجار متنوعة اضافة الى نمو نباتات واعشاب برية وخاصة
على منحدرات الجبال وجوارها وعلى ضفاف مسارات المياه المتوافرة بشكل

خاص (٢) وكان للمتغيرات المناخية دورها في التوصل الى مرحلة انتاج القوت مع العوامل الاخرى ، ومنها تراكم المعارف والتجارب أي بفعل التقدم الثقافي والتقني الذي بلغه الانسان . وفي الحقيقة فقد حدثت التغيرات في تجارب البشر ونوع النباتات والحيوانات ، وكان تدجين الحبوب عن طريق الانتقال العرضي لجامعي القوت او الحيوانات القابلة للتدجين في المناطق المرتفعة الى مناطق السهوب والوديان ، وكان انتقال الجميع موسميا وظلت جماعات اخرى تمارس تخصصاتها المقاربة وهو رعي الحيوانات (٣) ، اضافة الى التخصصات المكملة واهميتها في بدايات الاستقرار الموسمي . من قرية جرمو تعرف حتى الان اقدم الدلائل التي تشير الى بدايات الاستقرار في اولى القرى الزراعية وزراعة اولى الانواع المهمة من الحنطة والشعير وهي نماذج لازالت تعتبر من اقدم ما توصل اليه الانسان في الزراعة . تقع قرية جرمو على بعد حوالي احد عشر كيلومترا شرق جمجمال التي تقع بدورها في منتصف الطريق بين كركوك والسليمانية وتقع على ارتفاع حوالي ٧٥٠ مترا فوق مستوى سطح البحر (٤) . وبناء على مجموعة اختبارات كاربون ١٤ الاشعاعي فان منقب القرية بريد وود ، يرجح ان تاريخ القرية وبداية انتاجها للقوت يعود الى حدود ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد (٥) . انتشر التجمع السكاني في جرمو على مسافة تزيد بطبيعة الحال على المكتشف منها حتى الان وهو حوالي ١٥٠٠ م^٢ من اصل يقرب من حوالي ثلاثة عشر الف مترا مربعا . ولاهمية اختيار الموقع ائذائك من قبل سكانه فان صلاحيته للمعيشة كانت متوافرة بشكل متسلسل وعلى مدى ست عشرة طبقة او مرحلة معيشة وبلغ عمق هذه الطبقات عموديا حوالي سبعة امتار وكانت الحنطة البرية من النوع المعروف بـ (Emmer, Einkorn) من اولى النباتات المهمة التي توصل اليها الانسان الى

تدجينها وتتميز هذه النوعية من الحنطة بأن صنف السنابل كانت ثنائية ورباعية واصبحت بعد تدجينها سداسية بالطفرة^(٦) .

وهناك نوعية اخرى من الحنطة المعروفة بـ (einkorn) والبري منها ثنائي صفوف السنابل والمهجن سداسي صفوف السنابل . ومع الحنطة كان الشعير الذي يميز البري منه بكونه ثنائي الصفوف أي أنه يتألف من صفين من الحبوب بينما اصبح المهجن محتويا على ستة صفوف ، وتعرف مجموعتان من الشعير : الشعير الذي تحمل سنبلته صفين من الحبوب والشعير الذي تحمل سنبلته ستة صفوف من الشعير والاولى كانت تنمو في البراري واقدم شعير مدجن عرف من جرمو . وبالإضافة الى هذين النوعين الرئيسين كانت هنالك مجموعات اخرى وتشمل قمح الخبز الذي تنمو في سنابله ستة صفوف من الحبوب وانواع اخرى دجنت في مراحل لاحقة . وكان تحسين انتاج البذور يتم باختيار افضل الحبوب للبذار وبالاختيار غير المقصود للانواع وبهذه الطريقة نتجت حبوب اكبر حجما مما كانت تنتجها النباتات البرية . وفي مستوطن جرمو كانت زراعة الحنطة من النوع الاول (emmer) معروفة وتعتبر من اولى الاصناف المزروعة في هذا المستوطن^(٧) . وفي مستوطنات اخرى لاحقة مثل مستوطنة حسونة وام الدباغية كانت زراعة الحنطة والشعير مألوفة وكانت العناصر الرئيسة المهمة للاستقرار في قرى او مستوطنات زراعية وكانت الحنطة والشعير تنموان سوياً في جميع مواقع العصر الحجري الحديث المبكرة ، وكان كلاهما ضروريا للاقتصاد الزراعي الجديد وتعتبران مادة غذائية مهمة ويمكن تخزينها بسهولة^(٨) ، وهي غنية بالكربوهيدرات المولدة للطاقة ، ومثل هذه الحبوب تعتبر غلات اصلية في

المناطق التي تنمو فيها النباتات القرنية والبقولية نموا طبيعيا والنباتات التي تنتج فيها الزيوت مثل الكتان كانت مهمة كذلك كما ان انواعا عديدة من الجذور والفواكه كانت تزرع في العصر الحجري الحديث * ومن النباتات المنتجة للزيوت الزيتون والسمن والخروع *

ومن المستوطنات المعاصرة الاخرى لاولى المقرات الزراعية موقع تمرخان الواقع في منطقة مندلي والقريب من مستوى الانتاج الحضاري * وكذلك الحال بالنسبة لموقع كاني سور الواقع جنوب مستوطن جرمو وخورا نامق الذي يقع على بعد حوالي سبعة كيلومترات شمال شرق جمجمال وقرة جيور وخرابه القريبتان من المستوطن جرمو^(٩) * وفي سهل رانية الواقع شمالي غربي اربيل عثر على مستوطن زراعي معاصر لجرمو وحسونة ويعرف هذا المستوطن بمستوطن شمشارة : يبلغ ارتفاع المستوطن ١٩ مترا ويقع على الضفة اليمنى للزاب الصغير ويقرب طوله اكثر من ٣٣ مترا ويحتوي على ست عشرة طبقة سكنية^(١٠) وتمتد مستوطنات اخرى معاصرة ولاحقة لمستوطنة جرمو في تركيا ومناطق اخرى الى الشرق والغرب والجنوب الغربي وصولا الى مناطق تقع اليوم في سوريا وفلسطين والاردن ومنها تل الرماد الذي يقع جنوب غربي دمشق وبقراس الذي يقع على الضفة الغربية لنهر الفرات جنوب دير الزور بحوالي ٤٠ كم ومريبط ورأس شمرا وفي الاردن مستوطن البيض القريب من البتراء واريحا *** الخ *

وخلال فترة الالف السادس قبل الميلاد انتشرت تجمعات سكنية زراعية في شمال وادي الرافدين ومناطق عديدة مجاورة وتمثل قرية حسونة الزراعية نموذجا متكاملا والمعروف ان هذه التسمية منسوبة الى قرية معاصرة تحمل نفس الاسم وتقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومترا جنوب الموصل والى الجنوب الغربي من مركز حمام العليل والى الغرب من الطريق القديم الذي يوصل بغداد بالموصل ، وتبين من خلال التنقيبات التي اجريت فيها^(١١)

استمرارية السكن لحوالي اكثر من عشرة اجيال ، والمعروف ان من مميزات هذه الفترة ، من خلال موجودات هذا المستوطن الرئيسة وما يتميزه المستوطن ان السكان فيه ، كانوا يعيشون في اول الامر في مسنوطن بسيط يسكن تسميته بسكن الاكواخ والخيام ، وفيما بعد وفي الطبقات الاحداث رفا في نفس المنطقة شيدت البيوت من الطين (الطوف) وفق تخطيط مستطيل ايضا . ويتراوح ثخن الجدران بين ٢٠ — ٤٥ سم والبيت يتألف من عدة غرف صغيرة ذات وظائف متعددة قسم منها مخصص للنوم والاخر للخرن والطبخ . . اما ارضيات البيوت فانها من الطين المرصوص الذي ملط بطبقة خفيفة من الطين كذلك زودت الغرف بمدخل . اما اسلوب التسقيف فيبدو ايضا انه مائل وباسلوب الجملون ومصنوع من الاشجار او القصب المكسو بطبقة سميكة من الطين ، كذلك شيد سكان القرية مخازن للحبوب وجعلوها في ارضيات المباني وهي من الطين المطلي بالجص من الداخل والقار من الخارج .

من نفس مستوى المرحلة المعروفة بثقافة او حضارة حسونة تنتشر مستوطنات عديدة يقرب المكتشف منها لحد الان حوالي الستين موضعا ، وتنتشر هذه الى الغرب والشمال الغربي من مستوطنة حسونة انزراعة النموذجية ومن هذه المستوطنات قرية ام الدباغية . تقع هذه القرية على مسافة حوالي الخمسة عشر كيلومترا الى الغرب من مدينة الحضر وتسلس مساحة مشغولة ابعادها المكتشفة حوالي ١٠٠ × ٨٥ مترا (١٢) . والملاحظ ان بيوتها مشيدة بالطوف وفق تخطيط مستطيل في شكلها العام ثخن الجدران حوالي نصف متر ، توجد تخصصات مميزة لبعض الوحدات البنائية في هذه القرية ، ومن ذلك غرف صغيرة بدون مداخل متشيدة في صفين متقابلين لربما تكون مستخدمة كمخازن تتوسط هذه قاعة او فناء داخلي اقترح استخدامها ورشة لصناعة الفخار والملاحظ في هذا المستوطن استخدام اللبن أول مرة ، ووجدت بقاياها مبلطة لارضية، وفيها ساحة تتوسط مجموعة من البيوت . كانت

اهم المحاصيل الزراعية هي : الحنطة والشعير المألوفين في حسونة مع الاعتماد على الزراعة الديمية *

اعتمد سكان المستوطنة أيضا على الحيوانات البرية والحيوانات المدجنة الى جانب الحاصلات الزراعية الافة الذكر ومن الحيوانات البرية اعتمدوا بشكل خاص على الحمار الوحشي والغزال والخنزير البري والطيور والحيوانات المدجنة كالاغنام والماعز والخنازير والماشية • ويتمثل في مستوطنة ام الدباغية الموقع الذي يربط تحركات الجماعات البشرية من الشمال باتجاه الشرق والجنوب الشرقي، ولل سكان علاقة واضحة مع مستوطنات مهمة وواسعة تقع باتجاه الشمال مباشرة تلك هي مجموعة تلؤل يارم تبه (بالتركية يعني نصف تل) الواقعة على مسافة حوالي ستة كيلومترات جنوب غرب تلغفر وتمتد هذه البقايا على شكل ست مستوطنات تمتد لمسافة حوالي كيلومتر وعلى جانبي نهر ، ولقد استمر الاسيطان في هذه المواقع لفترة تزيد على الالف عام حيث احتوت ثلاثة من هذه التلؤل على مخلفات ثقافات حسونة وحلف والعبيد وتم العثور على ١٣ طبقة بسمك حوالي ستة امتار • كان الاسيطان في بيوت من الطين على وفق التخطيط المستطيل ايضا، والملاحظ ان الجدران ملونة باللون الاحمر وتحتوي البيوت على ساحات وممرات تفصل بين الغرف، ووجد بناء مميز يتكون من ١٤ غرفة شيدت بصفين وربما كانت هذه عبارة عن مخازن لاهل القرية^(١٣) • والملاحظ وجود تقارب وتشابه في استخدام المواد الولية المتطورة مع مستوطنة تل الصوان ومن ذلك شيوع استخدام مادة الجص وتشابه في بعض الوحدات البنائية التي يتوضح انها كانت تستخدم من قبل سكان المستوطنة عموما أي انها كانت ذات نفع عام •

وتعاصر هذه المستوطنات في يارم تبه مستوطنات اخرى قريبة فوق تلؤل الثلاث : وهي عبارة عن اربع مستوطنات متجاورة تقع بالقرب من مدينة

تلغفر^(١٤) . ولقد تم العثور على ست عشرة طبقة سكنية تضم أيضا المدة المحصورة بين حضارة حسونة وحضارة العبيد .

من المستوطنات التي تعود الى عصر حسونة والتي تقع قرية من مدينة كركوك قرية مطارة وفيها المواصفات الثقافية والانتاج الذي يشابه عصر حسونة وفيما بعد سامراء . وفيها ايضا الانتاج الذي يميز ثقافة المنطقة التي تقع شمال وسط الطرق وضمن الخط الذي يفترض ان يكون من المواضع التي حطت فيها جماعات سكانية خلال فترة منتصف الالف السادس قبل الميلاد وهي الفترة التي تميزت باتجاه المناخ نحو الجفاف النسبي الثاني بعد فترة الجفاف الاول في نهايات عصر البلايستوسين قبل حوالي الاثني عشر الف عام .

احتوى المستوطن المهم هذا على ست طبقات اثرية بسمك حوالي ٧ امتار، الجدران مشيدة بالطوف وفق التخطيط المستطيل^(١٥) . والمهم في بقايا المستوطن وموقعه الجغرافي في جنوب كركوك انه يوضح انتشار وتحرك المزارعين من شمال العراق باتجاه الشرق والجنوب الشرقي ليكونوا بعد ذلك طلائع السومريين الذين كونوا القرى الزراعية اللاحقة في وسط وجنوب العراق . باتجاه الشمال الشرقي وعلى الضفة اليمنى لنهر الزاب الصغير والى الجنوب من قضاء رانية كانت هناك مستوطنة زراعية لفترة ست عشرة طبقة تلك هي المستوطنة المعروفة محليا شمشارة^(١٦) وتبلغ تسعة عشر مترا وطولها حوالي ٣٣٠ مترا . استمر الاستيطان في المنطقة هذه خلال عصور ما قبل التاريخ وحتى العصور الاسلامية، ويوضح الاختيار الذكي للمستوطن في البداية استمرارية تواصل التجمع السكاني فيه . وهو يقع على منحدر واسع على نهر الزاب الصغير من جهة ومحميا بمرتفعات جبلية من الجهة الاخرى ويرتفع حوالي ٥٢٠ مترا فوق مستوى سطح البحر وطبقات عصر حسونة الزراعية من فترة الالف السادس قبل الميلاد وجدت في ثانيا

الطبقات المحصورة بين الطبقة التاسعة والسادسة عشرة في هذا المستوطن وربما تكون هناك طبقات أخرى ترجع الى فترة اقدم من عصر حسونه وذلك لان البعثة التنقيبية الدنماركية التي عملت في المستوطن منذ عام ١٩٥٧ لم تصل في حفرياتها الى الارض البكر ، واستأنفت المؤسسة العامة للاتار والتراث الاعمال التنقيبية الضرورية اللاحقة والتي توضحت من خلالها تفاصيل مهمة جدا ومنها اعتماد سكان المستوطن على الفائض من انتاجهم الزراعي في سبيل مبادلته باحتياجاتهم لمنتجات أخرى عن طريق التجارة ، والملاحظ استخدام المستوطنين هنا لقطع من الصخر كأسس لجدران مشيدة من الطوف في الطبقة الرابعة عشرة (١٧) .

والملاحظ ايضا استخدام اواني من المرمر بعضها مزود بثقوب وتشير صناعتها على تطور تقني واضح واحتمال سبق هذه الصناعة لمرحلة صناعة الفخار كما هو الحال في مستوطنة جرمو ، ومن المرمر ايضا صنعت في هذا المستوطن اساور وادوات كانت تستخدم في نصنيع ادوات أخرى (١٨) . اما مستوطنة سامراء وتل الصوان فهما من المستوطنات الزراعية السوذجية اللتين تقعان على الضفة الشرقية لنهر دجلة وضمن الحد الاسفل لمنطقة شمال وسط العراق ، ويقع المستوطن الاول أسفل المقبرة الاسلامية مباشرة (١٩) . وعلى نهر دجلة وبين مقصر الخليفة وسامراء الحديثة ، وتم العثور على بقايا تميز الفترة والموقع .

اما المستوطن او التجمع الزراعي المعروف بتل الصوان (٢٠) ، الذي هو عبارة عن مجمع واسع يحتوي على ثلاثة مستوطنات متجاورة امكن تمييزها حتى الان . وتتميز ايضا برقي في اساليب البناء حيث استخدام اللبن في تشييد الجدران لأول مرة كذلك استخدام السور المحيط بالمستوطن الرئيس وتزويده بمداخل ودعامات او ابراج . كذلك جرى اسلوب تخطيط البيوت بالتخطيط المستطيل ، وتميزت مجموعات من الوحدات البنائية

بكونها ذات وظائف واستخدامات عامة بفعل مساحاتها التي تصل الى :
١٤ × ٩ ، ٧٥ مترا وتحتوي على خمس عشرة غرفة منيعة بلبن كبير الحجم
وايضا باستخدام السلالم المتشيدة من الجص والتي وجد انها تؤدي الى سطوح
البيوت •

واستخدمت منحوتات من الحجر (المرمر) وبمستويات تقنية متميزة
خلال هذه المرحلة التي تحدد ايضا بمنتصف ونهايات الالف السادس قبل
الميلاد • ان قبور الدفن تميزت ايضا باحتوائها على موجودات ثمينة ذات
صناعة دقيقة •

واعتمد السكان في هذا المستوطن على السقي في زراعتهم ووجدت بقايا
متنحمة تدل على ممارسة زراعة نبات الكتان والقنب •

والهم ذكره هنا ان الاقتصاديات الرئيسة المعتمدة على الزراعة قد
تطورت باعتماد التجميع الزراعي هنا على انواع متعددة من الحنطة والشعير
وانواع اخرى جديدة من المزروعات ، يضاف الى كل ذلك اكتشاف تصنيع
لاولى الادوات من النحاس حتى الان ، هذا علما ان تاريخ فترة المستوطن تعود
بسوجب اختيار بواسطة الكربون ١٤ الاشعاعي الى النصف الثاني من الالف
السادس قبل الميلاد (٢١) • لقد اعتمد السكان في تل الصوان على المزروعات الرئيسة
من الحنطة والشعير والكتان وعلى تربية الماعز والخراف والبقر والخيول
والحمير والغزلان والجر الوحشية والخنازير البرية اضافة الى انواع من
الاسماك النهرية (٢٢) •

ولقد استخدم سكان مستوطنة تل الصوان مخازن للجلال مغطاة من
الداخل ببلاط من الجص وذلك لمنع تسرب الرطوبة ولحفظها من القوارض •
والملاحظ بموقع تل الصوان استخدام القار في البناء • ثم ان اسلوب التسقيف

كان يقوم على اساس وضع قطع من الخشب ثم قطع من الحصير فوفها طبقات من القير ومثل هذا الاسلوب تم اكتشافه عمليا اضافة الى اكتشاف استخدام بقايا الخشب ايضا (٢٣) .

ووجد في نهايات الالف السادس قبل الميلاد ما يقرب من مائتي مستوطنة زراعية في شمال العراق والنموذجية منها المكتشفة حتى الان مستوطنة الاربعية الكائنة في الموصل في الجانب الشرقي من نهر دجلة وقرب حي الزهور والتي تعرف اليوم بتبة رشوة (٢٤) . الجديد في هذه المرحلة ان بيوتها مشيدة وفق تخطيط دائري اضافة الى التخطيط المستطيل المعروف سابقا كذلك البناء المزدوج من الشكل المستدير والمستطيل معا (ينظر في ذلك الفصل الخاص بالعمارة والبناء) (٢٥) ، وتشير مساحة القرية ومستوى الانتاج الزراعي والصناعي فيها الى تطور كبير في تطوير بناء البيوت واستخدام اللبن في تشييدها والشوارع المبلطة بالاحجار الطبيعية . وتوجد دلائل على استخدام الري الصناعي في هذه القرية والتي تمثلت باستخدام الابار (٢٦) على الرغم من وفرة امطارها التي تساعد على نمو مختلف انواع المحاصيل الزراعية دون الحاجة للري الاصطناعي ولقد نمت زراعة الحبوب التقليدية والضرورية خلال هذه الحقبة وهي الحنطة والشعير مع وجود حبوب برية ايضا كما وجدت بذور الكتان .

وفي هذه المرحلة الحضارية ومن بين المواقع النموذجية الاخرى هذه نعرف قرية ابراهيم عزو التي تقع الى الشمال الغربي من موقع الاربعية وعلى بعد حوالي خمسة عشر كيلومترا شمال غرب مدينة الموصل ، وسبق لدائرة الآثار والتراث التنقيب في هذه المستوطنة عام ١٩٨٢ ووجدت ما يشير الى استخدام السكنى فيه الى ما يقارب من الك عام (٢٧) ومن المهم ملاحظته هنا ان دور السكن في المستوطنة على شكل دائري بقطر يصل الى ٣٥ م وسمك الجدران تصل الى اكثر من ٣٠ سم .

وفي المستوطن الثاني او التل الثاني من مواقع يارم تبة تتمثل ثقافة مرحلة الاربعية وحلف النافذة الى ثقافات مستوطنات لاحقة ، حيث الشكل العام للمباني يشمل التخطيط الدائري والمستطيل والمربع .

وهناك قرى اخرى تعود للمرحلة نفسها وتقع باتجاه الشرق والشمال الشرقي ومنها قرية بانه هلك (تقع قرب ناحية ديانة في سهل راوندوز) وقرية بكم الواقعة في سهل شهرزور (٢٨) .

وخلال نهايات الالف السادس وبدايات الالف الخامس قبل الميلاد ترصد في معظم مناطق جنوب غرب اسيا وحتى شمال افريقيا تحركات للجماعات السكانية في هاتين المنطقتين وذلك لحدوث تبدلات في المناخ بصورة تتوضح فيها معالم جفاف محلية وعامة واحيانا تجبر العديد من الافراد والجماعات على الهجرة .

في مستوطنة تعرف بقرية جوخة حامي وهي قرية تقع الى الشمال من مركز قضاء مندلي ما يشير الى علاقات سكانية وثقافية واضحة مع جماعات الشمال من المواقع الزراعية من فترة الاربعية وحلف، وفي الوقت نفسه فان هدم القرية النموذجية تشير الى ارتباط التجمعات السكانية الشمالية بالوسطى والجنوبية، ووجدت في المستوطنة بقايا انواع عديدة من الشعير والعدس وبذور العدس الكبيرة الحجم تشير بوضوح الى استخدام الري او السقي اضافة الى العثور على بقايا من قنوات يمكن تمييزها بوضوح على انها خنادق ري اصطناعية (٢٩) وبقايا سواقي محفورة حول القرية القديمة .

ولقد عثر في جوخة مامي على بقايا لدور سكن مماثلة لما عثر عليه في تل الصوان وايضا شبيهة لما عثر عليه مؤخرا في مستوطنة صنكر (التل أ) في حوض سد حميرين .

مستوطنة اريدو :

كانت اريدو من المدن الرئيسة المهمة التي كانت قائمة قبل الطوفان او الفيضانات الكبيرة وذكر السومريون انها خلقت من قبل الالهة ، وكانت اول مدينة مقدسة وذكروا انها كانت تقع على البحر وانها كانت مركزا لعبادة الاله انكي اله المياه وانها اضافة الى ذلك كانت مركزا لسكنى الكهنة وطلاب الدين . وورد اسم اريدو في جداول اثبات الملوك ، وهكذا تبدو اهمية هذه المدينة ليس فقط في القسم الجنوبي من وادي الرافدين ولكن في منطقة الخليج العربي ايضا لان اثارها الفكرية وصلت الى سكان تلك المنطقة ويذكر ان الملك اتمينا انشأ في هذه المدينة حوضا كبيرا تيمنا باله المياه انكي ويبدو ان هذا الحدث كان بعد تغير مجرى النهر عن المدينة وذكر الملك شولكي انه اعتنى بمدينة اريدو التي تقع على النهر . ويذكر ان الملك بورسن شيد زقورة للاله انكي في مدينة اريدو وتعود مباني اخرى في المدينة الى عهد بورسن وورد ذكر هذه المدينة في بداية شريعة حمورابي وظلت قدسية واهمية اريدو مستمرة بدليل ذكرها في كتابات وحوليات الملوك . وذكرها الاشوريون من ضمن المدن التي احتلوها في جنوب العراق وذكر الملك البابلي نبوخذ نصر انه قام بصيانة زقورة المدينة وعثر على بقايا اجر مختوم كتب عليه نبوخذنصر . ملك بابل باني الايزاكيلا والازيدا الابن البكر لنبوخذ نصر ملك بابل .

تقع اريدو الى الجنوب من مدينة أور وتعرف اطلالها باسم تل ابو شهرين وهناك رأي يرجح هذه التسمية على اساس ان هذا المستوطن القديم كانت القبائل العربية تسكنه لمدة شهرين حددت ما بين منتصف شهر كانون الاول ومنتصف شهر شباط وخلال هذه الفترة تبدو فعلا امكانية اتخاذ مثل

هذه المواضع في مناطق جنوب وادي الرافدين مستوطنات سكن مؤقتة والمعروف ان منطقة ابو شهرين هذه ظلت مألوفة السكنى وبشكل مستمر حتى نهاية القرن الخامس ق م • ويبدو انها كانت معروفة بما تبقى من ابنتها بالنسبة للعرب الرحل •

وكان تايلر اول من اكتشف اطلال هذه المدينة ووجد ما يميز حضارة جديدة وساعده رولنسون الانكليزي الذي ذكر انها نفس المدينة المذكورة في العهد القديم اريدو • وكانت البقايا الاثرية لمستوطن اور المقيم وابو شهرين قد نبشت بعد ذلك من قبل المنقب الفرنسي لوفتس بدون ان يتخصص ماهية الموقعين • ثم عمل في اريدو وأور المنقب البريطاني كامبل تومبسون وحساب المتحف البريطاني بعد نهاية الحرب العالمية الاولى • هذا اضافة الى بعثة المنقب البريطاني الاخر هال • وفي الحقيقة تبدو منطقة اريدو صعبة لشدة الاعاصير الترابية وندرة المياه وقلة القرى القريبة منها • لقد كانت بدايات العمل في مدينة اريدو شاقة وشائكة وكانت طبقات التربة والرمال عائقا دون تحديد معالم المدينة في عصورها التاريخية ولهذا فقد التجأ المنقبون الى المنطقة الدينية وما يجاور الزقورة من مباني واعتمدت البعثة من اجل ذلك على خندق بدأ من الزاوية الشرقية للزقورة حتى جدار المدينة باستقامة الجانب الجنوبي الشرقي للزقورة، كذلك اعتمدت طريقة البحث على شكل نقاط غير بعيدة عن موقع الزقورة • وكانت فترة الموسم الاول قد استغرقت حوالي العشرة اسابيع تم الكشف خلالها عن المعبدتين السادس والسابع • والمعروف ان مجموعة المعابد في اريدو تعتبر اهم المكتشفات التي حققتها بعثة مؤسسة الآثار وذلك لانها كشفت عن الاساليب المعمارية الاولى في القسم الجنوبي من وادي الرافدين • وكانت فاتحة التنقيب العلمي المنظم في المدينة عام ١٩٤٦ - ١٩٤٨ على يد المرحوم فؤاد سفر ومفتش الآثار العراقية انذاك الباحث سيتون لويده وتحددت نتائج التنقيبات التالية من قبل المتخصصين في مديرية

الآثار والتراث العامة خلال اعمالها ما بين ١٩٤٨-١٩٤٩ وقد سبق ذلك اكتشاف مجموعة من الجماجم البشرية في مقبرة اريدو التي احتوت الف قبر ولكن المكتشف منها بلغ المائتي قبر وثبت ان نوعية الجماجم فيها ترجع الى سلالة البحر المتوسط . وفي الموسم الثالث من الحفريات في تل ابو شهرين جرى البحث والتنقيب في الاقسام المجاورة للزقورة ايضا حيث تم الكشف عن بقايا سكن بيوت هي في واقع حالها عبارة عن اكواخ مبنية من الطين . وتركزت الحفريات في المرتفع الشمالي الذي يزيد ارتفاعه على الاربعة امتار والذي يغطي مساحة حوالي كيلومتر مربع واحد . ولقد تميزت جدران بنايتين متناظرتين بتأثير المطر حيث ظهرت حدود الجدران واضحة بحيث سهلت متابعتها . وفي خندق اختباري بلغت مساحته 7×7 مترا تم النزول الى مسافة تزيد على الاثني عشر مترا بهدف الوصول الى الارض البكر ولقد امكن تحديد اربع عشرة طبقة سكنية خلال هذا العمق ووجد ان اسفل الطبقات كانت قد شيدت على طبقة من الرمل ووجد ان ارضيته تميل من الغرب الى الشرق ويتراوح سمكها ليصل الى حوالي اقل من ستة سنتيمترات .

ووجد ان بقايا ستة بيوت احتوتها الطبقات من الاولى وحتى السادسة وقد استخدم في بنائها او بناء اجزاء منها اللبن بمقاسات بلغت $8 \times 22 \times 44$ سم و $8 \times 26 \times 49$ سم ووجد ان ثخن الجدران بقدر طول اللبنة الواحدة أي انه لا يزيد عن نصف المتر .

ووجد المعبد النموذجي الاول في اريدو في الطبقة السادسة عشرة وهي اقدم الطبقات وكان هذا المعبد يتألف من غرفة واحدة مساحتها حوالي ثلاثة امتار مربعة ووجد ان فيه ميزات المعابد التي شاعت فيما بعد في المدن السومرية وهي دكة القرايين والطلعات والدخلات والارتفاع عن سطح الارض وتطورت المعابد في هذه المدينة من ناحية اساليب البناء والاضافات بازدياد وازداد المعبد اقتصاديا وتوسع نفوذه في المجتمع، هذا علما انه توجد ثمانى عشرة

طبقة في اريدو* ويظهر من نتائج التحريات ان استيطان الفلاحين في هذه القرية انقطع تقريبا من بعد عصر الوركاء واقتصرت حياة القرية في العصور التاريخية اللاحقة على جملة بنايات ذات طابع رسمي وديني تعهد بها الموظفون والكهنة التابعون للمعبد والزقورة وما يتبعهما * وقد تبين ان اقدم قرية تأسست في الطبقة التاسعة عشرة فوق ارض كانت خالية من المباني مما يشير الى ان طلائع القرويين سكنوا في الاكواخ *

اما مستوطنة تبه كورا فانها تقع على بعد ثلاثة كيلومترات من خرائب خرساباد دورشروكين وعلى بعد ٢٢ كيلومترا الى الشمال الشرقي من مدينة الموصل * وأقرب قرية لها هي قرية الفاضلية التي تقع عند سفح جبل بعشيقية على بعد نحو كيلومترين الى الشمال من التل ويجري بالقرب منها جدول ماء وهي قرية ايضا من نهر الخوصر الذي ينحدر الى نهر دجلة وتشرّف على سهول نينوى الخصبة ولذلك لم يهجرها الناس لاية مدة طويلة * استمر الاستيطان فيها حتى اصبحت تلا مرتفعا مخروطي الشكل * تعتبر المستوطنة هذه من المستوطنات الزراعية النموذجية التي تعود بداياتها الى حقبة تعاصر فترة مستوطنة اريدو ، وتبه كورا اسم كردي معناه التل الكبير ويسميه المجاورون للمستوطنة حاليا من العرب بتل علي بك نسبة الى اسم مالك قديم للارض التي يرتفع عليها التل * ان اول من اهتم بتبة كورا هو السيد هنري لايارد وقد ذكر في وصفه لها انها تل مرتفع مخروطي الشكل وبوسع المرء ان يراه من مدينة الموصل * وهو احد التلّول المتعددة المنتشرة في سهول بلاد اشور وذكر ايضا ان مدينة خرساباد ربما دلت على ارتباطها بنوع من الاتصالات بهذه المدينة القديمة * وقام السيد لايارد بشق حفر اختبارية في هذا التل ولكنه لم يجد سوى كسور الفخار التي لم تكن لها اهمية كبيرة في ايامه * وفي سنة ١٩٢٧ وصلت تبه كورا هيئة اثرية من جامعة بنسلفانيا بادارة الدكتور سبايزر ، وبدأت الهيئة اعمالها بدراسة المنطقة الممتدة بين جبل

بعشيقه ونهر دجلة لعدة ايام فزارت عددا من التلول وجمعت من تلك التلول كثيرا من اللقى الاثرية التي تعود لعصر قبل التاريخ * واعتمدت الهيئة على كسور الفخار لتثبيت الادوار الزمنية التي مر بها التل ، وقد سبق ان عثر على مثل هذه الكسور الفخارية في جولات تفتيشية جرت في المنطقة الممتدة بين الموصل وكركوك وتبين منها ان هذه المنطقة كانت مستوطنة في العصر الحجري المعدني * ووجدت الهيئة ان معظم التلول كانت واطئة وغير منتظمة وفد هجر اغلبها في الفترة الانتقالية من عصور ما قبل التاريخ الى العصور التاريخية غير ان تبة كورا تميزت عن غيرها بارتفاعها وسعتها وانتظامها فقد بلغ ارتفاعها ٢٢ مترا عن سطح الارض المجاورة وبلغ قطرها ١٢٠ مترا عند القاعدة وكانت اثارها السطحية قديمة جداً في تاريخها ووجدت الهيئة ان ثلثي المنحدرات السفلية من التل تعود مخلفاتها الى العصر الحجري المعدني على حين كانت اثار قمته تعود للعصور التاريخية أي أن القسم الاعظم من التل قد تشكل خلال عصور قبل التاريخ بينما كانت القمة تمثل العصور التاريخية المبكرة مثل عصر فجر السلاطات والعصر الاكدي والعصور التاريخية الاخرى (٣٠) * وقد اظهرت التنقيبات في هذا المستوطن وفي مستوطن اخر قريب يعرف بتل جبالا القريب من بعشيقه ان طبقات عديدة فيهما تمثل مرحلة انتقالية من عصر حلف - الاربعية الى عصر العبيد وهي فترة مهمة حدث فيها التحرك السكاني من الشمال باتجاه الجنوب نظرا لقلة نسبة الامطار ولتزايد اعتماد التجمعات السكانية الزراعية على الري سقيا * وتمثل مجموعة المواقع المكتشفة في حوض حمرين استقرار تجمعات سكانية في بعض هذه المواقع من الحقبة نفسها أي الحقبة المحصورة بين حلف - الاربعية والعبيد وصولا الى الحقبة التاريخية والحقبة اللاحقة كالبابلية والاشورية في مواضع اخرى * واهم المواضع التي ظهرت فيها معالم الحضارة الزراعية من هذه المرحلة مستوطنة تل عبادة الذي يقع في الجانب الشرقي لنهر دىالى وعلى بعد ١٢ كم

جنوب شرق ناحية السعدية ويمتد المستوطن في سهل زراعي واسع^(٢١) وكذلك هناك مستوطن اخر من حقبة لاحقة لمستوطن تل عبادة ومن عصر العبيد هو مستوطن تل رشيد^(٢٢) الذي يقع على بعد « ١٢ كم » جنوب تل عبادة ومن الحقبة نفسها أي عصر العبيد كاملاً وتتوضح من خلال مستوطنة تل عياش الزراعية معطيات مهمة موضحة لقرية نموذجية زراعية في حوض حميرين والمعروف عن تل عياش انه يقع على بعد حوالي ٧ كم الى الشمال الغربي من ناحية السعدية ويقع قريباً من الضفة الشرقية لنهر ديالى ويعتمد في زراعته على السقي والديم^(٢٣) وفي الحوض مستوطنات اخرى من عصر العبيد ومنها تل صنكرأ^(٢٤) ومستوطن ابو قاسم الذي يبعد حوالي ١٥ كم عن جلولاء^(٢٥) . ومستوطن تل مظهر الزراعي الذي يعود الى اواخر عصر العبيد في منطقة حوض حميرين وفي نفس المستوطن توجد استمرارية معيشة زراعية وصولاً حتى بدايات العصور التاريخية وعصور فجر السلالات^(٢٦) . وعن صور الزراعة المروية والتحضر في منطقة ديالى في نهايات عصر العبيد أي في الالف الرابع قبل الميلاد فان تطور الزراعة يلاحظ في مستوطنات تمتد قريباً من هور الشويكة وهذه الخطوط من المستوطنات تمتد من ابو يوالك وكذلك من ابو زعيل وابو رأسين وتمتد بموازاة مستوطنات مجاورة لتل أسمر وتل عقرب ثم هناك مجموعة اخرى تتركز على ابو دبس ثم خفاجي وبالتالي تل الضباع وخشم الواي ويبدو انه كانت هناك شبكة متصلة من المجاري المائية تؤدي الى سهل ديالى ، والواقع فان معظم المستوطنات القروية الصغيرة كانت تقع قريبة من شبكة الانهار ، وتوضح خطوط هذه الشبكة نقاط الاستيطان المتباعدة مع ملاحظة احتمالات التحوير الحاصلة^(٢٧) . ويبدو ان الاستيطان في هذه المرحلة من حوض ديالى الاسفل كان يتجمع بشكل طولي ومتقارب بحيث يوحى بوجود علاقات اجتماعية واقتصادية اضافة الى الوظيفية وخاصة اعمال الري التعاونية^(٢٨) .

وفي جنوب وسط العراق وجنوبه تمتد مستوطنات زراعية عديدة مهمة مثل مستوطنة اور وحاجي محمد والعقير والعييد . ويحتل ان تكتشف لاحقا مستوطنات أخرى من مرحلة نهاية العصر الحجري الحديث وعصور قبل التاريخ ، وقد توصل المتخصصون الى تصنيع الزراعة ومكملات المجتمع الزراعي النموذجي واحتياجاته الرئيسية ومنها استعمال العجلة والمعادن ووسائل الري المنتظمة^(٣٩) وتطوير البناء وتنظيم اقتصاديات المجتمع وتطوير التقنية وبصورة خاصة تقنية البناء وصناعة الطابوق . وكل هذه من العناصر الرئيسية التي هيأت امكانية اختراع الكتابة وهي العملية الحضارية الكبيرة التي حددت مرحلة عصور ما قبل التاريخ عن العصور التاريخية وبداية مرحلة حضارية كبيرة ما زلنا حتى اليوم نعيش فيها .

التصنيع الزراعي :

كانت بداية استخدام الادوات المتخصصة للحصول على المواد الغذائية من النباتات وأجزائها ، ومن هذه الادوات تلك المستعملة للطحن والدق اضافة الى المناجل والسكاكين . وفي الحقيقة ان المناجل كانت من الادوات المستخدمة لحصد النباتات البرية قبل ان تستخدم فيما بعد في عمليات الزراعة المدججة ، والمناجل كانت عبارة عن مجموعة من النصال المصنوعة من حجر الصوان ومن الحجر الاوبسيدي^(٤٠) المثبتة على مقابض خشبية وتدل بقايا الانواع المكتشفة في مستوطنتي جرمو وحسونة على استخدام طويل لهذه الادوات وذلك بفعل الاثار الدالة على ذلك ، وكذلك على شوييع استخدامها من خلال العثور على اعداد كبيرة من منها في المستوطن الواحد .

ومن الادوات الحجرية المستخدمة في الزراعة : القدوم والمعاك وشكل الاخيرة مشابه لشكل الفأس واحد الطرفين يكون حادا ويمسك

بواسطة مقبض خشبي يمرر في ثقب معد خصصا لذلك وتعتبر هذه الاداة من الناحية العملية بمثابة المحراث اليدوي *

كذلك صنعت مجاميع عديدة من المجارش والهواوين والاولاني الحجرية المتطورة وصنعت هذه الاولاني قبل صناعة الاولاني الفخارية التي ستصبح من الصناعات الضرورية في حياة المجتمعات الزراعية اليومية وكانت صناعة الاولاني الحجرية نتيجة من نتائج التحسن والتطور في تقنية النقر والتثقيب حيث تجوف في المراحل الاولى بالنقر بواسطة مطرقة حجرية ثم تستكمل بالصقل وبالتهذيب والمادة التي صنعت منها تلك الاولاني هي حجر الكلس والمرمر *

وكانت الهاونات والمدقات من التوابع الاساسية للزراعة ويبدو ان الهاونات البدائية كانت مستخدمة قبل العصر الحجري الحديث وذلك لسحق الجذور والبذور والاصباغ ... الخ *

كما وجدت الرحي الحجرية المستخدمة لطحن الحبوب وقد وجدت في معظم المستوطنات الزراعية في العراق *

وافرزت الزراعة والاستقرار عمليات مكملية حضارية اخرى ومنها الغزل والحياكة وصناعة السلال ومثل هذه الصناعة كانت معروفة في جرمو * من سيقان الحشائش والبردي واوتار الحيوانات وقطع الجلد واستخدام مثل هذه المواد يمكن استنتاجه من حقيقة كون بعض الادوات الحجرية والعظيمة كانت قابلة للاستعمال فقط في حالة تثبيتها بمقابض بواسطة الشد والربط * وخلال الالف السادس قبل الميلاد صنع سكان قرية حسونة الكثير من الادوات الحجرية والطينية والفخارية والعظيمة وشملت هذه الصناعات المجارش والهواوين والازاميل والسكاكين والقاطعات والمعازق ورؤوس

الرماح ونصال واقراص مغازل صنعت جميعها من الصوان والزجاج
البركاني • كذلك صنعوا من الطين اقراص المغازل وباعداد وفيرة وصنعوا
دمى الطين الممثلة لرمز الخصوبة على شكل الالهة الام قسم منها وجد
مصبوغا باللون الاحمر •

كذلك صنعت كرات المقلع من الحجر والطين المجفف بالشمس
والمفخور بالنار وذلك كنوع من عدة الحرب والصيد معا وتكون هذه
الكرات صغيرة الحجم لا يتجاوز قطرها العشرة سنتيمترات وبقاياها كثير في
مواقع المستوطنات الزراعية وحيانا تكون غزيرة • والمقلع عبارة عن قطعة
من الجلد او النسيج يرتبط كل طرف بخيط يستقر الحجر فيها ويسك
الرامي بالطرفين ويلوح بالمقلع في حركة دورانية ثم يطلق ما في المقلع بعد ان
يفك احد الطرفين ويمسك بالطرف الاخر (٤١) •

الصناعات الرمزية والفنية :

كافت العمليات الزراعية وكثرة انواع النباتات وفصول ومواسم
زراعتها تستأثر بطبيعة الحال باهتمام معظم مستوطني القرى الزراعية •
وكان الانتاج الزراعي ووفرته او قلة مصدره من مصادر الانفعالات الانسانية
التي تتباين بحسب ذلك فضلا عن فعاليات متنوعة يتظاهر بها هؤلاء الافراد
والجماعات ولا نعرف عنها الا من خلال استقراء البقايا المادية ، من هذه
اللقى الاثرية من المنحوتات الطينية والحجرية والرموز والحركات المتممة
لاشكالها ومظاهرها الخارجية بما في ذلك الوان وقطع مضافة من الخرز
والحلي على هذه التماثيل • ولقد اتضح لعظم الباحثين ان كثرة صناعة التماثيل
الممثلة للنساء والحيوانات ما هي الا ترجمة لعقائد سكان هذه
المستوطنات ومن هذه العقائد تقديس الارض وعلاقتها الواضحة بوفرة الانتاج
وتقديس للمرأة ايضا التي تعتبر السبب في خصوبة الانسان وسميت مثل هذه

النماذج بالالهة الام رمز الخصوبة والخصب لكل مظاهر الحياة ولقد وجد ان بعضا من هذه النماذج قد جرى تصليحها وترميمها انذاك وبعضها الاخر انتقلت حيازته من جيل الى اخر باعتبارها مواد مقدسة .

والدليل على اعتبار القدسية واضح في مثل هذه النماذج الدالة على الخصوبة وهو كونها ممثلة في الغالب للنساء ويندر جدا ان يكون الرمز رجلا كما هو الحال في نماذج مستوطنة تل الصوان^(٤٢) .

وصاحبت الخز الحجرية المصنعة والطبيعية الانسان خلال الفترات التي سبق العصر الحجري الحديث ايضا . وكانت في الغالب تدفن مع الاموات كدليل واضح على استخدامها اضافة الى الناحية الجمالية والتزيينية كرموز سحرية وفق اعتقادات خاصة لا نعرف تفاصيلها الواضحة .

والجدير بالملاحظة ان التقنية العالية لثقب الخز الحجرية كانت تستلزم تجربة متنوعة في ذلك حيث كانت تثقب على شكل ندبة ثم يستخدم مثقاب يدوي لجعل الثقوب دائرية او قرصية او حلزونية او مخروطية . والمحفر اليدوي المستخدم في تثقيب الخز الحجرية يمكن ان يكون عبارة عن عصا اسطوانية وفي احد طرفيها رأس مدب من الصوان ويعرف المحفر ذو الأكتاف الذي من المحتمل ان يكون قد استخدم في ثقب الخز كما هو الحال في انماذج المكتشفة من هذه المحافر في موقع جرمو^(٤٣) .

واستعملت ايضا القلائد المصنوعة من اعداد متباينة من الخز التي تصل اعدادها احيانا الى ما يزيد على الخمسين خرزة مصنوعة من احجار متنوعة بينها العقيق والفيروز (الازرق والاخضر) والاصداف والعظام . . . وتكون اشكال الخز المكونة لهذه القلائد متنوعة الحجم ومن ضمنها الدائري والاسطواني .

كذلك استخدمت مجاميع من الدلايات في الرقبة وانواع من الدلايات الحجرية مثل الدمالج والخرز من المرمر الابيض * كما استخدمت ايضا مجاميع من الاختام المستديرة والمربعة والمثمنة بتشكيلات من الوحدات الهندسية ، ونمت صناعة هذه الاختام من الحجر وصنعت في اول الامر كرموز ودلايات اضافة الى استخدامها فيما بعد وعلى نطاق واسع في المعاملات التجارية وخاصة بعد ان بدىء في صناعتها بأشكالها الاسطوانية المعروفة في بداية العصور التاريخية واصبحت واحدة من الصناعات المهمة التي تعتبر من الوثائق الخاصة بدراسة حضارة وادي الرافدين (٤٤) * .

وفي الحقيقة فان بداية صناعة الفخار والعثور عليه في موقع جرمو وبداية من الطبقة الخامسة تثير تساؤلات عديدة وهامة فالمعروف ان صناعة الفخار تعتبر واحدة من الصناعات الرئيسة المكملة لطبيعة المجتمع الزراعي وخاصة في مراحل ممارسة الزراعة المبكرة * ولا تحتمل امكانية العثور على صناعة الفخار في فترة اقدم من فترة صناعته في جرمو ، كذلك فان اهتداء الافراد من الممارسين للزراعة المبكرة في الاقسام الشمالية في وادي الرافدين لصناعة الفخار كان بعد انتقال لجماعات من الكهوف الى بيوت بسيطة من مواد غير طينية ، فصناعة الفخار قد تم التوصيل اليها بعد استقرار هذه التجمعات السكانية في بيوت مستقرة وعلى شكل مستوطنات ثابتة نوعا ما * وصناعة الفخار بالنتيجة تعتبر واحدة من الخطوات المهمة التي تحدد طبيعة تعامل الافراد مع البيئة الجديدة وفي سبيل توفير الضروريات من الصناعات المكملة لهذا المجتمع القروي الزراعي الجديد * ويفهم مما سبق ذكره أن صناعة الفخار سبقتها صناعة الاواني من الحجر ، ان الدافع الرئيس لصناعة مثل هذه الاواني بشكل عام كان نفعيا بالدرجة الاساسية فقد توصل اهالي جرمو الى استخدام الاواني المصنوعة من الفخار للطبخ وحفظ السوائل وخزن مواد مختلفة اضافة الى نقلها والاتجار بها وشاع استخدام الفخار بديلا

عن الاواني من الحجر مما يدل على وعي جيد يضاف الى ذلك فان تطوير صناعة الفخار منذ مرحلة الصناعة الاولى مرورا بالمراحل اللاحقة من استخدام الخزاف والالوان يستلزم خبرة وتجربة * ومثل هذه الممارسة يجوز ان نعتبرها فنا خاصا لا يمكن ان يمارسه معظم افراد التجمع السكاني سواء في جرمو أو في اية قرية اخرى من نفس الفترة ولا حتى خلال الفترات اللاحقة وعلى الرغم من ان صناعة الفخار بفعل عدم شي الاواني في درجات حرارية كافية تدل ولا شك على عدم توصل الخزاف الى تجربة كافية الا ان نماذج اخرى تبدو مميزة باشكال وكأنها اقرب الى اشكال الحيوانات المحصورة المظاهر وتبدو احيانا وكأنها في حالة حركة * ان استخدام الالوان وتنفيذها على الفخار في هذه الفترة يدل ولا شك على تحسين متميز ليس فقط من الناحية الجمالية وانما بدقة ملاحظة الخزاف وادراكه * وان مثل هذه الموضوعات المنفذة على الفخاريات سواء من هذه المرحلة أو خلال المراحل القرية التالية تدل على كون مثل هذه الاشكال مثيرة حسيا سواء كانت موضوعات حيوانية او نباتية ، وهكذا تؤكد على دراسة مثل هذه الانتاجات الفخارية والخزاف والالوان المنفذة على سطوحها الخارجية لتكون موضوعا رئيسيا يعتمد على الاثاري ومؤرخ الفن والمتخصص بفترات ما قبل التاريخ * وكانت مثل هذه الصناعة والخزاف المنفذة عليها الدليل المادي الوحيد احيانا لمعرفة تفاصيل عديدة تهم بعض تفاصيل الحضارات القديمة *

ان الدراسات العلمية تمكننا من معرفة انتقال وحركة التجمعات السكانية وعلاقتها مع بعضها ومعرفة نسبة المستويات التقنية وغيرها من خلال اختبار الانتاج الفخاري *

وظهرت صناعة متوسعة للفخاريات تتناسب مع حجم توسع الانتاج الزراعي وعرفت طرز خاصة من الطراز المعروف بطراز حسونة الذي

تميز منذ الطبقة الاولى القديمة في المستوطن ولاهية هذه الصناعة المكملية لطبيعة المستوطنات الزراعية ولتعدد طرز صناعته ونوعياته المختلفة حسب الاستخدام والتقنية فقد قسمه المتخصصون الى اربعة اقسام رئيسية : -

١ - فخار حسونة الخشن الصناعة ويتميز بكونه مثل فخار جرمو مصنوع باليد ومفخور بدرجات حرارية غير مرتفعة وتتوفر فيه شوائب بفعل الطينية غير النقية وتتميز بكونها مخلوطة بالتبن ومن أنواعها الطاسات الصغيرة المستخدمة بكثرة في الحياة اليومية اضافة الى صناعة جرار كبيرة الحجم تستخدم في العادة للخن ونقل المواد .

٢ - صناعة اخرى لفخار يتميز بأن سطوحه الخارجية مدلوكة ومزخرفة باشكال محورة عن الاشكال الطبيعية المنظورة وقوام هذه الاشكال خطوط متشابكة ومتعامدة ومتقاطعة .

٣ - صناعة أنواع من الفخار المصبوغ باللون الاحمر على سطح الاواني المزخرفة بدورها بخطوط هندسية تنسبه المذكورة آنفا في النوعية الثانية .

٤ - انتاج نوع من الفخار المعروف بالصناعة النموذجية من عصر حسونة ويتميز بالوانى المخصصة لفرك الحبوب والتي تتميز بكونها بيضوية الشكل او مستطيلة وتكون مقسمة الباطن الى حقول خشنة قسم لفرك الحبوب وربما الزيتون أو لاستخراج الزيت ايضا . كما شاع استخدام الاواني والجرار ذات الزخارف الهندسية والنباتية معا .

تميزت الصناعة الفخارية من فترة حسونة ايضا بكونها مزينة بتشكيلات تجميلية متنوعة ونخص بالذكر منها هنا الالوان المستخدمة لتزيين السطوح الخارجية للقطع الفخارية بالذات فاضافة الى معرفة الافراد لعملية تلميع السطوح الخارجية للقطع الفخارية بأسلوب ذلك القطعة بقطعة حجر او

خشب وهو النوع المعروف بالفخار المدلوك فان فخاريات فترة حسونة
الآخري تتميز بشكل خاص بتزيينات متنوعة أخرى . وهناك الفخاريات
المزينة برسوم قوامها وحدات زخرفية تحتوي على اشكال اغصان وسنايل
واشكال حلزونات يمكن اعتبارها نوعا من التحوير للاشكال المرئية بوضوح،
والتحوير هنا مستلهم من الاشكال الزراعية . واغرب ما نجده من بقايا
الزخارف على الفخاريات من هذه الفترة اشكال الزخارف الهندسية وأبرزها
الشكل المتكرر على النماذج الفخارية المتكاملة الشكل مثلا ، واهمية مثل
هذه الاشكال تبرز لتفسيرها العلاقة بالمرأة واعتبارها رموزا
للصورة الانثوية .

ان عملية تأدية الرمز والتجريد الذي بدأ بطريقة أكثر بساطة من ناحية
تحوير الاشكال عرف في الانتاج الخاص بتزيينات الفخاريات من عصر حسونة
بشكل خاص ليكون منطلقاً لمدرسة متكاملة المفاهيم اعتبرت مرحلة ناجحة
من الناحيتين الفنية والفكرية وذلك خلال المراحل المعروفة في تاريخ الفن
العالمي والمحلي، والمعروف ان تحوير الاشكال يأخذ احيانا طابع الشدة بحيث
لايستطيع الباحث المتتبع معرفة الاصل الطبيعي او الاكاديمي الذي يرجع اليه
الشكل أو الصورة المحورة عن ذلك الاصل . واستمر الخزافون بممارسة
الاشكال الطبيعية الى جانب الاشكال المحورة وحتى بالنسبة للدمى أو التماثيل
المصغرة للاشكال الادمية والحيوانية أريد لها ذلك بوصفها نوعا من اللغة
واسلوبا خاصا للتعبير قبل الحقبة اللاحقة وهي مرحلة التدوين . ويتوضح ميل
الخزافين من عصر حسونة وحلف أيضا باعتماد اسلوب التحوير في الاشكال
الادمية والنباتية فبالنسبة للاشكال الادمية نجد ان هذا التحوير متدرج
ومفهوم ، ويصعب احيانا معرفة الاصل الطبيعي للشكل حيث يكون التحوير
قويا وخاصة في الاشكال التي تبدو في النهاية ذات تشكيل هندسي
واضح . وتبدو بعض الاشكال الحيوانية اقرب الى ان تكون مؤداة

بصورة رمزية صرفة * وفي الحقيقة فإن الخزاف من حسونة بالذات يمكنه ان يعزى اليه استخدام التحوير وصولا الى الرمز ولاول مرة في العصر الحجري الحديث في هذه المنطقة من جنوب غرب آسيا * وأول منطقة كان الاستقرار السكاني فيها ذا طابع زراعي متكامل تقريبا يبدو نموذجا فريدا ويبدو احيانا من خلال هذه الاشكال الحيوانية المحورة وصولا الى الرمز لها انها احيانا وهي في صورتها الرمزية يمكن ان تعبر عن اكثر من شكل واحد واكثر من دور واحد (٤٥) *

وتتلمس بكل وضوح استمرارية هذا الاعتبار الفني في تحويل الاشكال لترجمة المستويات الفكرية للتجمعات السكانية خلال العصر اللاحق المعروف الآن بعصر سامراء - حلف او عصر او حضارة سامراء * وهذه الفترة متميزة بوضوح بانتاجات حضارية ترتبط بالفترة السابقة واللاحقة لها مع امكانية تحديد فترة التداخل بين المرحلتين والتي يمكن للباحثين رصدها ولكن بصعوبة ظاهرة حيث ان هاتين المرحلتين الحضاريتين الرئيسيتين تتداخلان في ظهورهما احيانا في بعض المواقع علما انهما يوجدان في معظم مواقع التجمعات السكانية في شمال وادي الرافدين وآسيا الصغرى وسوريا وايران * وفي الوقت نفسه فان كلا من الحضارتين المعروفتين بحضارة عصر سامراء وحلف قد توضحت معالمها بشكل منفرد وظاهر في مواقع عديدة في هذه الاقطار السابقة الذكر *

ان التطورات الصناعية المتنوعة في مستوطنة اريدو في جنوب العراق صاحبها تطور كبير ايضا في طبيعة العلاقات الاجتماعية والفكرية وهكذا يبدو الحال نفسه في جمال الحرف وتصنيع الزراعة ، وكان مجموع هذه التطورات ممهدا لعملية التحضر وانتقال بعض التجمعات السكانية من القرى الزراعية الى المدن وبمفهومها المتكامل الذي تتوافر فيه شروط التصنيع

ووجود المراكز الاساسية لتنظيم المجتمع والعلاقات العامة
والمؤسسات المتخصصة *

لقد تطورت عملية الصناعة الفخارية بسرعة في هذه الفترة الاولى من
عصر العبيد الاول او المبكر او ما يعرف بعصر حضارة اريدو في القسم
الجنوبي من وادي الرافدين ويبدو العديد من النماذج الفخارية مزينة
بوحداث ذات استلهم وتصوير محلي * ويبدو اللون البني على ارضية
تميل الى الاصفر الباهت واضحا * كما توجد نماذج ملونة تتراوح ظلالها
من اللون البني الغامق الى اللون الاسود واثيانا اللون الاحمر الغامق *

ووجدت مجموعات من الاواني في الطبقات السفلى من موقع اريدو
مزينة بشرائط وخطوط متموجة وتشكيلات هندسية وتبدو مثل هذه
التشكيلات الزخرفية انها كانت ذات علاقة مع نماذج مشابهة من موقع سامراء
كما يظهر ذلك بالنسبة للبعض من الباحثين ، ولكنها في الواقع تنضج في
اريدو اكثر تطورا واعمق في دلالاتها الرمزية واكثر دقة في تأديتها حينما تتأمل في
مدلولاتها التي تبدو محورة من اشكال طبيعية * هذا علما بإمكانية مقارنة
اقتاج اريدو من الفخار والاستدلال باشكل زخارفه بانتاج مواقع أخرى في
المملكة العربية السعودية والبحرين وموقع آخر في ايران يعرف بجوخاميش *
وتمثل مكتشفات حاج محمد الوجه التالي لمرحلة اريدو وهو ايضا الوجه
الحضاري الثاني لعصر العبيد في جنوب وادي الرافدين * وهو يقع على ضفة
نهر الفرات غير بعيد عن الوركاء (٤٦) * والمرحلة المتميزة الثانية من حضارة
العبيد تم رصدها من خلال الصناعة الفخارية من هذا الموقع النموذجي
المعروف بقلعة حاج محمد وفخاريات موقع رأس العمية القرية من موقع
كيش اضافة الى مواقع اخرى تقع الى الشرق وتصل الى مواقع في ايران
اليوم ومنها ما يعرف بموقع الخزنة الواقع الى الشمال من اقليم عربستان *

ويبدو من خلال اكتشاف مواقع عديدة من هذه المرحلة الهامة ازدياد واضح للتجمعات السكانية في القرى الزراعية الجديدة المنشرة في هذه البقع الجغرافية التي كانت تعتمد على الري في اسلوب انتاجها الزراعي المتطور بسرعة حيث وجدت بقايا العبد من انواع الانتاج والاهتمام بالرعي، والعناية بالحيوانات^(٤٧) .

ويوضح الانتاج الفخاري ووحداته الزخرفية خلال هذه المرحلة المعروفة بمرحلة حاج محمد مظهرا حضاريا لانتاج مناطق شمال اقليم عربستان والعديد من مناطق جنوب وادي الرافدين ومن ذلك انتاج موقع رأس العمية وصولا الى اقسام تقع حتى في حوض حميرين^(٤٨) ويرى البعض تأثيرات واضحة من فترة حلف المتأخرة في هذا الانتاج^(٤٩) .

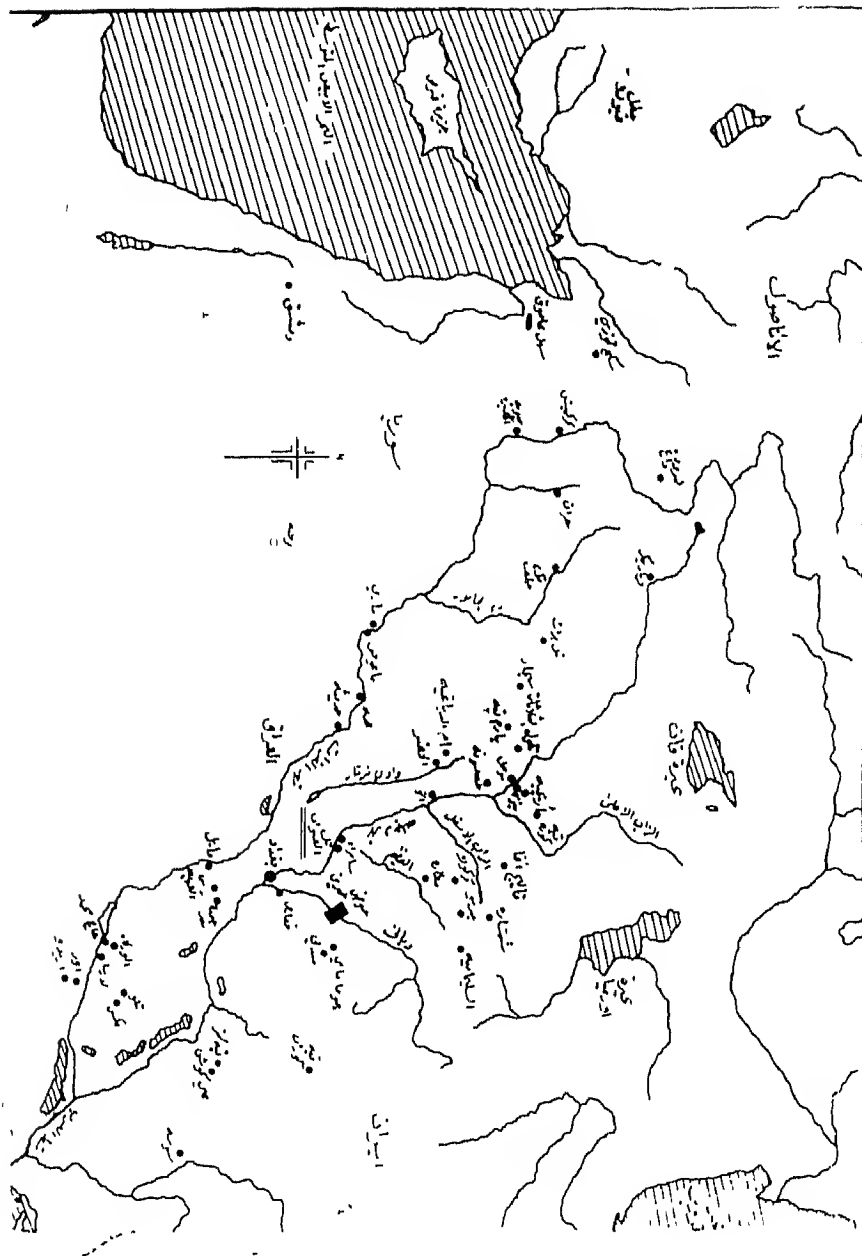
واضافة الى ميزة الفخار المتقارب الصناعة تتميز العمارة واسلوب البناء خلال هذه المرحلة التي تتوضح اولا في الطبقات الرابعة عشرة والثالثة عشرة والثانية عشرة من موقع اريدو^(٥٠) .

وبصورة عامة يمكن ملاحظة معالم حضارة هاتين المرحلتين من مرحلة حضارة العبيد في مناطق اخرى عديدة في وادي الرافدين وايران وهو الحال نفسه تقريبا بالنسبة للمرحلتين التاليتين وهما حقبتا العبيد الثالثة والرابعة . فالنسبة الى المرحلة الثالثة من حضارة العبيد وكذلك الرابعة فانها تتمثل بكل وضوح في اثار موقع العقير المعروف اضافة الى مكتشفات موقع تبهكورا الذي يقع شمال شرق مدينة الموصل واسفرت بعثة جامعة بنسلفانيا الامريكية عن كشف عشرين طبقة سكن تبدأ من مرحلة حضارة حلف وحتى عصور منتصف الالف الثاني ق م . وما يهمننا من هذه المرحلة وهو رصد مرحلتي حضارة العبيد الثالثة والرابعة فانها واضحة بين الطبقات ١٩ - ١٣ .

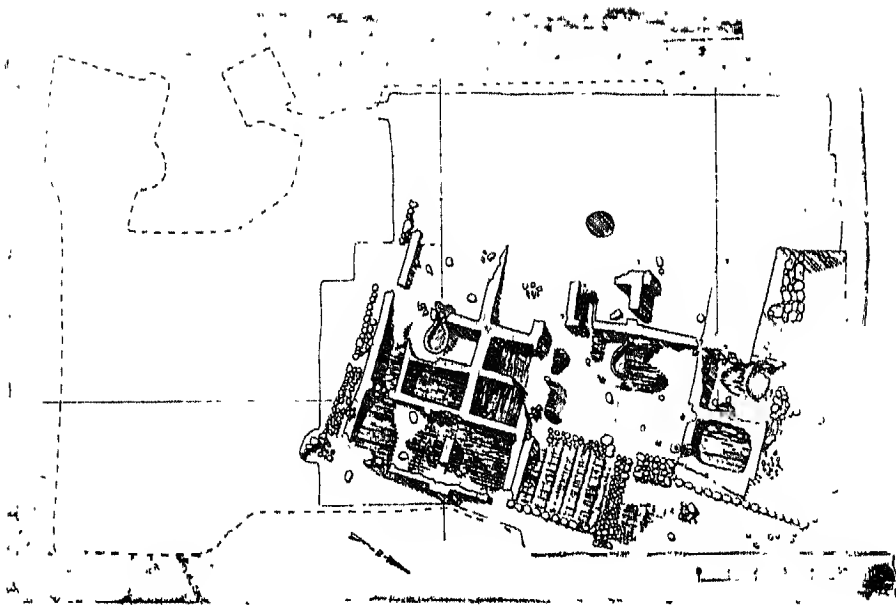
تتميز المرحلتان الاخيرتان من عصر العبيد بتوسع انتشار التجمعات السكانية حتى شمال وادي الرافدين وتتميز بعلاقات تجارية مع

اقتاجات جماعات سكنية في الخليج العربي عن طريق البحر اضافة الى اتصالات برية مع جماعات في ايران وآسيا الصغرى وسوريا وتتوضح نتائج مثل هذه الصلات التجارية عن توسع استخدام المعادن وخاصة النحاس والذهب . هذا الى جانب تطوير تخطيط القرى الزراعية وتطوير عمليات واساليب الدفن وتخصيص مواقع خاصة للدفن خارج مقرات السكن .

لقد اتضحت التطورات المتلاحقة للتجمعات السكانية خلال فترة العبيد بمراحلها الاربعة الواضحة بفضل توسع التنقيبات الاثريّة والتوسع في دراسة الاثار المكتشفة وتحليلها باساليب علمية حديثة أدت الى قفزة نوعية ظاهرة تمثلت بانتاجات عصر الوركاء العريقة والمتمثلة بشكل خاص في نفس موقع الوركاء الذي يقع على مسافة حوالي ٣٠ كم جنوب غرب السماوة . والجدير بالذكر ان مرحلة العبيد المتأخرة وهي المرحلة الرابعة تمثلت ايضا في مدينة الوركاء وخاصة فيما عثر عليه من تفاصيل معبدتين نموذجيتين ابعاد احدهما ١٤٥×١٨٥ م . مما يدل على تأكيد سكان الوركاء خلال هذه المرحلة على تشييد المعابد على مساطب اصطناعية من التراب أصبحت في الفترات اللاحقة مهددة لفكرة بناء الزقورة وهكذا تبلور الحضارة المدنية في مدينة الوركاء لتأخذ اتجاها شموليا جديدا يضم مدناً اخرى تنمو في اور ولكش وكيش ويتطور منظور الانسان الفرد تبعا للتطور الحضاري العام الحاصل^(٥١) وتجيء تسمية التجمع السكاني الكبير الجديد في عهد السومريين مع نمو التنظيم المتكامل للتجمعات السكانية والمتوضحة في تبلور ووضوح طبيعة السلطات الادارية والعسكرية والدينية اضافة الى تطوير مفاهيم المدينة وتحديد تكاملها وانشاء الاسوار والحصون^(٥٢) .

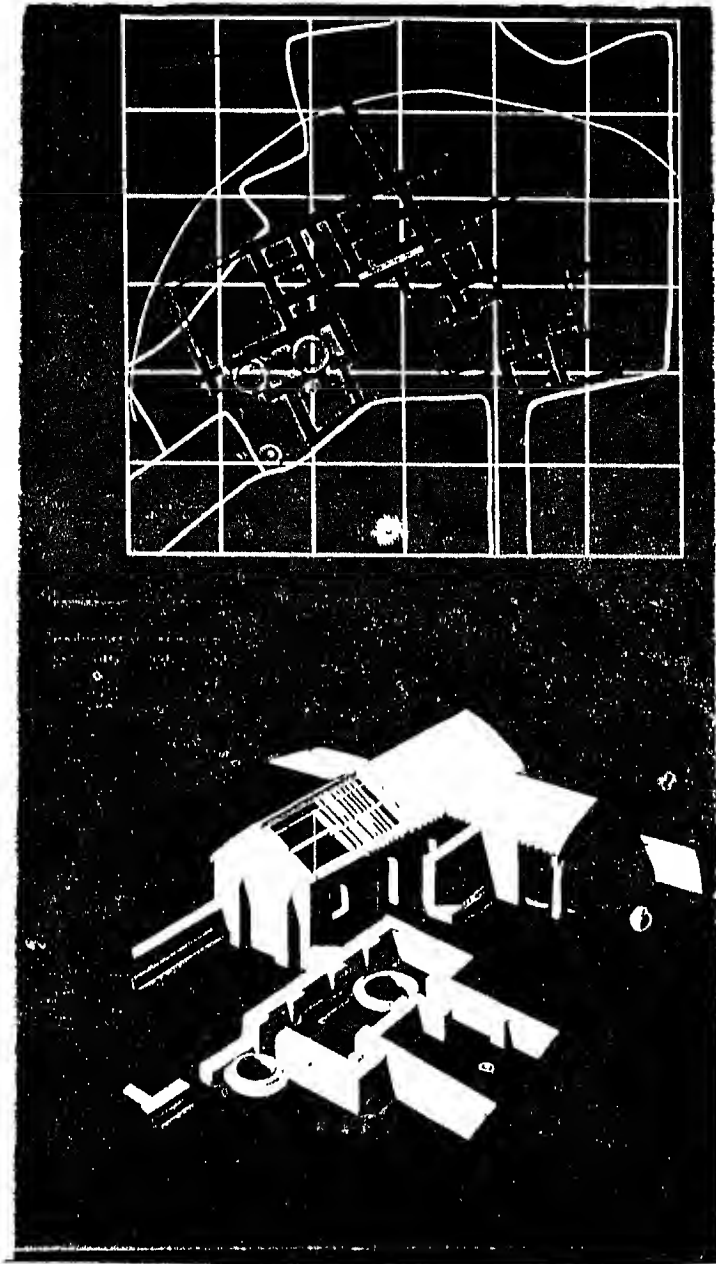


الشكل ١
خارطة التجمعات الزراعية الاولى



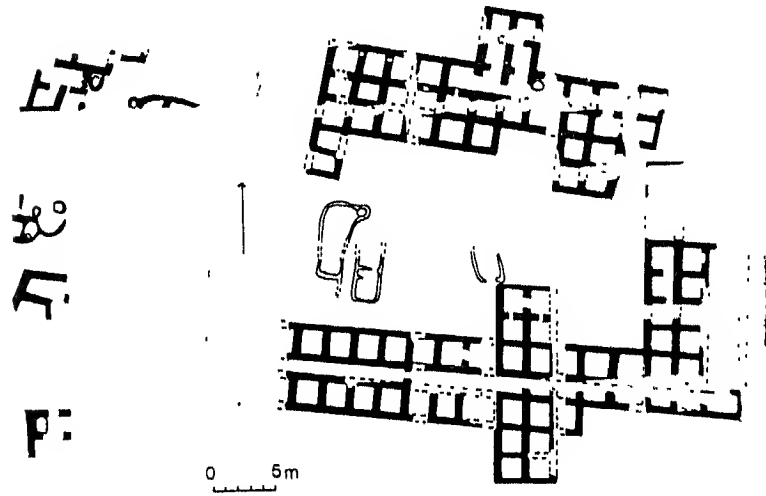
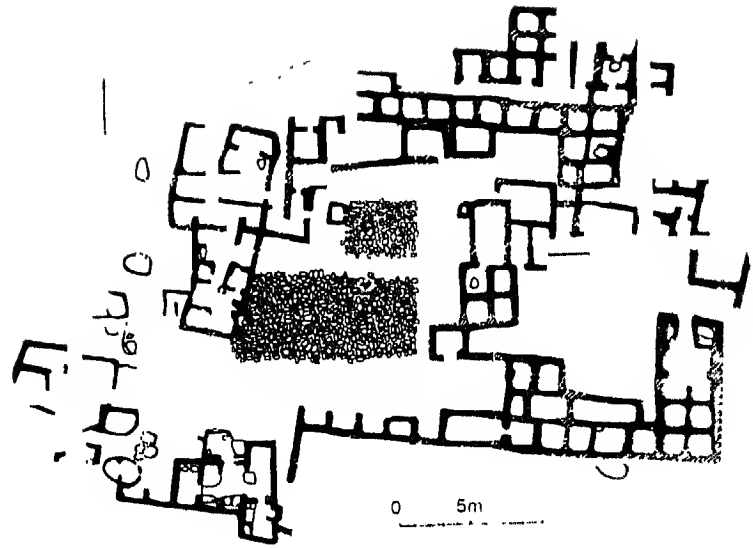
الشكل (٢)

اسس وجدران بيوت سكن من جرمو
عن بريوود تنقيبات ما قبل التاريخ



الشكل - ٣ -

جانب من مستوطنة حسونة مع نموذج لدار سكن
في نفس المستوطنة • اندريه يارو • سوم • ١٩٦٠



الشكل ٤

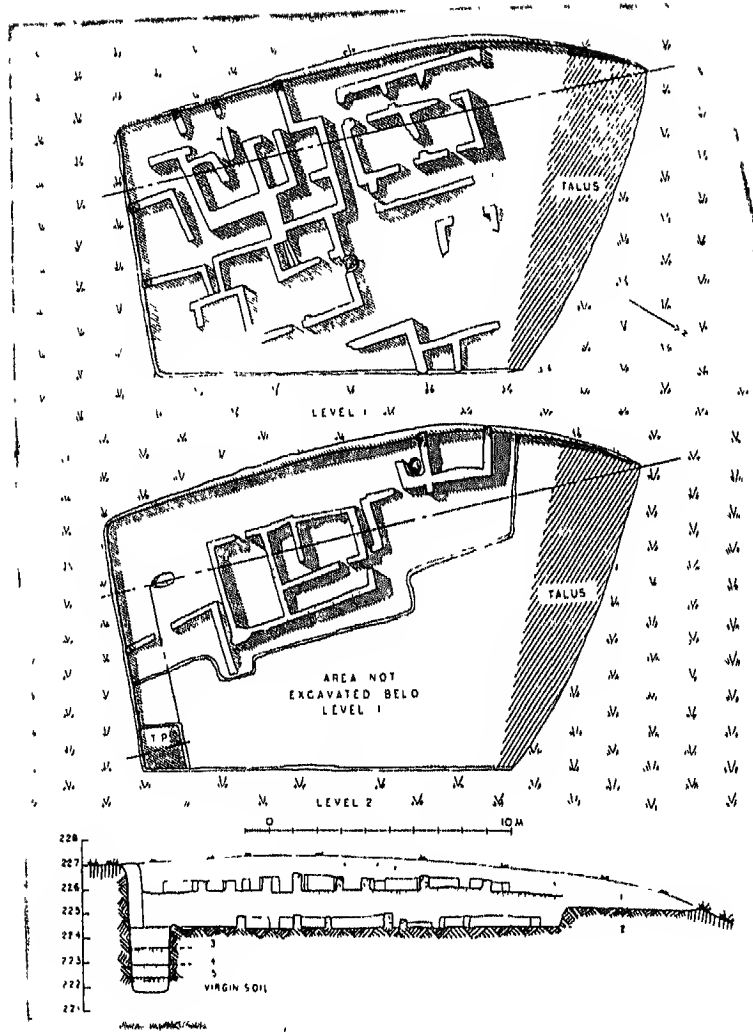
مستوطنة أم الدباغية من المرحلتين

الثانية والثالثة + كيركهرید + مجلة العراق ١٩٧٢



الشكل ٥

دور سكن في مستوطنة يارم تبة
من عصر حسونية في مرحلة الألف
السادس قبل الميلاد •

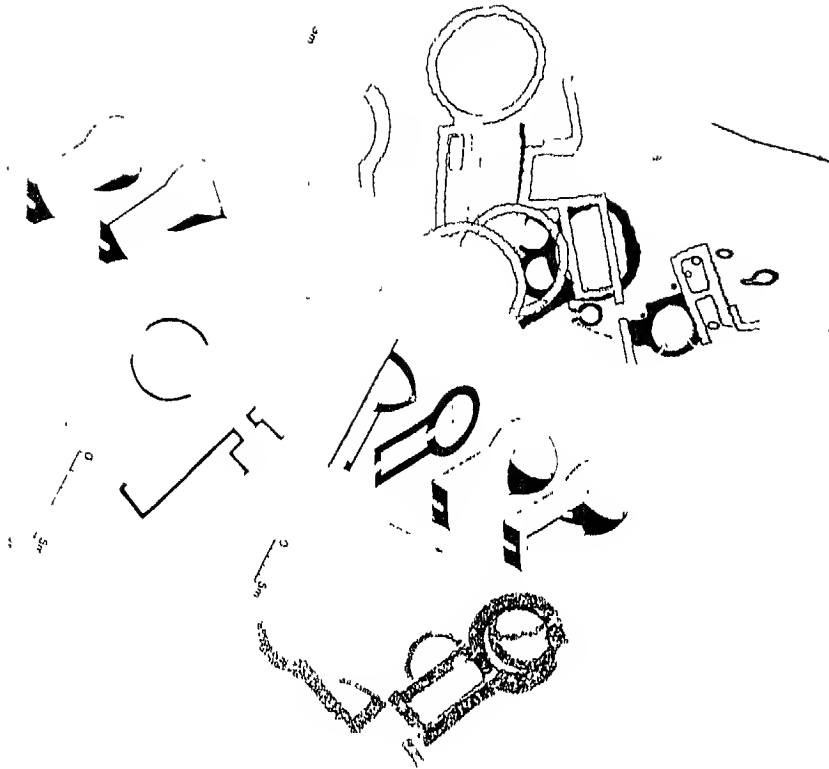


الشكل ٦
مطارة - الطبقة الاولى والثانية
بريدود JNES ١٩٥٢



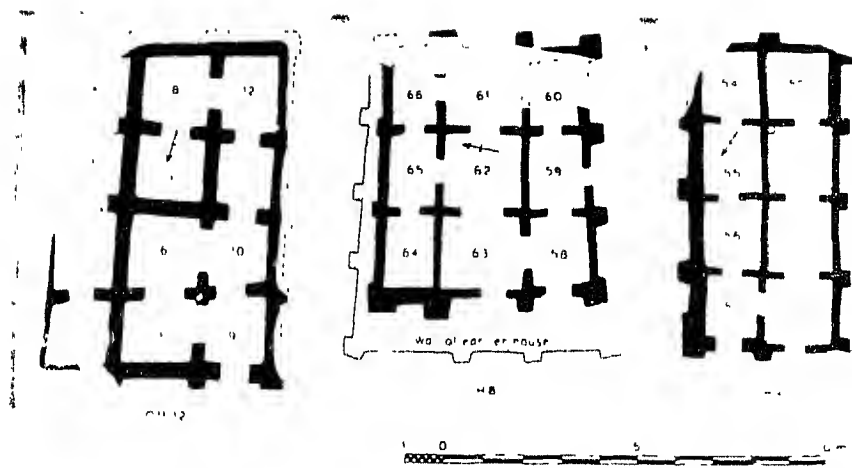
المخطوطة رقم ٩

الشكل - ٧ -
تل الصوان
ابنية الطبة الثالثة
الدورين آ ، ب
دوني جورج : عمارة الالف السادس



الشكل - ٨ -

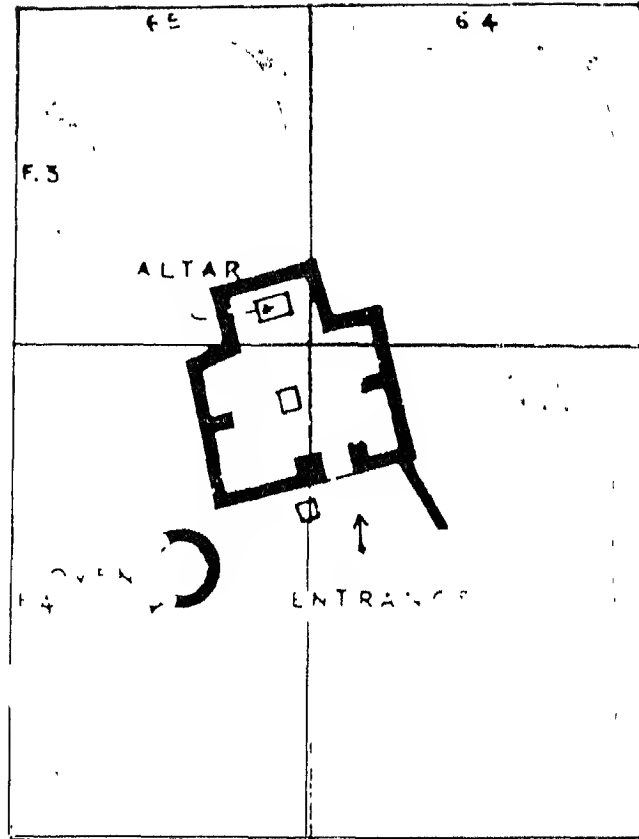
أسس دور سكن من حلف والاريجية



جونا ما حي

الشكل - ٩ -

عن جون اوتس (١٩٦٩)

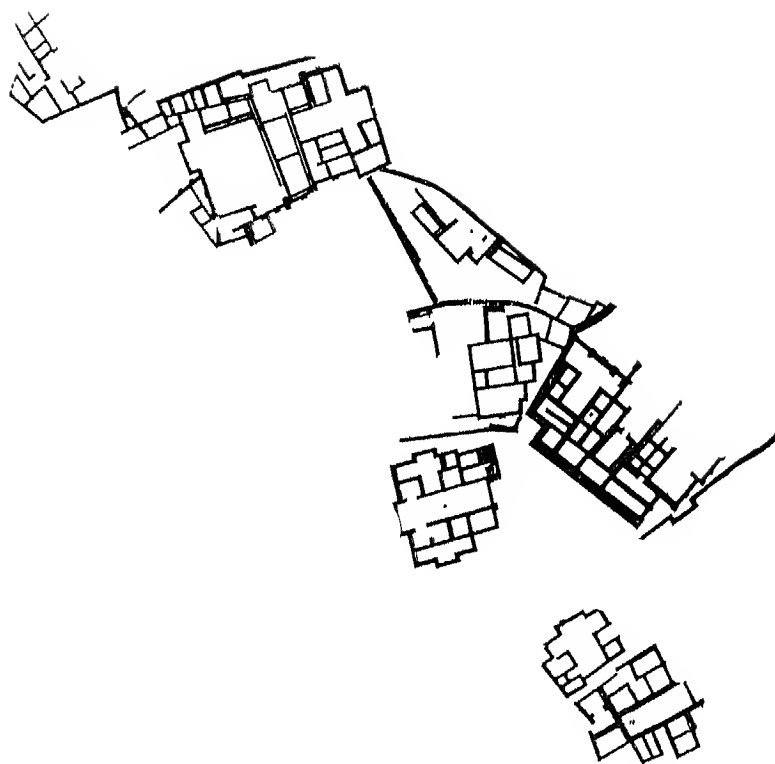


الشكل ١٠
مخطط المعبد السادس عشر في مدينة اريدو

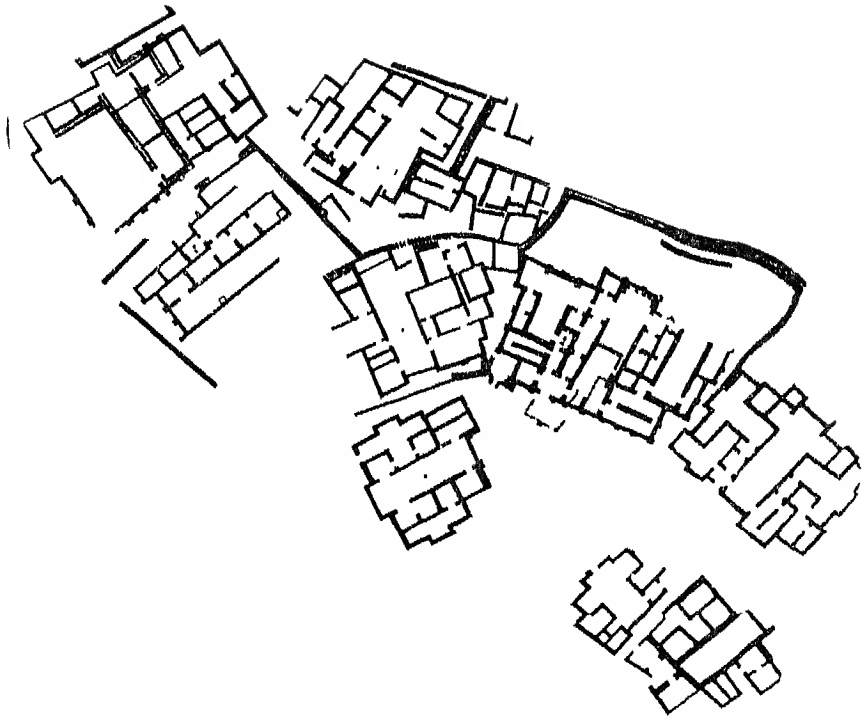


الشكل - ١١ -

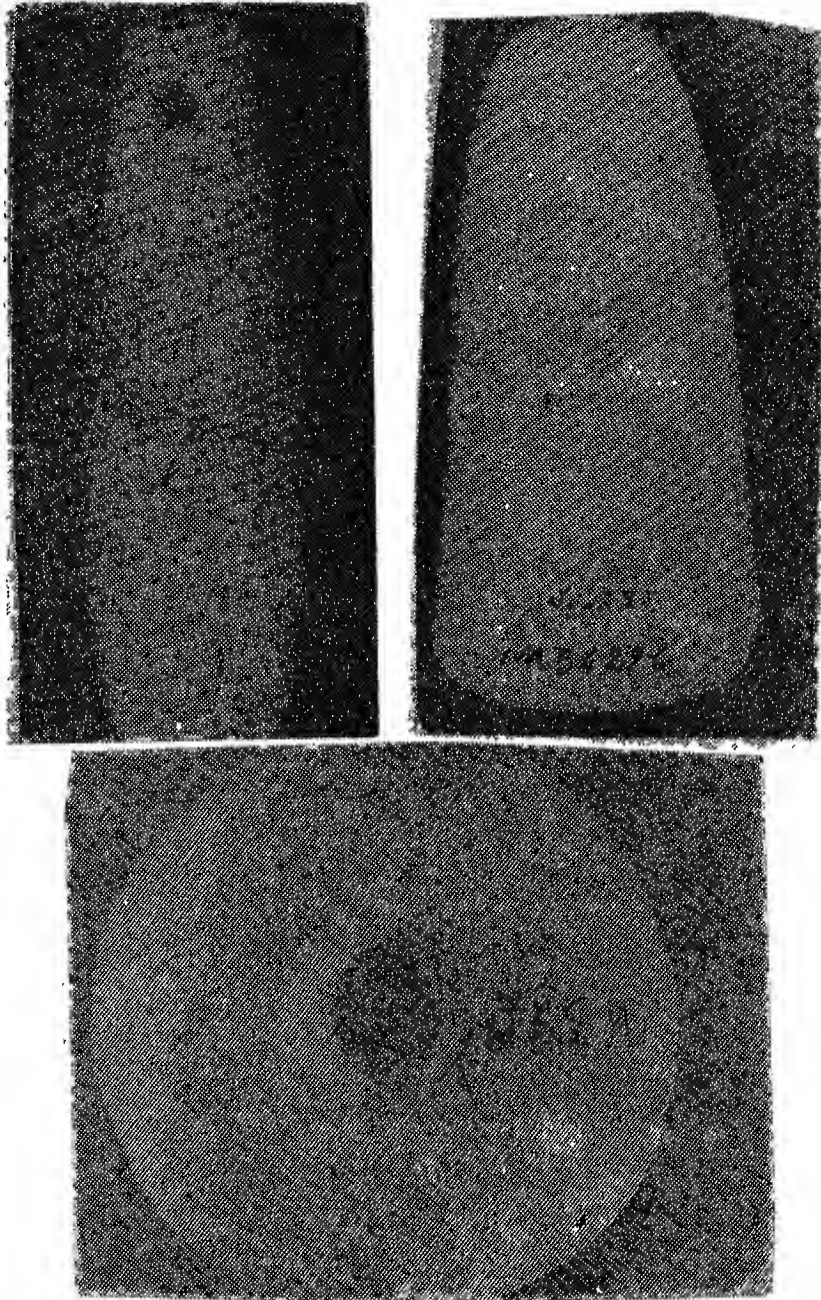
تصور بناء معبد من تبة كورا الطبقة الثامنة
دور سكن محاطة بسور من تبة كورا الطبقة الحادية عشر
عن سبايزر تنقيبات في تبة كورا ١٩٣٥ وعن توبلر ١٩٥٠



الشكل ١٢
تل عبادة : مستوطن الطبقة الاولى

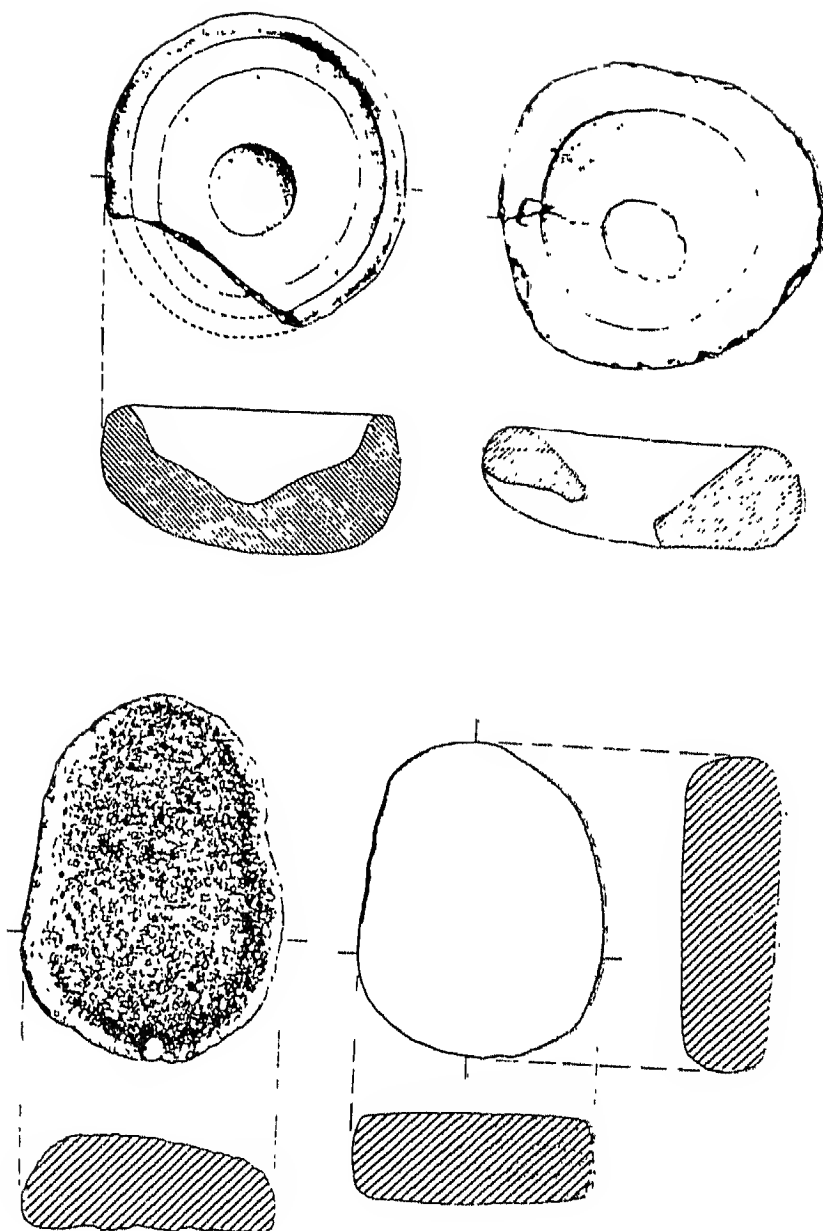


الشكل - ١٣ -
مستوطن الطبقة الثانية تل عبادة

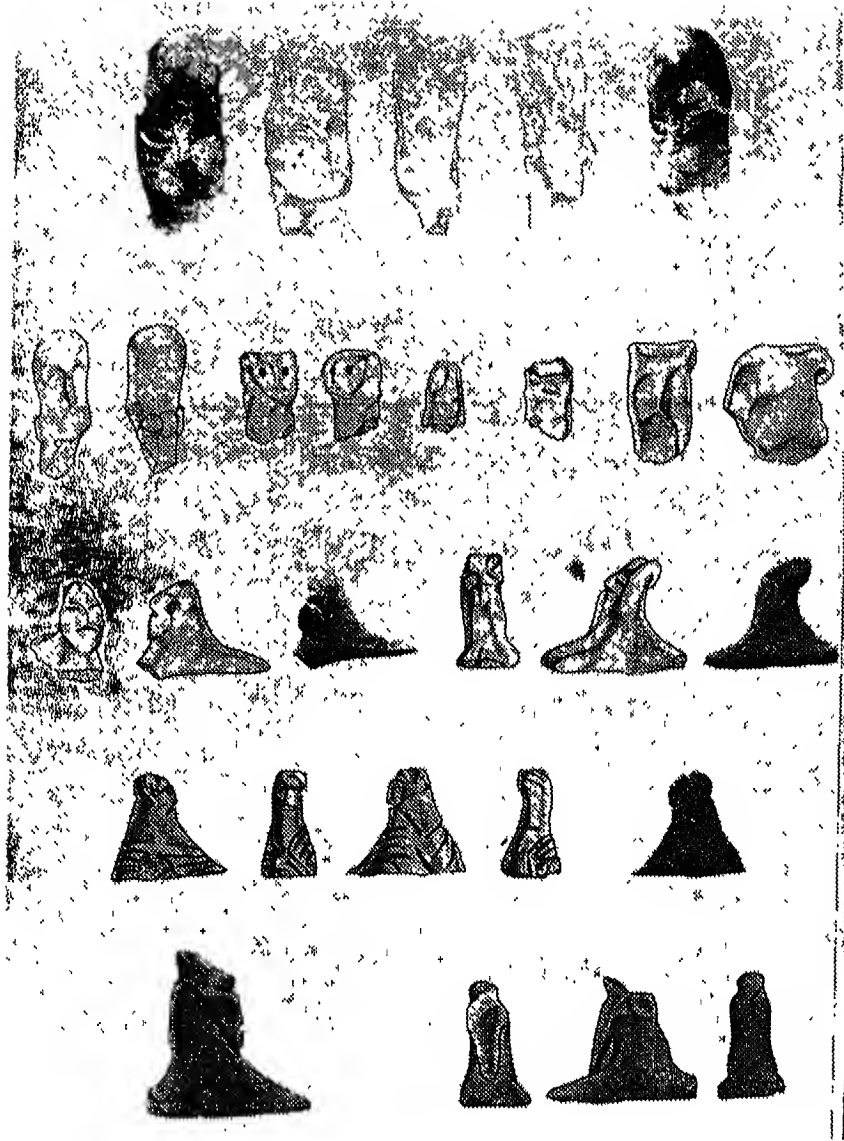


الشكل - ١٤ -

- ١ و ٢ نموذج لمذقة من مستوطنة جرمو ومن نل الصوان .
 ٣ - جانب من رحي من تلول الثلاث
 عن عماد طارق توفيق (الصناعات الحجرية ١٩٨٦)

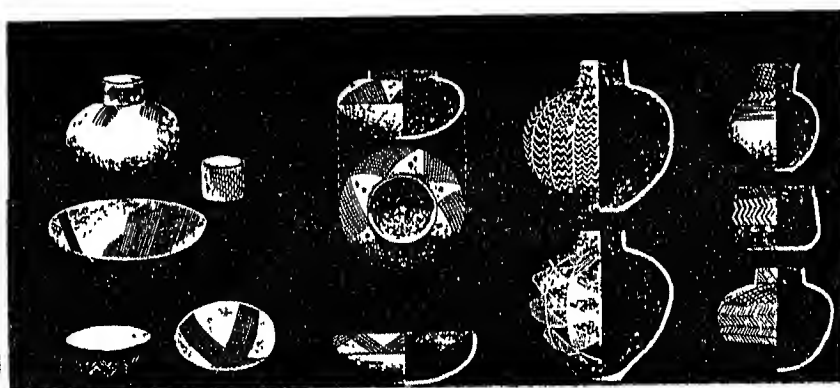


الشكل - ١٥ -
هاونيات وأدوات سحق من جرمو
عن عماد طارق توفيق



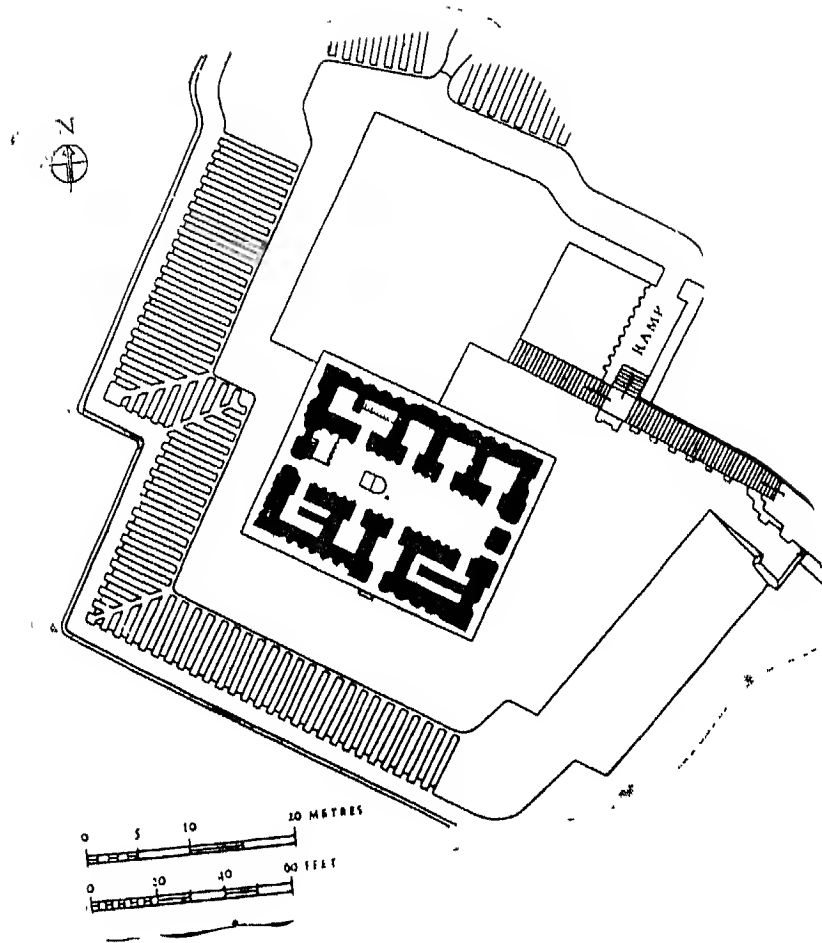
الشكل ١٦

عن برمودود • تنقيبات ما قبل التاريخ ١٩٨٣



الشكل - ١٧ -

من نماذج صناعة الفخار من مستوطنة حسونة الزراعية
أندريه بارو • سومر ١٩٦٠



الشكل ١٨
مخطط المعبد الأبيض في مدينة الوركاء

الهوامش

(١) Fisher . W . B. A Physical, Social and Regional Geography, London. Methuen and Company Ltd. 1957.

(٢) د . تقي الدياغ : « البيئة الطبيعية والانسان » .
في حضارة العراق ج ١ ، بغداد ١٩٨٥ ص ٤٤ .

(٣) والملاحظ هنا استمرار عمليات صيد الحيوانات والاسماك من قبل جماعات المستوطنات المبكرة ويستدل على ذلك من نوعيات الالات والادوات المستخدمة لذلك :

(٤) Sonia Cole The Neolithic Revolution. London. Natural History.
3 edition. 1965 P. 5.

Braidood, R., J. Prehistoric Investigation In Iraqi Kurdistan.
Chicago 1960.

زراعة القمح والشعير تعتبر أقدم الحبوب المعروفة في العلم وظهرت لاحقا
زراعة الذرة في مناطق أخرى من العالم وخاصة في وسط امريكا ، ثم
زراعة الرز في جنوب وشرق اسيا وعرفت زراعة الذرة في جنوب غرب
الولايات المتحدة الامريكية بحدود بين سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد و ٢٥٠٠
قبل الميلاد .

(٥) المعروف ان طريقة التاريخ بواسطة كربون ١٤ الاشعاعي تقتصر على
اختيار مواد عضوية مثل الخشب المتفحم او قرون الحيوانات والعظام
والحبوب . وتعتمد الطريقة على اساس ان نسبة ثابتة من ذرات
الكربون في المادة الحية هي مشعة وذرات الكربون ١٤ هذه مأخوذة
اصلا من الجو لا تتبدل بعد موت النبات او الحيوان بل تتحول الى
اشعاعات ذرية بمعدل ثابت بعد الانحلال وتبعاً لذلك فان عمر المادة
العضوية القديمة يمكن ان يعرف بقياس المتبقي من الاشعاع الدري وفي
السنوات الاخيرة اصبح ممكناً تثبيت تاريخ عمر المواد العضوية الى حد
٨٠٠٠ سنة مضت بفضل التحسينات التي ادخلت على المعداد
المعروف بمعداد كايجر وكانت الاختبارات بواسطة الكربون الاشعاعي
على بقايا عضوية من المستوطن المعروف زاوي جمي وكهف شانييدر

- نشير الى تاريخ ٨٩٠٠ قبل الميلاد : انظر في ذلك :
- Mellaart, J. The Neolithic of the Near East. London. 1975. p. 70.
- (٦) تلاحظ نسبة الكروموسومات في بذور النباتات ولهذا يمكن تمييز حبوبه البدار عن حبوب الخبز .
- (٧) عادل عبدالله النسيخ « بدء الزراعة واولى القرى في العراق » رسالة ماجستير في قسم الآثار بكلية الاداب ، كانون الاول ١٩٨٥ (غير مطبوعة بعد) ص ٦٢ ، ٧٠ .
- (٨) Hel baek, H. "the Paleocethnobotany of the Near East and Europe" In. Braid wood, R. J. and Howe, Prehistoric Inivestigations in Iraqi Kurdistan. Chicago 1960.
- (٩) صباح عبود جاسم « مرحلة الانتقال من جمع القوت الى انتاج القوت في العراق وجنوب غربي آسيا » رسالة ماجستير تقدم بها المؤلف الى قسم الآثار عام ١٩٧٥ (غير مطبوعة بعد) ص ٨٦ .
- وتم الكشف عن مستوطنات اخرى معاصرة لقرية جرمو خلال حملة الانقاذ لمواقع الآثار في حوض حميرين وسد الموصل ومن هذه المواقع تل الريحان في الطرف الغربي من حوض سد حميرين عبر نهر نارين ونمريك على ضفة نهر دجلة الى الغرب من مركز قضاء فايدة في محافظة دهوك والمغزلية الى الغرب من مركز قضاء تلعفر في محافظة نينوى. والموقع الاخير يعتبر من المستوطنات الزراعية التي تعود الى فترة الالفد الثامن - السابع قبل الميلاد وفيه مرحلة ما قبل الفخار التي سبق اكتشافها في موقع جرمو . انظر في ذلك :
- Munchaev, R. M. & Merpert, N. J. Earliest Agricultural Settlement of Northern Mesopotamia. The Investigation of Soviet Expedition In Iraq. Nauka Moscow, 1981.
- كتاب منشور بالوسية مع ملحق بالانكليزية ص ٢٧٠ .
- (١٠) Mortensen : Tell Shimshara, The Hassuna Period. Kohen-hann. 1970.
- (١١) Liold, S. and Safar, F, Tell Hassuna Excavations by the Iraqi Government, JNES, Vol. IV, 1945.

- انظر ايضا : العمارة في العراق القديم منذ اقدم ظهورها وحتى عصر
فجر السلاط : Umm حضارة العراق ج ٢ بغداد ، ١٩٨٥ .
- (١٢) Kirkbride, D, Iraq. Vol. XXXIV "1972" p. 5 umm Dabaghiyah
1971 : Apreliminary Report on Early Ceramic Farning
Settlement in Marginal North Central Jazira, Iraq.
Volvue XXXIV Part I "1972" p. 3.
- (١٣) اشتغلت في هذا الموقع بعثة سوفيتية برئاسة رؤوف منجائيف وذلك من
عام ١٩٦٩ ونشرت تقارير التنقيبات في مجلة سومر العراقية .
- (١٤) قامت بعثة يابانية برئاسة ناميو ايكامي بالتنقيب في هذه المنطقة ونشرت
ابحائها في تقارير منتظمة في مجلة سومر ثم في كتاب صدر عام
١٩٨١ . عن جامعة طوكيو :
- Egami, N. Sumer Vol XXII "1966"
Shinji Fukai, Toshio Natsutani :
Telul Eth - Thrlathat, The excavation of Tell II. Season 1976.
Tokyo. 1981.
- (١٥) Braidwood, R. J. L. A Southern Variant of the Hassuna
Assemblage, Excavated in "1948" In JNES.
- (١٦) المصدر نفسه. كذلك انظر طه باقر «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة»
ط ١ (١٩٧٣) ص ٢١١ - ص ٢١٤ .
- (١٧) المصدر نفسه .
- (١٨) المصدر نفسه .
- (١٩) دوني جورج يوخنا « عمارة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان » ،
رسالة ماجستير اجيزت في شهر آب / ١٩٨٦ في كلية الاداب قسم الآثار
غير مطبوعة بعد . (ص ٥) .
- (٢٠) المصدر نفسه .
- (٢١) دوني جورج يوخنا « عمارة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان » ،
رسالة ماجستير اجيزت في شهر آب / ١٩٨٦ (غير مطبوعة بعد) ص ٥ .
- (٢٢) المصدر نفسه ص ٣٦ - ص ٤٦ .
- (٢٣) المصدر نفسه ص ٧٩ .
- (٢٤) اكتشف هذا المستوطن عام ١٩٢٨ وبدأ التنقيب فيه عام ١٩٣٣ من قبل
بعثة بريطانية برئاسة ماكس ملوان وتم نشر نتائج التنقيبات في مجلة :
(Iraq Vol. II, 1935) .

- (٢٥) عادل عبدالله الشيخ : المصدر نفسه ص ٩١ .
انظر ايضا : اكرم محمد عبد كسار : « عصر حلف في العراق » رساله
ماجستير غير مطبوعة بعد ١٩٨٢ .
(٢٦) ماكس ملوان المصدر السابق ص ٥ .
وايضا انظر : موسوعة العراق ج ٢ « العمارة في العراق القديم » .
كذلك انظر :

Iraq XXVI (1964) p. 62-82.

Iraq : XXVII (1965) p. 82-99.

Iraq : XXII (1960) p. 186-196.

- (٢٧) تم تنقيب المستوطنة هذه من قبل مديرية اثار ومتاحف المنطقة الشمالية
ولمدة اربعة مواسم واستظهرت اربعة طبقات اثرية انظر : عادل عبدالله
الشيخ : المصدر نفسه ص ١٠١ .

- (٢٨) د . تقي الدباغ : في حضارة العراق ج ١ ، بغداد ، ١٩٨٥ ص ١٣٥ .

- (٢٩) صباح عبود الجاسم : المصدر نفسه ص ١٤٥ .

- (٣٠) د . تقي الدباغ : ود . وليد الجادر واحمد مالك الفتيان : طرق
التنقيبات الاثرية . بغداد ، مطبعة جامعة بغداد ، ١٩٨٣ ص ٣٢٥-٣٢٩ .

- (٣١) صباح جاسم عبود (تل عبادة) مجلة سومر ج ٢-١ ، المجلد ٣٥ (١٩٧٩)
ص ٥٢٥ - ص ٥٢٦ .

- (٣٢) صباح عبود (تنقيبات تل رشيد) مجلة سومر ج ٢-١ مجلد ٣٥ (١٩٧٩)
ص ٥٣٥ .

- (٣٣) د . وليد الجادر . سومر . المصدر نفسه اعلاه ص ٥٥٦ - ٥٦٥ .

- (٣٤) كين ماتسوموتو وفريق البعثة الانارية . سومر ١٩٧٩ ص ٥٢٠ - ص ٥٢٢
المصدر اعلاه .

- (٣٥) المصدر اعلاه : ص ٤٧٢ - ص ٤٧٣ .

- (٣٦) روبرت كيليك ومايكل روف : سومر المصدر نفسه اعلاه ص ٥٣٠ -
ص ٥٣٣ .

- (٣٧) روبرت آدمز « اطراف بغداد تاريخ الاستيطان في سهول دىالى »
(ترجمة د . صالح احمد العلي ، د . علي محمد المياح ، د . عامر

سليمان) بغداد مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٨٤ ، ص ١١٣ - ص ١٢٠ .

(٣٨) المصدر نفسه : ص ١٢٢ .

Braidwood, R. J. "The Early Village in South Western Asia" in Journal of Near Eastern studies. Vol. 32 Nos. (٣٩)
I, 2, 1973. p. 34-39.

Adams, R. M. Historic Patterns of Mesopotamian Irrigation Agriculture". in Irrigation's Impacte Society, the University of Arizona Press Tucson, Arizona 1974. p. 1-5.

(٤٠) بلغ نموذج مكتشف من المناجل المصنوعة من الحجر الزجاجي البركاني الاسود (الاوبسيدي) ٣٥ سم .

(٤١) رالف لنتون : شجرة الحضارة (ترجمة د . احمد فخري) ج ١ القاهرة ص ١٣٦ ، عماد توفيق اطروحة ص ١٥٢ - ص ١٥٣ .

(٤٢) د . وليد الجادر : البحث حتى عصر فجر السلالات ، موسوعة حضارة العراق ج ٤ بغداد ١٩٨٥ ص ١١ .

(٤٣) من انواع المئاقب المستخدمة في حفر ونحت العظام المئاقب المنقاري ويعرف ايضا المفك وهو من ادوات النحت والنقش :
(Semenov, S. Prehistoric Technology 1976).

من :

اطروحة السيد عماد طارق توفيق العاني الصناعات الحجرية في العراق حتى نهاية العصر الحجري الحديث ، حزيران ١٩٨٦ ص ١٤٥ .

(٤٤) د . تقي الدباغ ود . وليد الجادر : عصور قبل التاريخ . مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٣ ص ١٥٤ .

(٤٥) د . تقي الدباغ ود . وليد الجادر : عصور قبل التاريخ ، ص ١٣٦ .

(٤٦) عصور قبل التاريخ ، ص ١٥٧ ، ص ٢١٢ .

(٤٧) المصدر اعلاه ص ١٥٨ .

(٤٨) المصدر اعلاه ص ١٥٨ .

(٤٩) المصدر نفسه ص ١٥٨ ، ٢١٢ كذلك اكرم عبدالكسار :

٥٠) مجلة سومر ، المجلد الرابع (١٩٤٨) .

٥١) عصور قبل التاريخ .

Adams. R. M. "Patterns of urbanization in Early Southern Mesopotamia". (٥٢)

GERALD DUCK WORTH & COLTD. LONDON, 1972.

p. 735-748 Huot, J. L. "Des Villes, existent - elles en orient des L'époque neolithique?" In : Annales economies Societes Civilizations, No. 4 Paris 1970 p. 1091-1100.

الفصل الثالث

تخطيط المدن في العراق القديم

المستوطنات الاولى

الدكتور بهنام ابو الصوف

١ — عاش انسان العراق الاول في كهوف المنطقة الجبلية ، كما استقر
حيناً في مستوطنات في العراء على مصاطب نهرى دجلة والفرات ، وتجول في
بادية الرطبة والاقسام الغربية الاخرى من وسط العراق وجنوبه في منطقتي
الرزازق-الايضر واريديو وذلك منذ اكثر من ربع مليون سنة مضت^(١) . وكان
ذلك الانسان لا يزال يدرج ، كما كان حال معاصريه في بقاع العالم القديم
الاخرى ، في مضمار التطور الجسدي والعقلي . اذ كان يختلف عن جنسنا البشري
المعاصر ، فقد كان ينتمي الى نوع انسان النياندرتال^(٢) المنقرض الذي كشف
عن عدد من هياكله العظمية في كهف شانيدار^(٣) ، في محافظة اربيل ، والتي
تعاصر مثيلاتها في فلسطين في مغارة الصخول في جبل الكرمل^(٤) . كان
انسان الكهوف العراقي^(٥) هذا بدائياً في شكله وفي طريقة معيشته . وكان
يتميز برأس ضخيم ووجه عريض وحاجبين بارزين ووجهة منحدرية الى الخلف

وذقن صغير يكاد يكون معدوما • ومع أن طوله لم يكن يتجاوز خمسة أقدام الا قليلا غير ان مظهره الغليظ وصدره الواسع واكتافه العريضة كانت تكسبه ملامح خشنة وقاسية • عاش انسان النياندرتال في جماعات صغيرة معتمدا في حياته على جمع النقاط ماتجود به الطبيعة آنذاك • كما كان يسعى وحيدا او في جماعات لمهاجمة واصطياد الحيوانات الضخمة التي كانت تزخر بها بيئته القاسية • وكان سلاحه فؤوس مدببة من لب الحجارة يهيئوها لهذا الغرض بالاضافة الى هراوات وعصى من اخشاب الاشجار • لقد اثبتت دراسات علم الانسان المقارن في السنوات الاخيرة أن نوع انسان النياندرتال الذي سكن كهوف العراق وفلسطين في الاقسام الاوسطة من العصر الحجري القديم قد مر بمراحل تطورية احيائية سريعة خلال الـ ٣٥-٤٠ ألف سنة الماضية نتج عنها نوع عاقل من الجنس البشري له من الصفات والمظاهر الجسدية والطباع ما يجعله مؤهلا ليكون السلف المباشر لجنسنا البشري الحاضر في هذه المنطقة من العالم ومنها العراق بالذات^(٦) • واذا ما تذكرنا بأن سكنة كهف شانيدار من عراقي النياندرتال قد أعتنوا بدفن موتاهم اسفل ارضية الكهف وأنهم قد زودوا بعض اولئك الموتى بزهور كانت تنمو في المنطقة ، ووجدت بقاياها عند جماجم عدد من هياكلهم ، كما قاموا بالعناية بالمعوقين والكسحيين من ابناء جنسهم^(٧) ، تأكد لدينا التوجه الانساني والاجتماعي والعقائدي المبكر لاولئك البشر سكنة العراق الاوائل وأنهم كانوا في طريقهم لتحقيق الطفرة التطورية الهائلة لبني نوعهم من البشر •

٢ - اثبتت التحريات والبحوث الأثرية لمرحلة العصور الحجرية في القطر، ومنذ اواخر العشرينات من القرن الحالي، وجود مخلفات انسان العراق الاول في اكثر من بقعة من شمالي وادي الرافدين وغربه خلال العصور الحجرية القديمة بمراحلها المختلفة^(٨) • فقد عثر على مخلفات انسان العصر الحجري القديم ، من قسيمة الاسفل والوسط ، بهيئة الات وادوات حجرية معمولة ابرزها حجارة القطع والفرم وبعض الفؤوس الحجرية الكثرية الشكل

والشظايا والمقاشط والسكاكين والمثاقب وغيرها ، من الصناعتين الآشولية والموسستيرية ، والتي حدد زمانها بين ثلاثمائة ألف سنة وثمانين ألف سنة قبل الآن في صحراء الرطبة ومنطقة الرزازة - الاخضر غربي كربلاء وفي الصحراء الكائنة غربي منطقة أور - اريدو بعيدا عن سهل الرسوبي من جنوب غربي العراق في محافظة ذي قار * وعلى طرقي نهر الفرات في منطقة الفحيمي وجزيرة بيجان في حوض سد القادسية ، وعلى طرقي نهر دجلة في حوض سد صدام بمنطقة اسكي موصل ، والى الجنوب من مركز ناحية فايدة، في محافظة دهوك على الضفة الشرقية لدجلة واكتاف الوديان المؤدية اليه في اطراف قريتي كرخوش وبا بيرة المغمورتين بمياه الحوض الآن * وفي منطقة برده بالكا قرب مركز قضاء جمجمال في محافظة السليمانية وفي الطبقة السفلى من كهف شانيدار في محافظة اربيل * كما عثر على بقايا العصر الحجري القديم الاعلى (٣٠ ألف - ١٢ ألف سنة قبل الآن) لأول مرة في شمالي العراق في كهفي زرزي وهزارمرد في منطقة السليمانية وفي الطبقات العليا من كهف شانيدار، وفي كهف بالي كورة في جبال قره داغ وكهف ببخال في محافظة اربيل وكهف باراك في محافظة نينوى ، واكتاف وادي الابيض في منطقة الأخضر في محافظة كربلاء^(٩) * وقد اطلق على هذه المرحلة الاخيرة من مراحل العصر الحجري القديم في العراق اسم العصر البرادوستي نسبة الى جبال برادوست التي يقع فيها كهف شانيدار الذي تعكس بعض طبقاته السكنية بقايا مميزة لهذا العصر^(١٠) * وعند نهايات هذا العصر (في حدود ١٥ ألف - ١٢ ألف سنة مضت) وحين بدأ مناخ العالم بالتغير وقارب آخر عصر جليدي^(١١) على الانتهاء وبدأت مرحلة الدفء والجفاف النسبي تسود العراق، ومنطقة الشرق الاوسط، أخذ العراقيون سكنة الكهوف في الاقسام الشمالية من القطر يهجرون كهوفهم ولقترات طويلة ، خلال اشهر الصيف على وجه الخصوص ، باحثين عن مقار ومستوطنات وقيية في العراء ، غير بعيدة عن اماكن كهوفهم ومغاورهم، قرب الينابيع والجداول ومجاري الانهار، ينزلونها

مع عوائلهم واطفالهم * ومن ابرز تلك المقار والمستوطنات الاولى في العراق التي حل فيها العراقيون اثر خروجهم من الكهوف زاوى جمبي على ضفة الزاب الاعلى ، ليس بعيدا عن كهف شانيدار ، وكريم شهر بالقرب من مركز قضاء جمجمال في محافظة التأميم ، وملقات على الكتف الغربي لنهر الخازر قرب طريق موصل - اربيل في محافظة نينوى ، ونمريك على ضفة دجلة الشرقية الى الغرب من مركز ناحية فايدة في محافظة دهوك ، والمغزلية وقرمز دره غربي قلعة تلعفر في محافظة نينوى ، وتمر خان الى الشمال قليلا من مركز قضاء مندلي في محافظة ديالى، وتل ريحان على الكتف الغربي لنهر نارين في الطرف الغربي من حوض سد حميرين في محافظة ديالى ايضا واسفل طبقات جرمو قرب مركز قضاء جمجمال في محافظة السليمانية وعشرات غيرها لم يكشف عنها البحث الاثاري حتى الآن * وفي هذه المقار والمستوطنات الاولى شبه الدائمة احتاج العراقيون الاوائل الى مسققات تحميهم واطفالهم من حر النهار وبرد الليل ومن المطر، كما احتاجوا الى اماكن يحفظون فيها حاجاتهم وادواتهم ولوازمهم فبدأوا، ولاول مرة في تاريخ البشرية ، يخطون منازلهم الاولى وكانت اكواخ دائرية بسيطة ، شيدت اسسها واسفل جدرانها من الحجارة والطين وسققت بالقصب واغصان الاشجار وجذوعها *

٣ - اظهرت الدراسات والمسوحات الآثرية التي اجرتها فرق العمل المساهمة في حملة التنقيبات الانقاذية في حوض سد صدام بمنطقة اسكي موصل في اواسط الثمانينات ، وجود مخلفات اكيده لانسان العراق خلال المراحل الاولى من العصر الحجري القديم يرجع زمنها الى ما قبل ثلاثمائة الف سنة * وتتكون هذه المخلفات من ادوات وآلات ذلك الانسان متناثرة في عدد كبير من المقار والمستوطنات الكائنة على مصاطب نهر دجلة الاربعة التي كوتتها العصور الجليدية خلال دهر البلايستوسين في المليون سنة الأخيرة من عمر الأرض * فقد عثر على ما يقرب من اربعين مستوطنا لانسان العصر الحجري القديم الأسفل

على مصاطب نهر دجلة فوق قرية رفان عليا الى الجنوب من مركز ناحية زمار (قبل الغمر) في الطرف الغربي من الحوض . كما عثر على ما يقرب من نصف هذا العدد من مستوطنات ذلك الانسان على مصاطب دجلة الشرقية واكتاف الوديان المؤدية اليه جنوبي مركز ناحية فايدة بمحافظة دهوك . وفي اوائل الثمانينات وجدت اعداد اخرى من مقار ومستوطنات انسان العصر الحجري القديم الأسفل على طرفي نهر الفرات في منطقة الفحيمي وفي جزيرة بيجان في حوض سد القادسية . وقبل ذلك وفي اوائل الخمسينات على وجه التحديد ، عثر على العديد من مستوطنات هذا الإنسان وأدواته الحجرية الاولى في صحراء الرطبة غربي العراق . كما وجدت آلات وأدوات انسان العصر الحجري القديم بقسمية الاسفل والاطوسط ، في اوائل السبعينات ، في عدد من مستوطنات ذلك الانسان ابرزها :

طار الجمل وحفنة الابيض في القسم الغربي من محافظة كربلاء بين ، منخفض الرزازة وقصر الاخضر ، غير بعيد عن مجموعة كهوف الطار (١٢) . كما التقت من على اماكن مرتفعة في نفس المنطقة ، قبل ذلك بعقدين من السنين أدوات حجرية تعود للقسم الاخير من العصر الحجري القديم . ووجدت في اواسط الستينات اعداد من الشظايا والمقاشط المستيرية ، من العصر الحجري القديم الاوسط ، يرجع زمنها الى ما يقرب من سبعين الف سنة، في مستوطن يقوم على الكتف الايسر لوادي القصير (ويسمى ايضا شعيب القصير) في الصحراء جنوب غربي منطقة أور - اريدو خارج السهل الرسوبي . وفي المنطقة الجبلية من القسم الشمالي والشمالي الشرقي من العراق عثر على مواطن انسان العصر الحجري القديم منذ أواخر العشرينات، فقد كشف في المجموعة من كهوف منطقة السليمانية عن أدوات هذا الانسان ، في كهفي زرزي وهزارمرد ، والاول كهف صغير في الجبال المقابلة لمركز ناحية سوردش ، ويشاهد الثاني الى يمين الطريق العام الذاهب الى السليمانية بعد اجتياز منطقة طاسلوجة ، وقبل الوصول الى مدينة السليمانية

بمسافة ثلاثة عشر كيلومترا . كما عثر على آثار انسان العصر الحجري القديم الاعلى في كهف كورة الكائن في سلسلة جبال قره داغ ، الى يسار الطريق الذاهب الى السليمانية، وقبل الوصول الى منطقة طاسلوجة ببضعة كيلومترات وتنتشر حول صخرة برده بالكا ، الكائنة على بعد أربعة كيلومترات الى الشرق من مركز قضاء جمجمال ادوات وآلات حجرية من الصناعة الآشورية ، يرجع زمنها الى ما قبل مائة الف سنة . وفي جبال برادوست، في محافظة اربيل، وعلى ارتفاع ٢١٠٠ قدم فوق سطح البحر يقع كهف شانيدار بقرب الضفة اليسرى للزاب الأعلى . وهو من اوسع الكهوف في شمال العراق ، يبلغ عرض فتحته ٨٢ قدما وارتفاعها ٢٦ قدما ويتسع عرضه من الداخل فيصل الى ١٧٥ قدما وعلو سقته في الوسط ٤٥ قدما عن ارضيته الحالية ، ويتلاشى هذا السقف في نهاية الكهف شانيدار في عام ١٩٥١ واستمرت بمواسم متقطعة حتى نهاية عام ١٩٦٠ . وقد كشف عن طبقات للسكنى في ارضية الكهف الحالية من أحدث العهود الى اقدم استيطان فيه يرقم الى العصر الحجري القديم الاوسط ، المسمى بالدور المستيري ، والذي كانت بدايته قبل نحو من سبعين ألف سنة في قاع الكهف الصخري على عمق ٤٣ قدما . تعقبه من اعلى المرحلة البراد وستيه في العصر الحجري القديم الاعلى والتي ابتدأت قبل ما يقرب من ثلاثين الف سنة . تلى ذلك طبقة تمثل العصر الحجري الوسيط الذي يتميز بالآلات الحجرية الدقيقة والذي يرجع تاريخه الى ما قبل اثني عشر الف سنة . ثم تختم طبقات السكنى في اعلى قاع الكهف ببقايا العصر الحجري الحديث الذي كانت بدايته قبل نحو عشرة الاف سنة . . أن ابرز ماكشف عنه التحري الاثاري في كهف شانيدار الهياكل العظيمة التي وجدت في الطبقة المستيرية السفلى اذ عثر على سبعة منها تعود لأنسان النياندرتال بينها هيكل لطفل من النوع نفسه . ودلت الدراسات المختلفة في التاريخ الجيولوجي للكهف وبنتيجة فحص تربته أن مناخ القسم

الشمالي من العراق كان يختلف عما هو عليه الآن . فقد مرت فترة جيولوجية عمت فيها الرطوبة والحرارة بحيث ان انواعا من النخيل كانت تعيش في المنطقة كما دل على ذلك ما وجد من غبار طلع النخيل في تربة الكهف .

الهوامش ومراجع البحث

١ - انظر بهذا الشأن المراجع التالية :

- a) Braidwood, R. and Howe, B. Chicago, 1960. "Prehistoric Investigations in Iraqi Kurdistan".
- b) Braidwood, R. and Howe, B. Chicago, 1983. "Prehistoric Archaeology Along the Zagros Flank".
- c) Solecki, R. in Sumer 1952, Vol. 8. and Sumer 1953, Vol. 9 "Palaeolithic Site in the Zagros Mountains of Northern Iraq, Report on Sounding at Shanidar Cave".
- d) Garrod, D. A., 1930 in Bulletin of the American Schools of Prehistoric Research No. 6, pp. 8-42.
"The Palaeolithic of Southern Kurdistan. Excavations in the caves of Zarzi and Hazar Merd".
- e) Field, H. 1951, in Journal of Anthropology, Vol. 7 No. 1 "Reconnaissance in South Western Asia".
- f) Wright, Henry, T. In Sumer 1966, pp. 101-106.
"A note on Apalaeolithic Site in the Southern Desert".
- fi) Fujii Hideo 1976 Tokyo, Japan.
"Excavations in Iraq 1971-1974. Al-Tar, pp. 303-326".

— مسوحات البعثة البولونية التابعة لجامعة وارثو العاملة في التنقيبات الانقاذية في حوض سلة القادسية (تنشر تباعا في مجلة سومر) .

— مسوحات البعثة البولونية التابعة لجامعة وارثو في التنقيبات الانقاذية في حوض سد صدام بمنطقة اسكي موصل في اواسط الثمانينات (تنشر تباعا في مجلة سومر) .

- مسوحات البعثة الفرنسية التابعة لجامعة السوربون العاملة في التنقيبات الانقاذية في حوض سد صدام بمنطقة اسكي موصل في اواسط الثمانينات . (تنشر تباعاً في مجلة سومر) .
- ٢ — سمي هكذا نسبة الى اكتشاف بعض بقاياها العظمية المتحجرة لأول مرة في وادي النياندر قرب مدينة دسلدورف في المانيا الاتحادية عام ١٨٥٦ ، وقد عرفت بقاياها بعدئذ في اماكن عديدة من جنوب شرق اوربا والشرق الاوسط والهند .
- ٣ — وربما في كهوف واماكن اخرى من العراق لم يكشف عنها البحث الاناري لحد الان .
- ٤ — انظر :
Garrod, D. A. 1962 in Journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain, Vol. 92.
"The Middle Palaeolithic of the Near East and the Problem of Mount Garmel Man".
- ٥ — عاش انسان النياندرتال العراقي في كهوف العراق وعلى هضابه الشمالية قبل اكثر من مائة الف سنة ، واختفت اخر بقاياها منذ ما يزيد على ثلاثين الف سنة .
- ٦ — انظر :
a) Solecki, Ralph, 1957 in Scientific American, Vol. 197, No. 5, "Shanidar Cave".
b) Erick Trinkaus. 1983, Academic Press.
"The Shanidar Neanderthal", pp. 424-472.
- ٧ — وجد هيكل عظمي لرجل كسيح قرب موقد للنار في احدى مستويات كهف شانيدار الاثرية ، مما يدل على انهم عهدوا اليه بالعناية بالنار وادامتها حين خروجهم للصيد .
- ٨ — الدكتور فرج بصمقمجي : مجلة سومر لسنة ١٩٥٥ المجلد ١١ (العصور الحجرية في العراق في ضوء المكتشفات الحديثة) .
- ٩ — انظر المراجع المدرجة في الهامش رقم ١ اعلاه .
- ١٠ — انظر :
Bridwood, R. Chicago, 1967, Prehistoric Men.

١٢- في عصر البلايستوسين ، وهو عصر ظهور الانسان وبداية العصور الحجرية القديمة سادت الاقسام الشمالية من الكرة الارضية اربع عصور جليدية غطى فيها الجليد الاقسام الشمالية من قارات اوربا وآسيا وامريكا الشمالية . وقد كان يقابل هذا في منطقة الشرق الاوسط ومناطق الصحارى الكبرى في العالم عصور مطيرة شديدة البرودة . وفي فترات ذوبان الجليد الكائنة بين العصور الجليدية الاربع كانت منطقتنا تتمتع بفترات دفيء وجفاف نسبي ، كالفتره التي اعقبت اخر عصر جليدي والتي لازالت تسود هذه المنطقة من العالم ومنذ اكثر من خمسة عشر الف سنة مضت والتي يطلق عليها احيانا اسم العصر الحجري المتوسط او الوسيط .

١٣- ان ائدراسات الاولى للمواد الحجرية المكتشفة في مستوطنات انسان العصر الحجري القديم الاسفل والمكتشفة في مواقع غربي العراق وعلى طرفي نهر دجلة تظهر تشابها كبيرا مع مثيلاتها المكتشفة سابقا في مواطن انسان نفس الفترة من هضبة الجزيرة العربية الشمالية .
انظر بهذا الشأن : -

Field, H. Chicago 1960. Northern Arabian Desert, Archaeological Survey 1925-1950.

وهذا التشابه قد يشير الى المسار الذي سلكه انسان المنطقة العربية ، وكان دائما يسلكه في الازمان اللاحقة الاكثر حداثة ، بانحداره نحو وديان الانهار العظيمة في المنطقة . ونتيجة لذلك فانه يؤكد ايضا ان جزيرة العرب كانت موطن معظم الموجات البشرية التي استقرت في وادي الرافدين وبلاد الشام وفلسطين ، ومنذ العصور الحجرية القديمة . بقي ان نذكر ان انواعا من الادوات الحجرية من الصناعة الموستيرية اللاحقة (٨٠ - ٤٠ الف سنة قبل الان) والتي تتشابه مع مثيلاتها في مقار ومستوطنات جبال اعراف الشمالية والشمالية الشرقية وكهوفها قد وجدت ايضا في بعض مستوطنات ضفتي دجلة في حوض سد صدام شمالي مدينة الموصل ، وانها من الصناعات المحلية في تلك المقار والتي تطورت فيها على مر الزمن من قبل مرتادي تلك المناطق الذين كانوا ينحدرون احيانا من اماكن تواجدهم في المناطق المرتفعة من شمالي العراق حاملين معهم آلاتهم وادواتهم الحجرية الى ضفاف دجلة طلبا للماء والقنص .

الفصل الرابع

المدن الدينية والمعابد

د . مؤيد سعيد
دائرة الآثار والتراث

لا تتوافر المعلومات عن اول اشكال العبادة في العراق القديم ومراكز العبادة والمعتقدات الدينية التي رافقتها * وبالرغم من ان الكثير من المنقبين يحلو لهم ولاسباب عدة اهمها الفروقات المعمارية بين بناء واخر من موقع اثري واحد ، اعتبار أحد المباني مزارا او معبدا * * الا انه لم تقع كثير من هذه المباني المشار اليها على انها معابد ، في مجموعة المعابد الحقيقية * الا ان حالة نضج عمارية توضحت فجأة في كثير من المدن المشهورة بمعابدها وتحولت هذه المعابد الى شواهد عمارية دائمية قابلة للتطور ومحافظة على موقعها وكذلك على اسمها وخصائصها *

وتعتبر معظم المدن الرئيسة في العراق القديم من مدن المعابد * وفي ذات الوقت فان كل المدن المتوسطة والصغيرة منها تمتلك معابد خاصة بها وكثرة المعابد والمزارات لها علاقة باعداد الالهة واشكالها واسماؤها وصفاتها وعلاقات بعضها ببعض وبالبشر ايضا * ولقد اتاح علم الآثار ، واعتمادا على

متابعة الاشكال والاقطعة المتقدمة تاريخيا للمعابد ، والرجوع بالمقارنات الى اشكال اقدم ، التوصل الى اقدم معابد ممكنة * . ولكن من دون معرفة الاله الذي كان يحل فيها ، خاصة اذا كانت هذه النماذج من المقارنات هي بين مدن مختلفة * وعموما يمكن ان نقسم المعابد في العراق ومن ثم المدن التي تحتويها الى : -

١ - المعابد للالهة الكبيرة :

وهي المعابد في المدن الرئيسة في العراق القديم وتمتاز بان الالهة الكبيرة هي في قمة الهرم التنظيمي لمجمع الالهة (Pantheon) وهي آلهة ذات صفات سلطوية على غيرها من الالهة الاقل منها مرتبة ولذلك فهي التي تتحكم في مصائر الناس .

وعموما فان المدن التي تحتويها هي مدن حج وزيارات واعياد واحتفالات سنوية كبرى *

ب - معابد الالهة القومية :

وهي معابد لالهة رئيسة كانت اصلا تحمي مدنا خاصة بها ، ثم اتيح لها وبفضل الفعل السياسي والعسكري لسكان هذه المدن بالتحول الى آلهة ذات طابع وطني ، وبدأت بالتداخل وتبني صفات عدة من الالهة الكبيرة بحيث تحولت صفاتها القومية والوطنية الى طبيعة مزدوجة ذات ملامح كونية او فلكية او دينية واسطورية، ومن هذه الالهة الاله ائليل في العهد الكاشي (القرن الخامس عشر ق.م) * والاله آشور منذ بداية الالف الثاني ق.م * والاله مردوخ في بابل منذ بداية الالف الثاني ق.م ايضا *

ج - معابد الالهة المحلية :

وهي معابد لالهة ذات صفات منفردة لمنطقة واحدة او مشتركة لعدة مناطق وباسماء مختلفة وقد تكون بنفس الاسم واللقب او باختلاف يسير في الالقاب *

فيقال عشتار الآشورية وعشتار الاكديّة وعشتار سبار كما يقال الاله انليل او Umun - gal ومون - غال وهي كلها للاله انليل او الاله نابو أو الاله نابو شخاري وهكذا . وتنفرد هذه الآلهة في مدن صغيرة بها ، وقد تكون حلقة تضاف في مدينة رئيسة الى الهة المدينة الكبيرة .

٢ - المعابد المنفردة والبسيطة والمزارات :

وهي الانواع المنتشرة في احياء المدن وتخص اصناف المهن والحرف والصناعات والزراعة والطب والفلك والتنجيم وغيرها كما انها قد تنتشر كما هو الحال الان في مواقع ريفية تتوسط عدة قرى تتجمع حولها وتحولها تدريجيا الى مدينة مركزية صغيرة .

هـ - المعابد التعليمية :

وهي معابد متخصصة في تدريس علوم الكهنة المتعددة لطبقة معينة من التلاميذ ابتداء بالكتابة ثم تنتقل الى تدريس مواد الادب واللغة والفلك والرياضيات والطب . الخ .

ومن هذه المعابد معابد تل حرمل وتل السيب في حميرين ونابوشخاري في بابل .

توزيع المعابد على المدن :

تتوزع هذه المعابد على المدن بصيغ واشكال متعددة . فهي اما تكون معابد :

- أ - مستقلة بذاتها ولها شهرتها خارج المنطقة وتستقبل الحجاج .
- ب - مرتبطة بغيرها كأن تكون معابد مزدوجة او متعددة الالهة ، مثل معبد سن - شمش او آنو - أدد في اشور وكما في المعبد المربع شارة ومعبد عشتار في اشچالي وغيرها .

ج - متكررة في عدة مدن حسب الحاجة اليها كما هو الحال في معابد عشتار المتوزعة في كل مكان ومعابد انليل وكذلك معابد (نابووتشميتيم) *

د - ان تكون معابد او صوامع صغيرة مضافة الى الهة اخرى اكبر منها في المنزلة في تلك المدينة كما هو الحال في الالهة سن، وادد وشمش، في معد نابو الكبير في خرسباد *

اشكال المعابد واحجامها قياسا الى المدينة

العلاقة بين المعابد والمدن هي متناسبة تماما في الحجم والكثافة لذا ان المدن الكبيرة مثل اشور وخرسباد وبابل واور والوركاء وكيش وبورسبا وسبار تمتلك معابد كبيرة تحيط بها عدة اسوار وساحات اما المدن المتوسطة الحجم فأنها عادة تمتلك معابد كبيرة الحجم او متوسطة الحجم ايضا. الا ان الفرق الحقيقي بينها وبين المدن الكبيرة هو في كون هذه المدن تمتاز بمعبد لاله واحد رئيس بينما في المدن الكبيرة تكون هناك معابد كبيرة لاكثر من اله او لعدة الهة ايضا *

وبالطبع فان العواصم الملكية لها حصتها في المعابد وبطريقة ترينا الاهمية الدينية والدينية للمدينة .. لذا ان العاصمة تمتاز عادة بزقورة كبيرة (وفي مدينة اشور عدة زقورات) يحيط بها صحن واسع او عدة ساحات مع اسوار ومداخل ، وتحاول العاصمة عادة تبني معظم الالهة الرئيسة للندن المهمة التابعة لها ، وبذلك تبقى هي كمدينة فوقية تشرف على المدن الاخرى دينيا وديونيا وتضمن بذلك ولاء المدن والمناطق لها *

وتعتبر عمارة المعابد جزءا من العمارة الخاصة بالمدينة وخاصة بالعمارة الرسمية منها وذلك في طرازها وفي شكلها وفي اثاثها *

فاذا كانت القصور ترفع على مصاطب عالية فالمعابد ترفع على مصاطب خاصة او ملحقة بالقصر الملكي ، واحسن مثال لها هو في مدينة خرسباد

الاشورية • حيث يقع معبد القصر الرئيس او الزقورة على مصطبة القصر نفسه بينما هناك مصطبة خاصة بمعبد نابو الكبير • اما في النمرود (كالح الاشورية) فان المعابد الرئيسة تقع على المصطبة الملكية وكذلك الزقورة • وفي اشور المدينة المقدسة نرى ان المعابد تمتاز باشكال معمارية خاصة ويختلف بعضها عن بعض • وهي تجمع بين طرز شمالية وجنوبية في مخططاتها • اما عمارة جدرانها فانها ذات مميزات فردية مستقلة تماما بعضها عن بعض •

وفي المدن الصغيرة فان المعابد تبقى علامة مهمة ومؤشرة في عمارة المدينة فهي مرتبطة بالقصر الحاكم كما في معبد تسوسن في تل اسمر على نهر دياالى من العصر السومري الحديث وهي الاعلى في الجدران بحيث تبدو واضحة فوق مستوى سطح البيوت من على بعد • • كما في معابد سن في خفاجي وكذلك في معابد تل حرميل واشجالي ونوزي • وهي ترتبط بالزقورة مباشرة كما في معابد كارتوكلتي نينورنا (تللول العقر) وتل الرماح ومعبد داکان في ماري • • وهي تقع على مستوى مقارب من الزقورة على ارضية الساحة المحيط بها كما في معابد اذليل في نمر ونار في اور ودب - لال - ماخ في اور او مستقلة عنها كما في معبد التل (A) في دور كوريكالزو (عرقوف) والامثلة متعددة على اشكال المعابد واحجامها الا انها عموما اكبر واعلى من احجام المباني المجاورة لها •

وتتبرز بسداخلها البرجة العالية التي تؤشر البوابة الرئيسة للمعبد وكذلك المدخل الى الصومعة في الداخل حيث يتكرر بناء هذه الابراج •

• مواقع المعابد بالنسبة لتخطيط المدن :

تختلف المعابد باختلاف اساليب تخطيط المدن •
ففي الشمال حيث النظام المتراس في تتابع الاحياء والقطاعات السكنية تكون المدينة الملكية عادة خارجة جزئيا عن

اسوار المدينة او تقع على الحافة الخارجية القرية للنهر والمطلّة عليه • وهناك عادة تنتشر المعابد بين القصور • ففي اشور نرى معبد آشور وزقورة الاله انليل ومعبد سن - شمش المزدوج وكذلك معبد آنو - آدد المزدوج تقع كلها في الجزء الشمالي على حافة المدينة النهرية تتخللها القصور الملكية وكذلك الحال في النمرود وفي خرسباد وفي نينوى •

اما في الجنوب حيث تتركز منطقة القصور والمعابد في مركز المدينة ووسطها فان المعابد تتوزع عادة في المناطق المجاورة للزقورة وقد يحيط بها جميعا سور مركزي واحد •

وتعتبر اور افضل نموذج لهذا النوع من المدن التي تتميز بوجود المعابد الرئيسية والزقورة وبيت الخزينة الدينية والمقبرة الملكية والقصر الملكي في مركز المدينة تماما يحيط بها سور خاص جدد بناؤه عدة مرات منذ العصر السومري الحديث وحتى زمن الملك نبوخذ نصر الثاني وللصور مداخل رئيسة واخرى خاصة • تربطها ببقية اجزاء المدينة لمختلف اغراض الاحتفالات والخدمات •

وهناك مدن صغيرة ايضا تشابه اور ومنها موقع تل محمد الحالي • اما المدن التي يخترقها النهر عادة فان المركز الديني الديني يتحول على حافة النهر ويكون على جانب واحد (المدينة القديمة) او على الجانبين المتقابلين ومن هذه المدن الوركاء وكيش ونفر •

وتعتبر المواقع التي تشيد عليها المعابد داخل المدن مقدسة ولذلك لاترك او تهمل وانما تبقى في مواقعها انما يجدد بناؤها بين فترة واخرى • ومن الشواهد الاساسية على استمرار تشييد المعابد في نفس مواقعها مجموعة معابد اريدو الثمانية عشر والتي تبدأ في بداية عصر (العبيد) وتستمر حتى يشيد الملك السومري اورنمو زقورة فوقها وهي معابد مشيدة بعضها فوق بعض بحيث.

اصبحت مؤخرا كتلة صلبة تحولت الى مصطبة اتاحت المجال لتشييد معابد جديدة فوقها ومن هذا النوع من المعابد ايضا معابد نقر من عصر فجر السلالات ومعابد الوركاء في منطقة أي - أنا والتي لم ينقطع البناء فيها طيلة عصر العبيد والوركاء وجمدة نصر وبداية فجر السلالات وكذلك معابد الاله سن في خفاجي والتي استمرت بعضها فوق بعض باكثر من احد عشر طبقة بنائية ومعبد عشتار في آشور والذي تغير مخططه ولكن موقعه استمر منذ عصر فجر السلالات وحتى سقوط آشور عام ٦١٥ ق م .

تعتبر المعابد عادة مركزا اقتصاديا واداريا مهما خاصة في العصور التاريخية والقبترائية المبكرة . لذا ان موقع المعبد في المدينة اصبح مؤشرا مهما لعدة ظواهر حضارية اهمها : نـ

- ١ - تطور عمارة المعبد يشير الى تطور الفكر العماري في المدينة .
- ٢ - غناء المعبد وثروته يشير الى القوة الاقتصادية للمدينة وسيطرتها على الاراضي المحيطة .
- ٣ - طبيعة الاله وخواصه تشير الى القوة الجاذبة للمتعبدين من خارج المدينة اليها .
- ٤ - الامكانيات العلمية والتعليمية في المعبد هي الاخرى تشير الى قدرة المعبد على الاستمرار والديمومة لكثرة الاجيال التي تتدرب على ادارته واحدة بعد الاخرى .
- ٥ - علاقة المعبد بادارة المدينة او الحاكم او الملك تشير الى مدى نجاح المعبد في توفير احتياجاته وتنظيم اموره .

ولقد لاحظنا في تاريخ العراق القديم انه كثيرا ما كان الملك يقوم باعمال
صيانة وترميم المباني في جنوب العراق خاصة في اور ونقر وكيش وسبار
الكهنة وسكان المنطقة او المدينة *

ولقد اهتم الملوك الاشوريون بالذات في تجديد معابدهم دوما وكذلك في
صيانة في معابد عدة موزعة على كل المدن المهمة وذلك لتخليد ذكراه ولارضاء
وكوثا وبورسبا وبابل الا انهم وفي ساعات الغضب كثيرا ما كانوا يخربون
المعبد وينقلون الاله الى مدينة اخرى **

ولقد عانت بابل من هذا الاسلوب في الانتقام من المدينة وسكانها عدة
مرات حيث خرب المعبد والزقورة ونقل تمثال مردوخ الى خارج بلاد الرافدين
او الى مدينة اخرى *

وكانت المعابد موقعا مألوفا لنصب المسلات خاصة التي تحتوي على
تشريعات وقوانين مثل مسلة حمورابي والتي كانت قد نصبت في بابل وكذلك
في سبار في معبد الاله شمش والقوانين والعدالة *

اهم المدن الدينية في العراق القديم

وتعتبر مدن الوركاء واور وبابل واشور من اهم المدن الدينية على الاطلاق
اذا ماراعينا توزيعها الجغرافي * فالوركاء المدينة التي عبد فيها كل من الاله
آنو الاله السماء إنا الالهة الحب وامتازت بوجود منطقتين دينيتين فيها هما كلاب
واي - انا والمنطقتان مملوءتان بالمعابد ولقد استمرت حتى نهاية عهد الاحتلال،
الفرني وهي مملوءة بالمعابد والقصور الدينية والتي تجمعت تقريبا في المركز *

ومن اهم معابد الوركاء (المعبد الابيض) في منتصف الالف الرابع ق.م*
وهو معبد الاله انو ويرتفع فوق مصطبة عالية وطرز المعبد هو من النوع
(الثلاثي الاجزاء) (Tripartite) وهو يشابه في هذا معبد تل العقير
وكذلك معابد اريدو من عصر (جمدة نصر) *

وفي الوركاء ايضا مجموعة من المعابد بنيت كلها فوق مصطبة يحيط بها سور ولها مدخل رئيس وهذه المعابد كلها بن طراز يسمى طراز الوركاء (وهو طراز متطور عن نظام المعابد ثلاثية الاجزاء) بالاضافة الى قاعات عدة للاحتفالات الدينية وساحة كبرى للطقوس العامة (شبه المسرحية) وهي كلها مشيدة بحدود الالف الثالث ق.م ومخصصة لعبادة الالهة اينانا السومرية (عشتار) * اما اور فان العبادة فيها هي للاله ن نار الاله القمر السومري وهو اله رئيس عبد في اور وكذلك في حران في اعالي الفرات (بصيغة الاشورية) *

ويترجع الاله ن نار في معبده اعلى زقورته التي بناها له الملك اورنر السومري (٢١١٣ ق.م) تحيط به ساحات وغرف عديدة بينما معبد زوجته (نينكال) يقع في الجناح الجنوبي الغربي من الساحة الاولى * وتحيط بالساحة عدة معابد منها معبد كاهنات الاله والمعبد يسمى gipar - Ku وهو مسكن لرئيسة كاهنات الاله القمر * وفي نفس الوقت يحتوي على معبدين وغرف متعددة للصلاة *

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية في الساحة عند مدخلها في هذه النقطة اقيم المعبد - الارشيف وهو المركز الاداري للمدينة الدينية وفيه عشر على مجاميع الرقم الطينية المكتوبة بالسومرية والتي تحوي على اعمال وافكار كهنة المعبد والملوك الذين سكنوا المنطقة ايضا بصفتهم المقدسة ملوك مؤلهين مثل الملك شولغي ابن اورنمو والملك ابي - سين حفيده ويسمى المعبد أي دب لال ماخ وهناك بيت الكنز او الخزينة الذي يضم اهم الاموال والاثاث المقدس وهي بناية غريبة متداخلة بعضها ببعض بقسمين القسم الداخلي هو (النواة) ويحتوي على خمس قاعات طويلة بمدخل مشترك يحيط بها ممر يفصلها عن القسم الثاني (الخارجي) والذي يتكون من مجموعة صفوف من القاعات على طول الممر الذي يدور

حول الجزء الداخلي وتسمى البناية أي نون ماخ أي بيت الكنوز وهناك
القصر الرئيس للملك اورنمو أي خرساك وكذلك مدافن الملوك الثلاثة
اورنمو - شولغي - امرسن والتي شيدت كبيوت عادية ثم انشئت القبور
في سرايب تحت الارض *

يحيط بكل هذه المنطقة سور شبه مستطيل جدد بناؤه عدة مرات اخرها
في العهد البابلي المتأخر * ويتم الدخول اليها خلال مداخل خمسة وتحتل
المنطقة الدينية مساحة مركزية داخل المدينة ومن وسطها تقريبا بحيث يمكن
الوصول اليها من خلال الشوارع وكذلك بواسطة مينائين في الزاوية الشمالية
وفي الضلع الغربي ايضا من المدينة *

وفي الشمال تعتبر اشور من المدن الدينية المهمة فهي مدينة الاله اشور
وهو اله قومي للمنطقة الشمالية وقد اكتسب كل صفات الاله انو واصبح
الاله انليل ابنه نتيجة لذلك * ولقد شيدت المعابد في المدينة على طول الضلع
الشمالي للمدينة والمطل على فرع نهر دجلة القديم وتوزعت من صف واحد
تقريبا تفصل بينها الزقورة والقصر الملكي القديم وشرفة القصر الحديث *

وهي من الزاوية الشمالية الشرقية وعلى التوالي *
معبد اشور ————— زقورة انليل ————— القصر القديم والمقبرة الملكية
————— معبد انو اداد المزدوج ————— القصر الجديد ————— بيت
الاحتفالات السنوية (بيت اكينو) ويقع خارج السور *

ويقع كل من معبدي سن - شمش ومعبد نابو في خط ثان خلف معبد
أنو اداد * ويتم الوصول الى منطقة المعابد والتي كانت معزولة بواسطة
جدران قاطعة وبوابات فرعية بواسطة الازقة والشوارع المعبدة بالحجر
وكذلك بواسطة البوابة الشمالية الغربية (بوابة گرگري) ولبيت الاحتفالات
(بيت آكينو) دور مهم اذ تنتقل اليه جميع الالهة بواسطة الزوارق الخاصة
بها في رأس السنة العراقية القديمة للاحتفال بالعيد ثم تعود ثانية ولذلك
كان لابد من ان تكون المعابد وبيت الاحتفالات جميعها مطلة على النهر *

ويبدو من طبيعة المعابد المزدوجة للمدينة وكذلك من نوعية الالهة التي تسكن فيها ان مدينة آشور صممت دينيا بحيث تعوض عن الجنوب وتكتفي ذاتيا بجمع آلهة قوية تحت قيادة الاله آشور الذي صار كبير الالهة .

ولقد تحولت هذه الظاهرة في الموقع الديني الديوي الخاص بآشور الى ظاهرة تجمعها على حافة المدينة ومطلة على النهر وفي الوقت نفسه الى تقليد عام لكل الملوك الاشوريين فيما بعد .

ولقد حاولوا جميعا وبنجاح تشييد عاصمة بديلة لآشور وقاموا بتشيد مصطبة عالية اصطناعية بدلا من الحافة الجبلية العالية المطلة على النهر ، وقاموا ببناء قصورهم ومعابدهم والزقورة عليها ، وحولوها الى (أكروبوليس) ملكي وبالتالي مدينة محرمة على المواطنين (اللهم الا في اوقات الاحتفالات) فاحتفظوا بذلك بالعصمة الدينية والديوية بأيديهم . الا ان آشور بقيت المدينة الدينية الرئيسة اينما كانت عواصمهم ، ولذلك كانوا يعيشون ملوكا في كالح (نمرود) ونيوى ودورشروكين (خرسباد) ولكنهم كانوا يدفنون تحت جدران القصر القديم في آشور .

اما بابل في العصر البابلي المتأخر فأنها تعتبر مفخرة المدن الدينية القديمة واكبرها واقواها .

فلقد تركزت المنطقة الدينية وبمعزل عن منطقة القصور الملكية على نهر الفرات (شط الحلة الان) . وشيدت الزقورة في وسط المدينة تماما تحيط بها ساحة واسعة جدا بمدخل عدة اهمها المدخل المطل على شارع الموكب وبعمق ٢٥ م . يفصل بين الزقورة ومعبد ايساغيلا (معبد الاله مردوخ) والذي يقع جنوبه منعطف شارع الموكب (الشارع المقدس) باتجاه جسر المدينة (المشيد بالاجر) .

وتبلغ مساحة الصحن المحيطة بالزقورة (برج بابل الشير)
(١١٧٠٠٠ م^٢) تقريبا بينما يبلغ ارتفاع البرج المكون من ٧ طبقات يعلوها
معبد به سرير الاله مردوخ (عرشه) ٩١٦م × ٩١٦م × ٩١٦م أي مايعادل
كتل مقدارها (٧٦٨٥٧٥ م^٣) تقريبا .

ويعتقد ان طبقات الزقورة كانت ملونة الوان عدة اخرها اللون الذهبي
ولقد عثر على كسر قليلة من الاجر المزجج باللون الازرق في ركامات الزقورة
التي نقلها الاسكندر المقدوني الى المنطقة الشمالية من المدينة القديمة (خلف
المسرح الاغريقي) .

ويعزل الشارع الموصل بين الجسر وشارع الموكب بين صحن الزقورة
ومعبد الايساكيل Isagila معبد الاله مردوخ اله بابل . وهو معبد
كبير يتكون من ساحتين كبيرتين تحيط بهما الغرف ولهما مداخل برجية
عالية ينتهي المدخل في الفناء الداخلي الى صومعة الاله مردوخ ذات الغرف
اللاثثة العريضة المتوازية مع بعضها والمربطة ببعضها بمداخل تقع على المحور
الوسطى، ولقد تم التنقيب عن اجزاء من هذا المعبد الضخم وكذلك عن معابد
نينماخ وعشتار ونابو ونينورتا وگولا وهي من المعابد الرئيسة في بابل .

وتروي النصوص ان في بابل ٥٣ معبدا كبيرا للالهة المختلفة و (٥٥)
صومعة للاله مردوخ و ٣٠٠ صومعة للايككي آلهة العالم السفلي و ٦٠٠
صومعة للانوناكي الهه العالم السماوي و ٣٨٤ مذبحا للالهة موزعة في انحاء
المدينة . ان هذه الارقام تعطي مدينة بابل صفة دينية مطلقة ولاشك . ولقد
اسميت بوابات المدينة الثماني وكذلك الشوارع التي تربط بينهما وبين
المعابد باسماء الالهة في هذه المعابد .

وترتبط مدينة بابل بمدينة بارسبا بقناة خاصة هي قناة بارسبا وبواسطتها تنتقل الالهة في احتفالات رأس السنة البابلية الى معبد نابو في بارسبا في زوارقها الخاصة منطلقة من (بيت اعياد رأس السنة) أي (بيت اكيكو) الواقع في شمال الاسوار الداخلية للمدينة القديمة في المنطقة خلف بوابتي عشتار وسن *

وهناك مدن دينية عدة صغيرة ومتوسطة لها تأثيراتها المحلية على المناطق التي تقع فيها * ومن اهم المدن هي مدينة شادوبوم (تل حرمل حاليا) وهي مدينة كهنوتية تعليمية مورست فيها الابحاث في دور خاصة تحيط بمعابد المدينة الثلاثة الصغيرة ولقد عثر فيها على رقم رياضية اشتهر منها الرقيم الذي يوضح نظرية في المثلثات اعتقد سابقا انها من اكتشاف يوقيليدس اليوناني *

وتؤرخ مدينة تل حرمل الدينية التعليمية في العصر البابلي القديم * وتقابل شادوبوم مدينة اخرى (حاليا تسمى بتل محمد) وهناك عثر على معبد مزدوج (بصومعتين) * ومن خواص هذا المعبد انه يقع في وسط المدينة الصغيرة مع بيت الحاكم والمقبرة الخاصة ويفصلها عن بقية البيوت شارع يدور حول الاتجاهات الاربعة للقطاع مشكلا بذلك مدينة تتكون من نواة يحيط بها شارع ثم قشرة تحيط بهما مكونة من بقية بيوت المدينة *

ومن المدن الدينية عموما والمشهورة في العراق القديم *

الوركاء مركز الالهة اينانا والالهة انو

ايدو مركز الاله ايا

نسر مركز الاله انليل والاله نسكر

أور مركز الاله نثار

ايسن مركز الالهة كولا
 سبار مركز الاله شمش
 بابل مركز الاله مردوخ / + ٥٣ اله آخر
 دور كوريكالزو (عكركوف) مركز الاله انليل
 آشور مركز الاله اشور والالهة عشتار الاشورية + مجموعة من الالهة
 خرسباد (دورشروكين) مركز الاله نابو + مجموعة من الالهة
 نمرود (كالخو) مركز الاله نابو + الالهة عشتار + الاله نينورتا
 غيسو (مملكة لكش) مركز الاله نين - كرسو (غرسو)
 كيش مركز الاله نخرساک
 خفاجي مركز الاله سن
 اشجالي مركز الاله عشتار كيتنوم

ومن المؤكد حاليا ان موقع تبه كورة (الطبقة ١٣) من عصر العبيد
 يعتبر من المدن الدينية الاولى بينما تعتبر اريدو في الجنوب اقدم مدينة دينية
 ولاشك اذا استمرت فيها المعابد من عصر العبيد وحتى سلالة اور الثالثة •

وهناك مدن اخرى قديمة وفيها معابد او مزارات الا انها لاغراض
 المدينة ذاتها ولايمكن اعتبارها مدنا دينية ذات طبيعة شمولية ومراكز دينية
 لمناطق او اجزاء معينة من بلاد الرافدين •

والمدن الدينية عموما امتازت بالحج الديني الخاص ومن بعد
 عصر اورنمو بالزقورة المرتفعة والتي تجري حولها احتفالات سنوية كبرى •

كما ان المدن المهمة التي امتازت بوجود بيوت اكيثو فيها مثل بابل والوركاء واشور تعتبر من المدن المركزية في مجالات العبادة والعلوم المرتبطة بالدين وبالسيادة الكهنوتية والملكية ايضا .

كما ان هناك مدنا توسعت في عصور معينة ثم استمرت في اهميتها بالرغم من ضمورها سياسيا مقابل مدن اخرى مثل اور التي اصبحت من اشهر المدن في عصر سلالة اور الثالثة حيث نادى ملوكها بالالوهية لانفسهم وما بعد سلالة أور الثالثة حيث انتصرت العبادة على (ن نار) اله القمر مجددا او بابل بعد زمن كوريكالزو حيث عادت اليها عبادة مردوخ مجددا بعدما شيد هو مدينته الخاصة في عكر كوف وخصصها لعبادة الاله انليل .

المصادر

- آشور : فؤاد سفر بغداد ١٩٦١ .
- كذلك الاعداد (١٠/٢٣/٢٤/٥٨/٦٤/٦٧) من WVIDOG والمنشورة في لايبزيج .
- استحكامات آشور : فالتراندرية ، الموصل ، ١٩٨٧ .
- معابد عشتار الحديثة في آشور : فالتراندرية ، الموصل ، ١٩٨٦ .
- معابد عشتار القديمة في آشور : فالتراندرية ، الموصل ، ١٩٨٦ .
- أريديو : فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، بغداد ، ١٩٨٣ .
- معابد بابل وبورسبار : الموصل ، ١٩٨٦ .
- وكذلك كافة اعداد WVIDOG المرقمة ٥٩/٥٤/٤٨/٤٧/٣٢/١٥/٢ والمنشورة في لايبزيج عن بابل وترجماتها المنشورة من قبل دائرة الآثار والتراث .
- تل حرميل : طه باقر ، ١٩٥٩ .
- عقروق : طه باقر ، ١٩٥٩ .
- نمرود : عبدالله امين اغا وميسر سعيد العراقي بغداد ١٩٧٦ كذلك (Nimrud and the Remains) و Max Mallown
- تلول ديالى و (تل اسمر - خفاجي - اشجالي - شارة) . OIP , OIC راجع منشورات المعهد الشرقي في شيكاغو :-
- خرسباد : loud, OIP 38
- loud-Altmann, OIP, 40
- دل الرماح : D. Oates, IRAQ 30 1968
- نفر : OIP 78 1967 وآخرين McCown
- كتب وتقارير التنقيبات الاخرى كافة .

الفصل الخامس

المدن الملكية والعسكرية

الدكتور سامي سعيد الاحمد
الاستاذ في كلية الاداب – جامعة بغداد

يذكر الثبت السومري للملوك ان كيش هي اول مدينة نزلت فيها الملكية من السماء بعد الطوفان حيث اختير ايتانا الراعي ملكا لسلالتها الحاكمة الاولى . وبذلك تكون كيش في رأس مدن العواصم العراقية فاحترمها السومريون وصار اتخاذ اللقب ملك كيش مبعث احترام ورمزا لسلطة شاملة . ووجد خلال الحفريات في مواقع الاحيمر ، انغرة ، تل بندر وخزنة التي تمثل موقع كيش بأن اولى المستوطنات فيها تعود الى نهاية العصر الشبه الكتابي وخلال ٢٠٠ - ٣٠٠ سنة توسعت المدينة وصار للوكها اهمية .

كانت كيش تقع على مجرى قديم لنهر الفرات وترتبط بقناة بفرع الاراختو من نهر الفرات الذي تقع عليه مدينة بابل وتبعد حوالي ٢٣ كم عن شرق بابل . وضارت كيش عاصمة لسلالة حاكمة اخرى أطلق عليها الالبات السومري سلالة كيش (الثانية) كما كانت لكيش اهمية خلال العصر الاكدي والفترات التي اعقبته .

يصعب معرفة امتداد كيش بالضبط خلال عصورها الاولى لعدم تكامل الحفريات ، غير أن كيش القديمة كانت تشمل، كما يبدو ، تل الاحيمر وانقرة . فالزقورة عند تل الاحيمر تعود الى عصور المدينة الاولى وترتفع الان حوالي ١٨٥ مترًا وكذلك المنطقة التي اطلق عليها الاثاريون آ حيث كشفت بناية عرفت باسم بناية الحجر المستوي المحذب شمال انقرة . والمنطقة كما يظهر رئيسة للسكن في العصر السومري القديم وللبنية عدة غرف وقد تكون مخازن او ذات طبيعة دينية . كما كان التل المعروف باسم W غرب انقرة جزء من كيش القديمة والذي استمر السكن فيه حتى الاحتلال الاخميني للبلاد وهناك عدد من البيوت الكبيرة في القسم الجنوبي من هذا التل . ويعود القصر في التل آ من مجموعة تلال انقرة للعصر السومري القديم ، كما يرجع لعصور كيش الاولى التل E في انقرة حيث موقع الزقورتين التوأمن المشيدتين بالحجر المستوي - المحذب .

ونعرف ان معبد خورزاك كلاما يعود قديما الى كيش وقد يكون مكرسا الى الالهة عشتار حيث كان لهذه الربة معبد في كيش خلال عصر ايسن - لارسة . كما شملت كيش القديمة المنطقة المعروفة الان بالحرف y عند الاثاريين حيث عثر على بيوت وبناية كبيرة الى جانب قبور ومدافن العربات . وبذلك فان كيش كانت خلال العصر السومري القديم تشمل جميع المنطقة من تل الاحيمر الى انقرة ، وربما كان هناك سور يضم كلا من منطقتي انقرة والاحيمر (كيش القديمة) لم يكتشف بعد .

اظهرت الحفريات عند موقع كيش أن المدينة قد اضيف لها خلال العصور اللاحقة فالبناية المعروفة بـ Z ارجعها المنقبون الى الفترة من العصر الاكدي حتى البابلي القديم على اساس اللوح المكتشفة . وارجعت المنطقة التي يسميها الاثاريون T عند الاحيمر الى فترة ليست احدث من

العصر البابلي القديم وحيث عثر على ما لا يقل عن ٣٥ غرفة واعتبرها مكاني
مركزا مهما للنسخ . والى العصر البابلي القديم ارجعت البناية في التل ^C
القريب من تل بندر وكذلك القسم الشرقي من التل W .

كما توسعت كيش خلال السلالة الكلدية ، فاقدم بناء للقلعة عند التل
الواقع جنوب غرب المنطقة T يعود الى زمن الملك نبوخذ نصر الثاني
(٦٠٤ - ٥٦٢ ق م) حيث عثر على سور واق وبناية مربعة الشكل تقريبا ،
والى هذا العصر يعود المستوطن عند تل خزنة وربما برج القلعة عند قمة تل
بندر والذي يمتد منه سور الى غرفة واستحكام شبه دائري وبرج في
الزاوية الجنوبية الشرقية .

يذكر اثبت السومري للملوك انتقال الملكية من كيش الى اوروك
وربما نتيجة الحرب بينهما زمن ملكيها اككا وكلكامش التي نقرأ عنها في لوح
سومري ، وبذلك صارت اوروك عاصمة ملكية حكم بها الملوك . ويذكر الاثبات
ان عدد الملوك بلغ اثني عشر ملكا واتخذها لوكال زاكيري في نهاية العصر
السومري القديم عاصمة لسلالة اطلق عليها اثبت سلالة اوروك الثالثة والتي
وضع سرجون الاكدي نهاية لها ، كما اتخذها اوتو حيكال عاصمة لسلالة
قصيرة الامد دعاها اثبت سلالة اوروك (الخامسة) . وكانت اوروك عاصمة
لدولة عمورية شكلها سن كاشيد .

تقع اوروك على بعد ١٨ كم عن خضر الدراجي وتغطي مساحة تقرب
من سبعة كيلومترات مربعة وكانت قديما محاطة بسور يبلغ محيطه ٩ كم
بيضوي الشكل كما يبدو ، كانت تقع على مجرى نهر الفرات الرئيس ولكنه
ابتعد بحوالي ١٨ كم عندما غير مجراه مما كان له اثر في حياتها .

اكتشف لسور اوروك حتى الان بابان يقع الاول في الشمال والثاني
في الجنوب (بوابة اور) ، وكان السور مكونا من جدارين متلاصقين عرض

الداخلي خمسة امتار والخارجي حوالي المترين • ويلاصق السور من الداخل سلسلة من انصاف الابراج كثيرة العدد على مسافات معينة ويبرز كل منها عن السور بما يقارب ٢٥ مترا • وربما يعود السور الى العصر السومري القديم حيث ان البوابة مشيدة باللبن المستوي - المحدث ، وقد نسب الى كلكامش تشييده سورا لاوروك • وتشير نتائج الحفريات التي تمت باجزاء منفصلة ومتباعدة من موقع اوروك بانها حتى في عصر العبيد كانت ذات مساحة كبيرة قد تصل الى ٢٠٠ ايكر • وكانت اوروك في العصر السومري القديم تتألف من منطقتين هما الاي أنا وكولاب • واطلقت الاولى على المنطقة حول معابد المدينة القديمة والتي ربما كرس لانا - عشتار • اما كولاب فهي منطقة معبد الاله انو (المعبد الابيض) •

وتقع منطقة الاي أنا في وسط المدينة تقريبا وفيها معبد ضخيم عرف باسم اي أنا للالهة عشتار • اما كولاب فتعرف الان بتل وصواص ، وقد شيد معبد انو فيها على مصطبة عالية تشبه الزقورة ارتفاعها حوالي ١٢ مترا وربما اكثر ، وان زقورة اوروك التي شيدها اورنمو تعود الى معبد انو وتقع في وسطه •

وكان لمعبد انو زمن اورنمو سوران داخلي وخارجي وبينهما غرف وساحات وللسور بابان واسعان في الجانب الشرقي والجنوبي ، ومساحة المعبد الكلية حوالي ١٢٠ الف متر مربع • يقع خارج السور من جهة الشمال على بعد كيلو مترين من المدينة تل عال هو بقايا برج مرتفع ربما كانت نقطة حراسة • والى شمال غرب منطقة المعابد عشر على بقايا قصر الملك سن كاشيد في بداية القرن الثامن عشر ق.م •

توسعت اوروك كما يبدو خلال فترتي الاحتلال السلوقي والفرثي فقد شيد خلال فترة السلوقيين معبد انو انتوم (بناية بيت ريش) على مصطبة الى الشمال الشرقي من معبد انو السابق • ثم معبد اري كال (البناية الجنوبية) الى جنوب بيت ريش ، ربما لعبادة الالهة عشتار • ثم البناية

الواسعة الكبيرة في التل المسماة حاليا حمد الوركي شمال شرق منطقة المعابد والتي عرفت باسم بيت اكيثو . وفي جنوب اطلال اوروك وعند التل المعروف باسم ورور حاليا تقع بقايا معبد كاريوس من الفترة الفرثية . وربما يعود الى نفس الفترة القصر المربع الكبير الحجم (طول ضلعه ١٤٠ متر) الى الشرق من منطقة المعابد . والى يسار زاوية القصر الجنوبية مجموعة من الغرف لابد وان كانت مصلى .

يجعل الاتبات السومري للملوك مدينة أور (المقير حاليا) مركزا لسلالتين حاكمتين خلال العصر السومري القديم ثم صارت قاعدة لسلالة أور الثالثة وكان لأور مركز استراتيجي وموقع مهم ادى الى اختيارها عاصمة مزدهرة . فقد نشأت قرب طرق تجتاز الصحراء التي وراءها وفي وسطها منطقة زراعية خصبة وافرة المياه وقد ربطها نهر الفرات بمدن العراق الداخلية وكان لقربها من الخليج العربي واتصالها به اثر كبير في ارتباطها بالعالم الخارجي الى جانب كونها مركزا لعبادة الاله القمر وزوجته نينكال .

كانت اور مدينة واسعة يبلغ طولها ٥٤ - ٥ كم وبعرض مقداره ١٥ - ٢ كم اغلبها بساتين تحيط بالمدينة . اما المساحة المسكونة من اور فكانت ١٢٠٠ × ٧٠٠ متر ويحيط بها سور ضخيم مشيد باللبن يضيوي الشكل يتسع من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي مع وجه خارجي ينحدر بشدة وكان القسم الاعلى حاجزا امام جانب التل الذي شكل المدينة القديمة .

وكان مجرى الفرات القديم يحيط باور من الشمال والغرب الى جانب قناة عريضة قد حفرت على بعد ٤٥ مترا من قدم السور الشرقي . ولذلك صارت اور محاطة بخندق من الجوانب الثلاثة ولا يمكن دخول المدينة ارضا الا من الجنوب . اما السور الثاني ذو الطلعات الضخمة فكان يحيط بالمنطقة المقدسة في جزء المدينة الشمالي الغربي .

المعتقد أن تخطيط اور خلال العصر السومري القديم لا يختلف كثيرا عنه في زمن سلالة اور الثالثة ، وابرز معالم اور هو الحي المقدس ويضم الزقورة التي شيدها اورنمو المشيدة على مصطبة ومحاطة بأسوار مزدوجة . والى الجنوب الشرقي من مصطبة الزقورة تقع بناية الكييار المكرسة الى الالهة نينكال وتحوي بضع مصليات اضيفت لها على مدى العصور اللاحقة والمعتقد انها هي المعبد الارضي . ثم البناية المربعة الصغيرة المسماة معبد نين ماخ التي اختلف الاثاريون في طبيعتها فاعتبروها قصرا او معبدا او حتى بيتا للمال . اما المدخل الرئيس لمنطقة الزقورة امام الزاوية الشرقية للزقورة فكانت الدوب لال ماخ وتشرف طارمتها الخارجية من الجنوب على الجزء الرئيس من المنطقة المقدسة واستعملت كمجلس للقضاء وقد فصلها الملوك المتأخرون عن المصطبة وجعلوها مع غرفتها المشيدة حولها محكمة . ثم معبد الكييكك - پركو (قصر رئيسة كاهنات معبد الاله القسر) الذي شيده المالك امارسين جنوب غرب الزقورة ربما على بقايا معبد سابق ، وكان المعبد مستطيل الشكل تتوسطه ساحة ، وفي الزاوية الجنوبية من الساحة المقدسة بالحي المقدس كان قصر اورنمو وكان على الاغلب مركز الدولة الاداري . والى شرق هذا القصر وفي الشمال الشرقي من الحي المقدس تقع مقابر اورنمو وخليفته المباشرين وقربها المقبرة الملكية .

تقع في القسم الشرقي من اور مجموعة البيوت السكنية من بداية العصر البابلي القديم ، والى الغرب منها البيوت البابلية ذات الشوارع المستقيمة والدروب الفرعية . وقسم الحي السكني الى وحدات بنائية بواسطة الازقة الكثيرة التي تقطعها ، ثم منطقة الميناء جنوب شرق اور الذي يعود الى عصر سبق حيث شيده امارسين معبدا للاله اينكي .

توسعت اور خلال العصر الكلدي حيث كان السور الذي شيده نبوخذ نصر الثاني يمر ببقايا مقابر سلالة اور الثالثة قرب المقبرة الملكية .

كما شيد نبوخذ نصر الثاني معبد الميناء الذي يتصل في المدخل الغربي بالقصر الذي شيده نبونائيد آخر ملوك السلالة الكلدية ويقع في القسم الشمالي الشرقي من المدينة .

ان مدينة بابل من مدن العواصم وخير مثل للمدن المحصنة في العراق القديم التي ظلت عاصمة لجنوب ووسط العراق لفترات طويلة . وتقع على ضفة الفرات اليسرى الذي شكل لها حصنا طبيعيا وزود دائما بتحصين خاص ، وكان الفرات يخترق بابل من الشمال الى الجنوب وكان اكثر استقامة في السابق منه الان . وكانت مدينة بابل واسعة جدا ، فرغم الجهود الالمانية المكثفة فلم تنقب خلال الخمس عشرة سنة الا يجزء منها يعود الى العصر البابلي الحديث ولان مستوى سطح المياه الجوفية لا يسمح بالحفر اكثر من ادوار ذلك العصر ، وكانت مساحة بابل حوالي عشرة ملايين متر مربع ويقرب محيطها من ١٦٥ كيلو متر . وكانت مربعة الخطة وامتدت زمن نبوخذ نصر الثاني لتضم منطقة واسعة اخرى على جانب الفرات الغربي فصار المربع بذلك متوازي مستطيلات ، محاطة بسورين خارجي (نيمتي اليل) محيطة ١٨ - ٢٠ كم يحيط بالقصر الصيني من الشمال وداخلي (امكور اليل) يتألف من سورين الاول من داخل المدينة عرضه ٦٥٢ كم والثاني صغير ٣٧٢ كم ، وخلفهما خندق ماء . ويختلف عرض الخندق من ٢٠-٦٠ مترا يترك النهر ثم يعود له من كلتا النهايتين ، وقد تمت تقوية وجه الخندق الداخلي بسور من الطابوق المشيد بالقار . وقد اكّد كوايدثي ما اورده هيردوتس بان هناك مجرى مفتوحا للقوارب والسفن من كل الانواع حول الخندق والتي تؤدي اليها الطرق ، وكانت اسوار بابل مقواة بابراج بارزة في محلات مع ابراج صغيرة تبرز فوق الشرفات الخارجية المسننة . وكانت الاسوار مرتبطة وسطوحها عريضة تسمح بمرور عربتين يسيران بسرعة في اتجاهين معاكسين . وعلى طول ضفة الاراختو (فرع الفرات الذي تقع عليه

بابل) الشرقية حيث تقترب الشوارع من جهة النهر شييد نبونائيد سورا
جديدا مع رصيف عريض عند قدمه •

كانت لبابل بوابات عدة قدرها هيردوتس بمئة عرفت منها ثمانية خلال
الحفريات يبدأ من كل واحد شارع سمي عادة باسم اله معين يقع معبدته على
مقربة من البوابة • وقد ذكرت النصوص المسمارية اسماء اربعة وخمسين
شارعا وشارعين لمسيرة الجند وثلاثة جسور للعبور الى ضفة الاراختو
الغربية • وكل بوابة تتألف من بناية واسعة داخل حصن بارز وتشكون على
جانبيه غرف للحراسة ، وفي السور الثاني حل محل الغرفة الجانبية فناء مع
حصن الباب ربما كان لتفتيش المارة واستقبال الزوار • ومن بوابات بابل
بوابة عشتار وهي باب المدينة الشمالي الغربي ذات مدخل مزدوج يقطع
جداري سور بابل وتمر منها مواكب اعياد رأس السنة قادمة من معبد
مردوخ في طريقها الى بيت الاكيتو عبر شارع (لايعبره العدو) الذي اطلق
عليه منقبو بابل الاوائل شارع الموكب • وعرض هذا الشارع من الجهة
التسالية لباب عشتار ٦٣ قدما يكتنفه من الجانبين جداران سمكهما سبعة
امتار • ويضيق شارع الموكب بعد بوابة عشتار ويتجه جنوبا مارا من
حافة القصر الشرقية • وقد رفع مستوى شارع الموكب بجانب المنطقة التي
يوازي بها القصور في مراحل بنائها الاخيرة ، ثم يعبر قناة ليبييل خيكالا
ويستمر مارا بسور الزقورة فمعبد مردوخ ثم ينحرف غربا ويعبر الاراختو
على الجسر ذي الدعائم الحجرية الخمس الى جانب المدينة الغربي حتى بيت
الاكيتو • والى جانب بوابة عشتار من الجهة الشمالية هناك بوابة سين
(بوابة الملك والبوابة العظيمة) ، وكانت بوابتا الجنوب مكرستين للاله
اوراش وانليل (وسميت باب السوق) • وفي الشرق كانت بوابة زبابا وعلى
مقربة منها شمالا قناة بانيتو التي تمتد غربا مارة من قرب بوابة اوراش حتى
الفرات • ثم باب مردوخ (بوابة جيشو) • ومن جهة الغرب هناك بوابتان

شمش (توبا) وادد (اكومي) • وبموازاة شارع الموكب حتى وسط المدينة
يمتد شارع سين قادما من الشمال وشارع انليل قادما من الجنوب ويؤديان
الى شارع مردوخ الذي يخترق المدينة من الشرق الى الغرب وينتهيان عند
باب مردوخ • وكانت تحدد هذه الشوارع احياء وعدد من الشوارع الصغيرة
المتعرجة •

كانت بابل مقسمة الى احياء عدة ، امثال حي اريدو الذي يقع فيه معبد
مردوخ ثم حي كادينكيرا قرب بوابة عشتار وحيث معبد الاي ماش داري
الخاص بعشتار اكد الذي يقع ضمن بيوت سكنية وشوارع ضيقة تؤدي
غربا الى شارع الموكب (سماها كولدفي جميعا المركز) التي تشير النصوص
المسارية المكتشفة الى رجوع بعضها الى نهاية سلاطة بابل الاولى ، ومعبد
الاي ماخ للالهة نين ماخ (بيليت ايلي) والقصر الجنوبي الذي ذكر نبوخذ
نصر انه بين سور ايمگور انليل وقناة ليبيل خيگالا (القناة الشرقية) ومن
ضفة الاراختو حتى شارع الموكب الى جانب بوابة سين قرب زاوية بابل
الشمالية الشرقية • والى شرق احياء كادينكيرا واريديو يقع حي تي اي كي ثم
حي شوأنا (تينثير) المحدد ببوابتي اوراش وانليل • والبوابة الاولى على
الامتداد الجنوبي للسور الداخلي قرب ضفة الاراختو الشرقية في وقت
كانت الثانية ابعد الى الشرق ، وفي هذا الحي معبد الاي گال بوررا الذي
اطلق عليه كولدفي معبد Z وهو في الغالب للالهة ايشارا الذي اعتبره اخرون
للربة گولا • وكذلك معبد الاي خورزاكك تيللا الخاص بالاله نينورتا
جنوب شرق المعبد السابق • اما المدينة الجديدة (الوايشو) فكانت بين
الزقورة والقصر الجنوبي على ضفة الاراختو الشرقية وتقطعها قناة المدينة
الجديدة من الجنوب وقناة ليبيل خيگاللي من الشمال التي وضعها بعضهم
على جانب الاراختو الغربي • وتقع في حي المدينة الجديدة معابد عشتار
كاكابي ومنصة عرس نبو ومعبد كيتوش كيزالا ، اما حي توبا فيقع بين بوابة

شستس (توبا) والاراختو داخل سور المدينة وفيه معابد نين سينا ، نين كاراك وشيدادا وكان حي كلاب محصورا بين أحياء اريدو غربا وكادينغيرا شمالا وتي اي كي شرقا وتقع فيه معابد الاي گيتسنوگال الخاص بسين وبناية بيت ريش اكيو (بداية الاكيو) ، ثم حي نوخار اودكي (ربما منطقة باب لوگال غيرا شمال حي كوماري) ذو الالهية الدينية * وعلى مقربة منه حي كوماري بين منطقة باب لوگال غيرا من الشمال وحي توبا من الجنوب وتقع فيه سبعة معابد منها تلك لشمس وادد التي نعرف بعضها منذ العصر البابلي القديم *

يقع قصر بابل الشمالي (الحصن الشمالي ، القصر الرئيس) شمال بابل الغربي جنوب باب عشتار بين شارع الموكب شرقا ونهر الاراختو غربا وقناة لبييل خيكاللي جنوبا وهو اكثر القصور سعة * وعلى مقربة منه القصر الجنوبي الذي يعود اقدم دور بنائي له لسرجون الثاني الاشوري وربما شيد على قصر سابق ، وهو اصغر من الشمالي سعة ومحاذ لحافة الاول الشرقية * ويفصل القصر الجنوبي عن الشمالي الذي في شماله عدة خطوط من الاسوار التي تمتد من جهة الاراختو لتلتقي ببوابة عشتار ، ثم القصر الصيفي الذي يقع في شمال بابل ويمائل في خطته القصرين الرئيس والجنوبي *

كانت العاصمة الاخرى في بلاد بابل كانت دور كوريكالزو وهي قصبة اوشا القديمة التي اعاد تعميرها الملك الكشي كوريكالزو الاول واتخذها عاصمة له * وامتازت دور كوريكالزو بموقعها الخاص المهم حيث انشأت بالاصل على نتوء واطىء من الحجر الجيري الناعم شمال السهل الرسوبي الى غرب مركز مدينة بغداد الحالية وعند منطقة يقترب بها نهر الفرات من دجلة * ويكون موقع دور كوريكالزو (عرقوف الان) احيانا منفذا لمياه الفرات الزائدة وقت الفيضان * ولم تكن دور كوريكالزو ، حسب ما يبدو من التنقيبات الحالية ، بالعاصمة المحكمة التحصين كبابل واشور بل احيطت بأسوار دفاعية عثر على بقاياها خلال الحفريات ابتداء من بداية القنال على الجانب الشرقي * وان السور

الخارجي يحيط بالمدينة من الشمال الشرقي ويتحول الى الشمال الغربي حتى نهاية ارض مرتفعة ويتلاشى في الشمال الغربي والجنوب الغربي من اول البيوت السكنية حتى منطقة القصور ، ويقل ارتفاعه في الجهة الشمالية الغربية ، وكان معدل عرض السور عشرين مترا وما تبقى من ارتفاعه بين ٣ - ٣ امتار . ويظهر ان قناة باتي انليل التي كانت تربط دور كوريكالزو بمدينة سبار تنشط عند الاولى الى شطرين يتجهان الى الشمال الغربي والجنوب الغربي من المدينة . ولم تكن دور كوريكالزو بالمدينة الواسعة فطولها حوالي ٢٦٢٠ مترا ويختلف عرضها من مكان الى اخر حيث يكون في الجهة الجنوبية الشرقية ثلثمائة متر وفي وسطها حيث المعابد حوالي ستمائة متر وفي نهايتها الشمالية الغربية ٦٤٠ مترا ، والاثار البارز في موقع المدينة هو زقورتها المرتفعة ذات القاعدة المربعة تقريبا المحاطة بسور خاص . وكشف على مقربة من الزقورة اربعة معابد مكرسة الى الالهة انليل ، ونليل ونورتا في وقت تذكر النصوص وجود ستة معابد فيها . وتجمع هذه المعابد ساحة مركزية واسعة وهيكل مشترك . واهم المعابد هو الاي يوكال (بيت الالهة العظيم) المكرس الى الاله انليل ومعبد الاي زاكك دينكيرايين للاله انليل ايضا ، ومعبد الاي كوشان اين تيكال للالهة نليل . وتتماثل هذه المعابد في الصفات العامة مما يرجح تشييدها في وقت واحد .

هناك قصور دور كوريكالزو الملكية عند التل الابيض في الجزء الغربي من الموقع على بعد تسعمائة متر الى الجنوب الغربي من الزقورة . وهناك قصر من عصر متقدم يشمل على بهو طويل ملون بالابيض مع ثلاثة صفوف من مصاطب صغيرة .

تعتبر مدينة اشور اقدم عاصمة اشورية معروفة وتتمثل اطلالها في موقع قلعة شرقاط على بعد ١١٠ كم جنوب مدينة الموصل ، وكانت عاصمة الملك شمشي ادد الاول وظلت عاصمة الاشوريين لمدة طويلة ولم يهملها الملوك

الاشوريون حتى عندما تحول مركز الدولة عنها • وتقع اشور على الضفة اليمنى لدجلة في بقعة تحاذي نهاية جبال مقلوب والى الغرب منها تبدأ البادية (الجزيرة) والتي اهتم بها الملوك وبنوا فيها الاستحكامات لسهولة اختراق الاعداء لها • وقد شيدت اشور على مرتفع من الحجر الجيري يطل على دجلة وحيث يصب به رافده الزاب الاعلى ولذلك اعطى دجلة ورافده الزاب لاشور الحماية من جهتين مما جعل الاهتمام يتركز على تقوية دفاعاتها البرية حيث تتألف من جدران رصينة هلالية الشكل تحيط بمنطقة عرضها ثلاثة ارباع الميل وتركز بناء معابد وقصور المدينة في الشمال والشمال الغربي •

كانت اشور محاطة بسور داخلي قوي اسمه دورو شيده الملك كيكا وجدده ايلو شوما يحاذي نهر دجلة من الشمال والشرق ويستدير ليلتقي بقسمه المحاذي لدجلة ويضم المنطقة المسماة مركز المدينة (لبي الي) وحوى ابراجا عدة اشبه بقلع • ثم السور الخارجي (شالحو) الذي يمتد من زاوية المدينة الشمالية الغربية بسوازة السور الداخلي ثم ينحرف عنه جنوبا وينعطف مرة اخرى باتجاه النهر شاملا منذ زمن الملك يوزوا اشور الرابع (١٥٣٠ - ١٥١١ ق م) المنطقة المسماة المدينة الجديدة (الواشو) ، وقد شيد الملك شلمنصر الثالث سورا ثانيا في المنطقة الغربية على ارض مرتفعة فصار السور الغربي لاشور بذلك مزدوجا (داخلي وخارجي) وكان سسك السور سبعة امتار يحوي على ابراج يبعد كل منها على الاخر ثلاثين مترا ويبرز عن السور اربعة امتار •

كانت لاشور ابواب عدة يذكر دليل الالهة من القرن السابع ق م كونها ثلاثة عشر ولكن الابواب المعروفة هي باب تيبيرا (بوابة الصناعات) المشيدة على مصطبة من اللبن فوق كتف طبيعي من الحصى الصغير وتطل على الوادي المحاذي للسور الغربي • وهي ذات ثلاثة مداخل وتتألف من وحدتين منفصلتين ومرتبطة بأحد اقسام السور المزدوج الغربي • وكان في جزئها

المرتبط بالسور الخارجي مدخل عرضه اربعة امتار يسير عبر قاعة مستطيلة الشكل • ويتم الدخول للبوابة من منحدر صخري على جانبيه خندق وتركت امام البوابة صخرة مربعة منحدره لحصر الاعداء •

وتبرز الباب قليلا عن السور وتتبع مسار السور الخارجي الملتوي • والى جنوبها الغربي باب اللات وفي امتدادها وعند السور الداخلي هناك بوابة تيساري المؤدية الى المدينة الجديدة ، وفي جدار المسناة (السور الشرقي) الذي شيده ادد نراري الاول على طول جهة دجلة الشرقية وقوام الملوك اللاحقون لحماية اشور من الفيضان هناك بوابتان الاولى شالية باسم ايا شارري تطل على مجرى دجلة ثم باب دجلة في جنوب الموقع عند التقاء السور الخارجي الجنوبي الغربي بالسور الشرقي • ومن الشمال على طول مجرى دجلة القديم هناك اربع بوابات هي بوابات اشور ، موشالو ، البرج وشمش • والى يسين المدينة هناك معبد اشور (انليل) وشرقه زقورته الكبيرة (الخورزاك كوركورا) اي الجبل الكبير • والى غرب الزقورة بقليل تقع قصور ثم زقورتا معبد انو - ادد الصغيرتان وجنوب الزقورة معبد الالهين سين وشمش من منتصف الالف الثاني ق م • والى يساره معبد عشتار وقربه معبد نبو وتشسيتوم • وعلى مقربة من الزاوية الشمالية الغربية للمدينة يقع ما يسمى بالقصر الجديد وهو بناء ضخيم • وفي اقصى شمال غرب المدينة خارج الاسوار يقع دار حفلات عيد الاكيتو الذي تسيده سنجاريب وسيد حديقة • كما شيده الاخير قصرا لولي عهده في جنوب المدينة الشرقي المعروف باسم قصر ولي العهد • واطلق على الساحة التي بين القصر والمعبد اسم ساحة العرض للجسوع المساوية والى غرب زقورة معبد انليل (اشور) يقع القصر الاشوري من العصر الاكدي المنسابة في الخطة قصر نرام سين عند تل براك مما يعطي سببا لاحتساب بناء الملك الاخير له في اشور • وقد سيد

فوقه فيما بعد فصور العصرين الاشوري الوسيط والحديث • وعثر تحت
معبد سين - شمش في اشور على بيت من العصر الاكدي •

لقد اعيد الاهتمام بأشور خلال فترة الاحتلال الفرثي حيث صارت
مدينة واسعة بشوارع مستقيمة ظهرت في بناياتها الاعمدة وشيدت بها
الاسواق على نمط الاغورا اليونانية ودخلت العمارة التي استخدمت بها
الحجارة المهندمة وظهرت الاواوين المفتوحة من الخلف والساحات المحاطة
بالاعمدة • وقد ثقب في ثلاثة اجزاء من مدينة العصر الفرثي بأشور منها
فناء المعبد عند طرف المدينة الشمالي المسيد فوق معبد قديم والبوابة • ثم
قصر المدينة الواسع الذي يقع في جانبه الشرقي فناء محاط بسلاسل من
الاعمدة المنتظمة الابعاد • وفي البلدة ساحة محاطة بسور تؤدي اليها ممرات
عدة • وامام البوابات فناءان واسعان يتعامدان على بعضهما كان الشمالي
منه ذا طريق مسقوف باعمدة والاخر غرب ساحة المدينة •

ان المدينة العاصمة المهمة الاخرى هي نينوى ذات الموقع الاستراتيجي
حيث يحيط بها نهر دجلة من الغرب والجبال من الشرق وعلى مقربة من البادية
الى جانب وقوعها في منطقة وافرة المياه ومواد البناء الضرورية • وقد اثبتت
الحفريات قدم نينوى حيث وجد في الطبقة المعروفة بنينوى الاولى والثانية
فخار يرجع الى عصر حسونة من بداية الالف السادس ق.م ، واثار عدة قصور
لعصور لاحقة (سومرية ، اكدي ، وبابلية قديمة الخ) • وتتمثل نينوى الان
في موقعي قوينجق وهي مركز المدينة الرئيس وتل نبي يونس (التوبة) حيث
عثر على بعض القصور والمعابد من العصر الاشوري المتأخر وبضع تلال
اخرى •

كانت مدينة نينوى على هيئة شبه منحرف محاطة من الخارج بسور
ضخم يليه خندق كبير • وكان للمدينة من الجهة الشرقية سور خارجي من

اللبن يليه خندق يمتد من الشمال الى الجنوب • ومحيط السور الخارجي حوالي ١٢ كم وهو متفاوت العرض بين ١٥ - ٤٥ مترا •

ويخترق نينوى نهر الخوصر وطول سور الجهة الشرقية خمسة كيلو مترات تخترقه ستة ابواب هي بوابات (سنحاريب ، خيلزي ، شمش وهي كبرى الابواب ، انليل (نليل) ، مشلال ، شبائباو خلاخي) ، وطول السور الشمالي كيلومترين وفيه ثلاثة ابواب وهي من الشرق الى الغرب (ادد ، نرغال وسين) • اما السور الغربي الذي يسير على طول دجلة فطوله اربعة كيلومترات ومائة متر ويتضمن خمسة ابواب هي (ماشكي (المستقى) ، كاري (المسناة) ، ايكال مشارتي (بوابة السلام) وخذوري) • وطول السور الجنوبي ٨٠٠ متر وتخترقه باب واحدة هي باب اشور • وفي داخل المدينة مواضع سكن وثكنات جنود ومنشآت اخرى • وتركزت القصور في تلي قوينجق ونبي يونس اللذين يفصل بينهما نهر الخوصر • وعلى مقربة من قصر اشور بانيال هناك معبد نبو ويقع قصر سنحاريب الذي اطلق عليه اسم القصر الذي لا مثيل له في جنوب تل قوينجق وهو قصر واسع • وشيد سنحاريب في نينوى شوارع واسعة كما اهتم بالطرق التي تربط نينوى بالمدن المجاورة لها • وغرس سنحاريب الحدائق والبساتين في نينوى خارج اسوار المدينة وشيد قناة جديدة يزيد طولها على ٥٠ ميلا مع قناطر لجلب الماء الصافي الى نينوى •

وبموازاة الجهة الشرقية لسور نينوى هناك سور ثان خارجي ويفصل بين السورين خندق كبير • وان اسوار نينوى مدعومة بابراج ضخمة تعلوها شرفات من الحجر • وكانت نينوى محاطة بخندق من ثلاث جهات الشمالية ، والشرقية ، والجنوبية حيث كان دجلة يحميها من الغرب ، وكان الماء يصل الى هذه الخنادق من مشروع سنحاريب الاروائي • وكانت بوابات الاسوار ضخمة وتشكل وسائل دفاعية مهمة • فبوابة شمش تحوي ابراجا وشرفات

وضمت بوابة ادد قاعة للحرس يتصل بها سلم وكان ارتفاع بوابة نرغال.
٢١٥ متر وطول واجهتها ٢٠٧٠ متر مع برجين جانبيين *

كانت بوابة المسقى تشرف على دجلة وفيها اربعة ابراج اثنان شمال
المدخل واثنان جنوبه والمسافة بين كل برجين حوالي ١٢٥ متر وعرض مدخل
البوابة ٨٠ متر وشيدت واجهتها فوق مصطبة حجرية مواجهة لدجلة
ويتوسط بوابة شمش مدخل عرضه ٤٥٥ متر وهي ذات ستة ابراج عرض
كل منها ٣٥٠ متر وتبرز عن السور ٢٢٥٠ متر وفي واجهتها برجان عرض
كل منهما ٥٠ متر ويتصل المدخل الشرقي للبوابة بالغربي بمر طوله ٦١
مترا مرصوفا بالحجر الى جانبه ثلاثة ازواج من غرف للحرس وخزن.
الاسلحة:

شيد شلمنصر الاول (١٢٨٠ - ١٢٦٠ ق م) مدينة عاصمة جديدة
لبلاد اشور هي كالح (نمرود الحالية) التي تقع اطلالها الان على بعد ٣٥ كم
جنوب شرق الموصل * وكان نهر دجلة الى الغرب منها وينعطف نحو الجنوب
الشرقي حيث يصب به نهر قادم من الزاب الاعلى * وقد ابتعد دجلة الان عن
كالح حوالي الكيلومتريين باتجاه الغرب وهي الاسهل منبسطة وشيد على
ضفة دجلة مسناة ارتفاعها عشرة امتار من الحجارة الكبيرة * وكانت كالح
محصنة بحصن مستطيل الشكل تخترقه ابواب ضخمة عدة * وقد اعاد
تعميرها الملك اشور ناصر پال الثاني (٨٨٤ - ٨٥٩ ق م) واتخذها عاصمة
له وشيد بها قصرا فخما في الزاوية الشمالية الغربية * كما حفر قناة سبها
بتلتيو تنقل الماء من الزاب الاعلى الى كالح طهرها فيما بعد اسرحدون .
وشيد ولده شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق م) اسوار المدينة وجدد
معابدها والمسناة على ضفة دجلة وشيد قاعدة عسكرية متكاملة متوسطة
الموقع ٣٠٠ × ٣٠٠ متر اطلق عليها اسم ايكال ماشرتي في زاوية المدينة
الجنوبية الشرقية لصق سور المدينة * وحوت هذه القاعدة قصرا ومخزن .

أسلحة وساحتين كبيرتين ومخازن طعام وخمر وساحة ثالثة الى غرب ساحة الاستعراض فيها مخازن واسعة * والى جنوب هذه البناية كان قصره الملكي المرتبط بساحة الاستعراض * كما شيد شلمنصر الثالث زقورة ومعبد مكرستين الى الاله نينورتا اله الحرب * وان اعمال هذا الملك تدل على ان كالح كانت عاصمة ملكية ومركزا عسكريا * وبنى اسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٩ ق م) في الجنوب الشرقي من المدينة قصرا يطلق عليه الاثاريون القصر المحروق وقربه معبد نبو وتشميتوم ، وفي وسط الجنوب الغربي هناك القصر المعروف بقصر الحاكم الذي ربما شيده الملك ادد نراري الثالث *

وبنى تجلات ييلزر الثالث قصر في الجنوب الغربي من المدينة ويرتفع هذا القسم عن سطح المدينة والسهل المجاور المحيط به حوالي عشرة امتار * وفي القسم الشمالي الغربي من المدينة كانت الزقورة والمعابد وقصور الملوك وافراد حاشيتهم وهو الجزء المعروف الان باسم تل نمرود * وفي جنوب حارة المعابد يقع قصر اشور ناصر پال الثاني يفصل بينهما شارع عام ويعرف القصر باسم القصر الشمالي الغربي * وان المنطقة الاولى مفصولة عن سائر اجزاء المدينة بسور طول ضلعه الشرقي والغربي حوالي ٧٥٠ متر والجنوبي الاصغر حوالي ٤٥٠ متر وربما حوت اجزاء القسم الشمالي من السور الشرقي المطلة على السهل ابراجا مثل سور المدينة الخارجي ، وفي القسم الجنوبي باب واسعة لممر وغرف حرس وفي الوسط شارع يمتد غربا الى داخل القصور بين القصر الجنوبي الشرقي وقصر الحاكم ويتجه شرقا الى حدائق المدينة والبيوت السكنية *

ان مدينة كالح مستطيلة الشكل بابعاد تصل في حدها الاعلى ١٢٥ ميل تقريبا وتبلغ مساحتها حوالي ٤ كم^٢ محاطة بسور سميك من اللبن محيطه ٨٠ كم ربما حوى ابراجا على مسافات نرى اثارها الان في المرتفعات الشرقية المتساوية الابعاد وبمحاذاة السور من الخارج خندق * وسور المدينة الغربي

متعرج تبعا لتعرجات ضفة دجلة وفي الغالب هناك مسناة على ضفة دجلة في الجنوب تشابه مسناة الجانب الغربي *

ابتنى سرجون الثاني الاشوري عاصمة جديدة له على الشاطيء الايسر من نهر الخوصر في موقع مكانا قرب مجرى ماء يرد من جبل اطلقت عليه المصادر الاشورية الاسم مصرى ومنطقة غنية بمواد البناء الجيدة ووسط ارض خصبة الى الشمال الشرقي من نينوى اطلق عليها اسم دور شروقين التي تقع اطلالها اليوم مقابل قرية خورصباد * وكرس سرجون المدينة قبل وفاته بسنة واحدة (٧٠٦ ق م) وكانت مساحة المدينة ميلا مربعا تقريبا ذات سور تخترقه بوابتان بكل جهة عدا الشمالية الغربية حيث عوض عن واحدة بمعقل حصين مشيد على واجهة سور المدينة واستعمل كقاعدة للمقر الملكي * وفي نهاية المدينة الجنوبية كانت قلعة تحمي المدخل من البوابة الخامسة وهي اهم البوابات وتمر بها الطرق القادمة من الجنوب * وقرب القصر عدد من البنايات الرسمية شيدت داخل سور القلعة ، ويواجه احدى البوابات جبل مقلوب وبوابتان ترتبطان بالطريق الرئيسي المؤدي الى نينوى * ويحيط بدور شروقين سور ضخيم عرضه ٢٥ متر ومحيطه ٧ كم تخترقه سبعة ابواب ذات حجرات سميت كل واحدة باسم احد الالهة الاشورية (انليل وثنليل في الضلع الشمالية الغربية ، شمش وادد في الضلع الشمالية الشرقية وانو وعشتار في الضلع الجنوبية الشرقية) وكلها متشابهة في مخططاتها * وهناك بوابتان داخليتان تؤديان الى القلعة الملكية التي يقع داخلها القصر الملكي على مصطبة مرتفعة تبرز نصفها تقريبا خارج اسوار المدينة باتجاه الشمال الغربي بينما نصفها الثاني داخل القلعة نفسها * والقصر واسع يحتوي على ١٧٠ غرفة وقاعات كثيرة وغرفة عرش و ١٨ ساحة ، كما شيد في جنوب المدينة مستودع الاسلحة (ايكال مسشارتي) الذي اعتبره سنحاريب مقره الملكي عندما كان وليا للعهد *

وكان القصر مركزا عسكريا وتشييدت ضمنه المعابد جميعها التي خصصت للالهة الاشورية نبو ، سين ، شمش ، نينغال ، نينورتا وايا ، واقيم معبد الاله نبو على دكه عالية غرب سور القصر الخارجي مع الزقورة ، وكانت زقورة دور شروقين ذات سبع طوابق + وقد فصل سرجون قصره الشمالي والمعابد عن المدينة بسور ذي بابين ، وهناك معبد في القسم المنخفض من دور شروقين خارج الضلع الشمالي الغربي من سور المدينة مكرس الى الاله سييتي ذي العلاقة بحظ البشر + وقرب معبد نبو هناك ثلاثة معابد صغيرة على جانب القصر الجنوبي الغربي احدها معبد الاله سين وزقورة هذه المعابد صغيرة +

والمدينة الملكية الاخرى كانت تريبصو (شريف خان الحالية الواقعة على بعد ٨ كم تقريبا عن الموصل وسط سهل خصب) مقر ولي العهد الاشوري زمن سنحاريب اضافة الى كونها مركزا دينيا تقدم به الاضاحي الخاصة بالملك الاشوري + وعثر في تريبصو على بناء كبير يحوي على قاعات عدة ربما كانت مغتسل (بيت رمقي) + وكانت تريبصو محاطة بخندق الى جانب سور ترابي نرى اجزاء منه باقية في شمال غرب الموقع وقد عثر في المنطقة التي سماها المنقبون ج بزاوية الموقع الجنوبية الغربية على معبد ضخيم للاله نرغال وعلى بناء واسع قد يكون هو مقر ولي العهد (بيت ريدوتي) ملحقا به المغتسل + ويفصل البناية الملكية عن المعبد شارع عريض يمتد على طول الجهة الشمالية الغربية من المعبد وفي المنطقة التي سماها المنقبون ب عثر على بناية في زاوية الموقع الشرقي وتشرف على السهل المجاور وبمستوى اعلى منه ذات ثلاث ساحات متجاورة مع غرف محيطة كانت في الغالب نقطة حراسة وثكنة للدفاع عن المدينة خاصة عن البناية والمعبد +

اتخذ سلوقس الاول (٣١٢ - ٢٨١ ق م) وولده انطيوخوس الاول (٢٨١ - ٢٦١ ق م) مدينة سلوقية على دجلة (رومية الاسكندر ،

الرومقان) عاصمة لهم • وتتمثل سلوقية على دجلة الان بتل عمر على ضفة
بجلة الغربية مقابل المدائن على بعد ٢٠ ميلا جنوب بغداد • وكانت سلوقية
ذات موقع مهم حيث تربطها قناة ملكا (قناة اليوسفية الحالية) بالفرات وتقع
بالمنطقة التي يقترب بها الفرات من دجلة وعلى بعد اميال قليلة من مصب
ديالى بدجلة • وكانت ملتقى القوافل القادمة من سواحل البحر المتوسط ،
الخليج العربي واسيا الصغرى الخ • ويظهر انها كانت مدينة كبيرة ذات
سكان متعددي الهويات والاديان حيث تحدثت المصادر السريانية عن كنائسها
ويذكر بلني الكبير (ربما يكون مبالغا) ان نفوسها زمانه كانت ستمائة الف نسمة •
وقد خططت سلوقية على هيئة شبكة مربعات حيث صفت بيوتها على طرقي
شوارع وطرقات مستقيمة ومتعامدة ، وقوام اسلوب التخطيط الشبكي
للمدينة هو شارعان رئيسان يتقاطعان في وسط المدينة بزواية قائمة يطلق على
الشارع الممتد من الشمال الى الجنوب اسم كاردو وعلى الثاني الممتد من
الشرق الى الغرب اسم ديكومانوس وتتفرع من الاثنين شوارع فرعية
عديدة • وقسمت المدينة الى حارات منتظمة ومتجانسة مستطيلة الشكل •
وقرب مركز المدينة كان السوق (الاغورا) وهو منطقة مستطيلة
الشكل واسعة (شارع مستقوف) مما يدل على اهميته • وامام السوق تل
شبه دائري ربما كان مسرحا والى الغرب منه الملعب ثم ساحة سباق العربات
فمجلس الشيوخ فالمحاكم فالبنائات الرسمية الاخرى وجميعها شيدت على
طول الشارع الرئيس للبلدة ، وفي الجنوب الشرقي كان ميناء سلوقية •
وعثر في الزاوية الشمالية الشرقية من تل عمر على معبد من فترة الاحتلال
الفرثي ومسرح صغير للطقوس الدينية ربما يعود الى الفترة السلوقية •
وقد تكون المنطقة المستطيلة الشكل حول المرتفعات عند تل عمر معابد •
كانت سلوقية محاطة من ثلاث جهاتها بسور دائري الشكل غير منتظم ،
وربما كان هناك جسر يربطها مع المدائن • وفي قسم المدينة الشمالي ما قد

يكون فبرا لامير أو مذبح كبير فقد ذكر اميانوس مارسيلينوس مشاهداته على الفرات عند مدخل قناة ملكا برجا عاليا يشبه المنار ، وفي جانب المدينة الشرقي هناك في الغالب معبد او قصر • وعثر في سلوقية على معابد مكشوفة تحيط بها ممرات ربما كانت محاطة بأبنية وكذلك على بنائه لحفظ السجلات الخاصة بمعبد ايولو في جنوب تل عمر • واشتمل القصر الكبير في سلوقية على عدة وحدات • كما وجدت في تل عمر بناية بخطة غير اعتيادية بين البرج المربع وسط التل والسور قد تكون معبدا او مصلى رئيس وربما معبد ايولو المعروف في سلوقية •

أن المدينة المدورة على ضفة دجلة اليمنى هي كوخة او سلوقية الجديدة التي تعود الى بداية فترة الاحتلال الساساني • وعثر المنقبون فيها على ما اطلقوا عليه اسم احياء اصحاب الحرف ويعود الى بدء حياة المدينة الجديدة هذه وترك سلوقية على دجلة •

وقد شيدت سلوقية الجديدة على موقع مقبرة فرثية بخطة اعتيادية وشاع في بيوتها طراز الايوان • ولم تكن شوارع سلوقية الجديدة بمستقيمة شملت على ساحات وامكن مكشوفة وترك الاسلوب الشبكي السابق الشبيه برقعة الشطرنج في البناء ، وكثرت دكاكين الحرفيين على جانبي الشوارع •

والمدينة العراقية الاخرى هي الحضر في شمال العراق الغربي على نهر الثرثار وجنوب غرب الموصل بحوالي ١١٥ كم • وكانت اشهر مركز للقبائل العربية في بادية الجزيرة الشمالية حيث شيدت معبدا ربما خلال فترة الاحتلال السلوقي وصارت عاصمة لمملكة عربية عرفت باسم عربايا ، وقد ساعد على قيام الحضر عوامل عدة منها وقوعها على طرق التجارة التي تربط العراق بسورية وموقعها الجغرافي وكثرة مراعيها ولمكائنها الدينية ووفرة مياه المطر والينابيع مما ساعد على ازدهار الزراعة في السهول والسهوب المحيطة بها • وقد حصنت الحضر تحصينا محكما فقد كانت مدينة مستديرة تقريبا بقطر

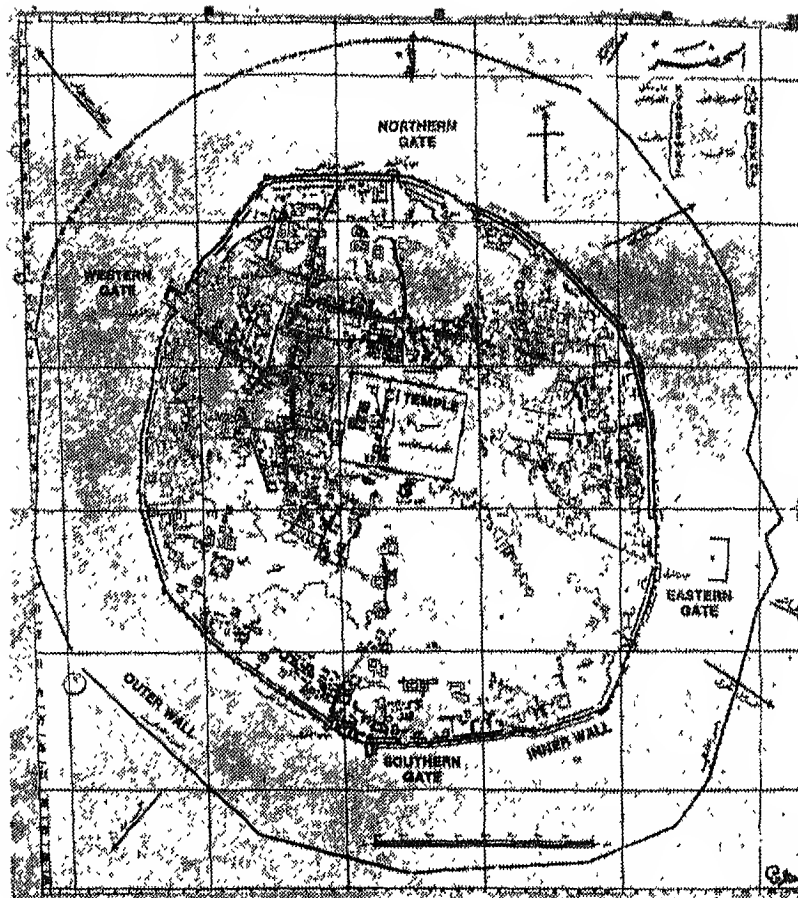
يبلغ حوالي الكيلومترين بسور داخلي مزدوج يفصل بينهما خندق * ويحوي السور الاول على ١٦٣ برجا وقطره ٨ كم وقطر السور الثاني ٦ كم وعرض الاول ثلاثة امتار والثاني ٢٥ مترا مشيد بالحجارة المهندمة ، والمسافة بينهما عند البوابة الشمالية اثناء عشر مترا واعتياديا حوالي نصف كيلومتر وهناك تعلية ترابية على بعد نصف كيلومتر من السور الداخلي قد يكون سورا خارجيا للحضر *

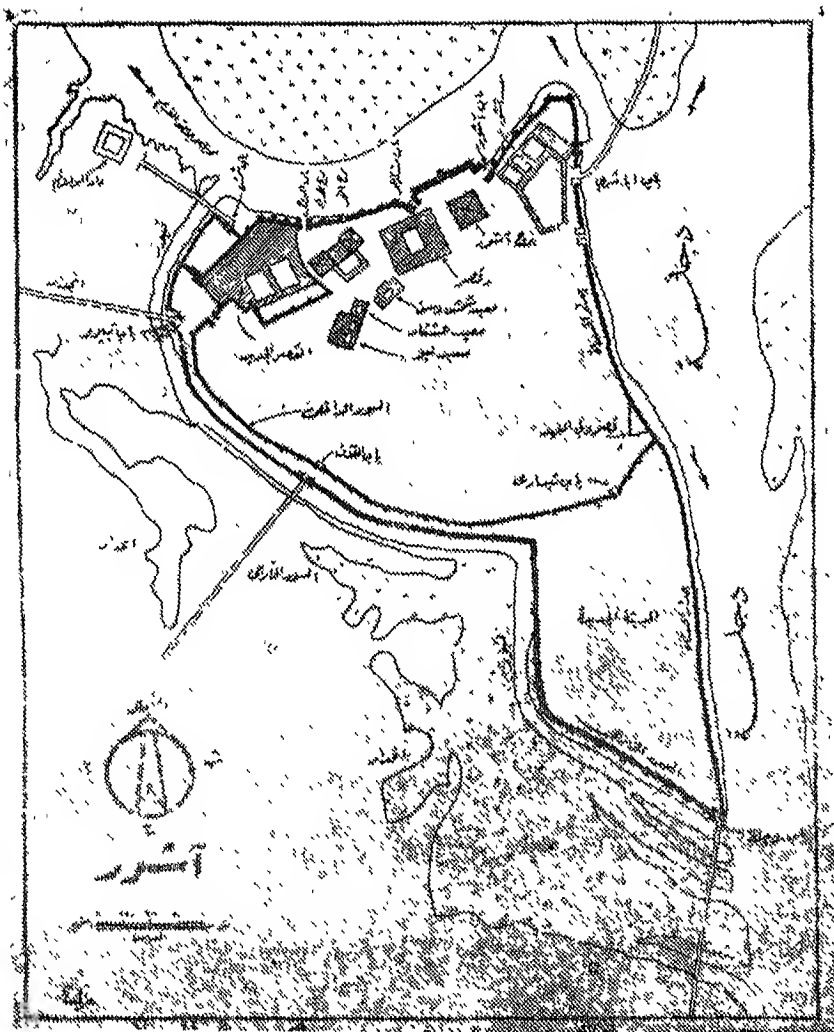
وكان سور الحضر تخترقه اربعة ابواب في الجهات الاربعة وشيد فوق الخندق بالمنطقة الشمالية قنطرة عرضها ٥ متر توصل الى الحضر * وكانت الشوارع تمتد من كل بوابة للمدينة تصل مركز المدينة حيث المعبد الرئيس * وحوت الحضر على معابد ثانوية عثر على احد عثر معبدا منها ، وفي القسم الشرقي من المدينة هناك مدافن وعند الباب الشمالي قصر واسع وبقسم المدينة الجنوبي الغربي كانت ساحة واسعة حوت بحيرة ، وحول كل هذه كانت الاحياء السكنية التي بلغت مساحتها حوالي ثمنائة دونم * ويقع المعبد الرئيس في وسط المدينة وله باب كبيرة في الجهة الشرقية وسبعة ابواب في جهاته الاخرى * وللمعبد سور طوله ٤٣٧٥ مترا وعرضه ٣٢٢٥ مترا مع جدار يمتد بين الجدارين الشمالي والجنوبي يفصل اهم المباني الواقعة في الجهة الغربية عن الساحة الواقعة في الجهة الشرقية * وقد كشف على معبد صغير للاله مرن (الاله الاب) امام المدخل الشمالي لصحن المعبد الكبير *

مراجع الفصل

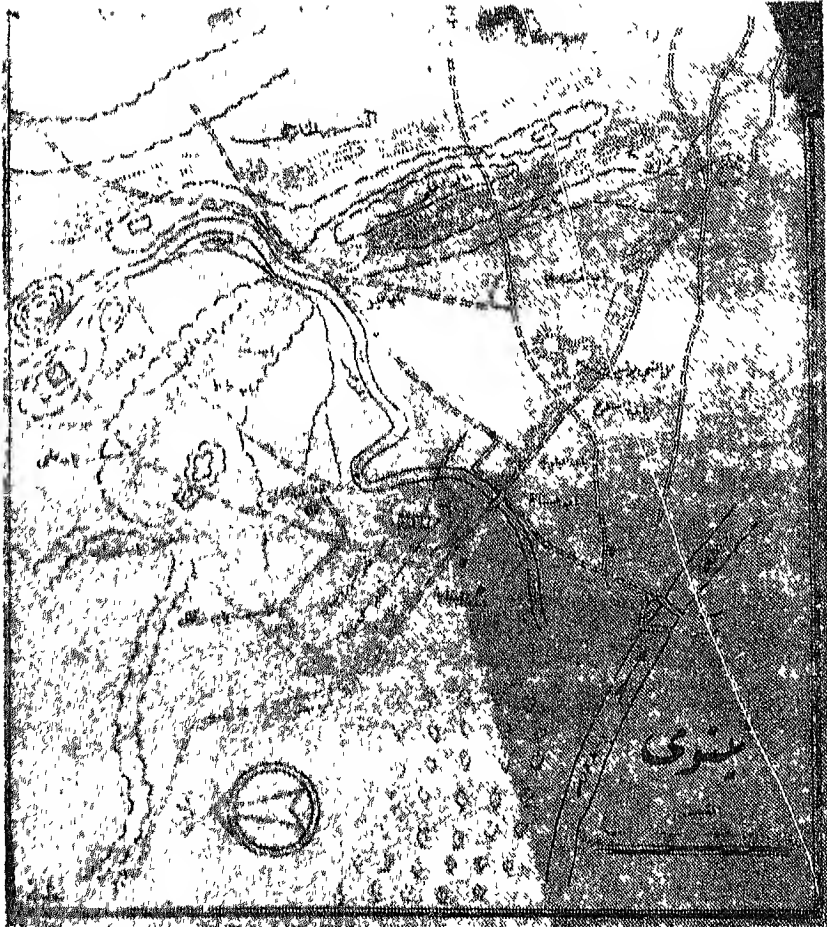
- ١ - Sami Said Ahmed, The Ancient City of Uruk Iraq, No.. 236 (1985).
- ٢ - Sami Said Ahmed, Kish, Iraq, No.. 247 (1985).
- ٣ - Sami Said Ahmed, Seleucia on the Tigris, Iraq, No. 240 (1985).
- ٤ - Sami Said Ahmed, Hatra, Archaeology, Vol. 25, No. 2, (1972) pp. 103-111.
- ٥ - Antonio Invernizzi, Ten years research in the Al-Madain area, Seleucia and Ctesifon, Sumer, Vol. 32 (1976). pp. 167 - 175 .
- ٦ - Eva Strommenger, Ur, (Munchen, 1964).
- ٧ - بحوث مجلة سومر المجلد ٣٥ ج ١ - ٢ (١٩٧٩) .
- ٨ - سيتون لويد ترجمة د . سامي سعيد الاحمد ، اثار العراق (بغداد ١٩٨٠) .
- ٩ - د . طارق مظلوم ، نينوى في ضوء التنقيبات ال اثرية (١٩٦٧ - ١٩٦٥) سومر مجلد ٢٣ (١٩٦٧) ص ١٣٥ - ١٤٠ .
- ١٠ - طه باقر ، عقرقوف (دور كوريكالوزو) (بغداد ، ١٩٥٩) .
- ١١ - د . عامر سليمان اكتشاف مدينة تريبصو الاشورية ، اداب الرافدين ، مجلد ٢ (١٩٧١) ص ١٥ - ٤٩١ .
- ١٢ - د . فرج بصره جي ، نمرود ، سومر مجلد ٨ ج ٢ (١٩٥٢) ص ١٩٦ - ٢١٣ .
- ١٣ - د . فرج بصره جي ، الوركاء ، سومر مجلد ١١ ج ١ (١٩٥٥) ص ٤٧ - ٥٩ .

- ١٤- فؤاد سفر ، اشور (بغداد ، ١٩٦٠) .
- ١٥- فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى ، الحضر مدينة الشمس (بغداد ، ١٩٧٤)
- ١٦- P.R. Moorey, Kish Excavations 1923-1933, (Oxford, 1978).
- ١٧- د . مؤيد سعيد ، العمارة من عصر فجر السلالات الى نهاية العصر البابلي الحديث ، حضارة العراق ج ٣ (بغداد ، ١٩٨٥) .
- ١٨- د . واثق اسماعيل الصالحي ، العمارة في العصر السلوقي والفرثي عمارة الحضر ، حضارة العراق ج ٣ (١٩٨٥) .
- ١٩- Sir Leonard Woolley, Ur Excavations, (New York, 1965).









الفصل السادس

الحياة الاجتماعية والخدمات في المدن العراقية في الازمنة التاريخية القديمة

**الدكتور عامر سليمان
استاذ التاريخ القديم
كلية الاداب – جامعة الموصل**

تمهيد :

شهدت القرى الزراعية الاولى التي نشأت في العراق القديم على شواطئ دجلة والفرات تطورا كبيرا خلال الالفين الخامس والرابع قبل الميلاد ، كما اشير الى ذلك في الفصول السابقة ، وغدا بعضها من المدن المهمة والمراكز الحضارية التي كان لها دورها المؤثر في نضوج الحضارة العراقية القديمة وبلوغها قمة ازدهارها في الفترة التالية . وحافظت بعض المدن على اهميتها الحضارية ومركزها السياسي او الديني لفترات طويلة من الزمن وتعاقب على السكنى فيها اقوام مختلفة . ومع ذلك ، ظلت محافظة على طابعها العراقي الخاص حتى غدا من الصعب على الباحث في الحضارة العراقية القديمة التمييز بسهولة بين اصول العديد من العناصر الحضارية اهي سومرية

ام اكدية ام غيرها مما يشير الى قدرة العراقيين القدماء الفائقة في استيعاب جميع العناصر الحضارية وصهرها في بودقة عراقية واحدة يطغى عليها طابع خاص مميز ، وان ذلك لا يتقاطع او يتناقض مع اصالة الحضارة العراقية .
اضافة الى ذلك ، فالمعروف ان العراق قد تعرض عبر العصور التاريخية الطويلة وحتى التحرير العربي الاسلامي الى غزو اقوام اجنبية عدة جاء معظمها من جهة الشرق بدءا من الاقوام الكوتية والعليلية والكشية وانتهاء بالاقوام الاخمينية والفرثية والساسانية ، وعلى الرغم من تسلط تلك الاقوام الغازية على المدن العراقية القديمة لفترات طويلة من الزمن ، الا انها لم تتمكن من التأثير على حضارتها وتغيير طابعها العراقي الخاص تأثيرا كبيرا بل انها على العكس من ذلك ، اخذت عن حضارتها وعاشت في ظلها كما تؤكد ذلك المكتشفات الاثرية الكثيرة ، وان ذلك يشير الى حقيقة واضحة هي قوة الحضارة العراقية القديمة واصالتها من جهة والى ان الاقوام الغازية كانت اقل حضارة من العراقيين القدماء من جهة ثانية .

والحياة الاجتماعية ، بعاداتها وتقاليدها وقوانينها ، من اكثر المظاهر الحضارية التي حافظت على سماتها العراقية العامة دون ان تتأثر بما قد يطرأ على المدن من تغيرات سياسية او تأثيرات اجنبية ، ولاسيما ابان الغزو الاجنبي لها ، بل ان بعض تلك السمات ظلّ يميز العادات والتقاليد السائدة حتى يومنا هذا ، كما تشير الى ذلك اية مقارنة بسيطة بين ما كان سائدا من عادات وتقاليد الزواج مثلا وما هو سائد ومعروف لدينا الآن ولاسيما في الاوساط الشعبية . ومع ذلك ، ونظرا لطول الفترة الزمنية التي استغرقها تاريخ العراق القديم وتباين المناطق والاقاليم ، فقد كان لكل فترة من الفترات ولكل منطقة من المناطق خصوصيتها وسماتها ولكن ضمن اطار الحضارة العراقية العام .

ان الحديث عن الحياة الاجتماعية في أي عصر من العصور هو في الواقع ، من امتع الاحاديث واكثرها واقعية والتصاقا بالنفس طالما انه حديث يعني حياة الافراد والجماعات وعلاقاتهم بعضهم ببعض . ولرسم صورة تقريبية عن الحياة الاجتماعية في المدينة العراقية القديمة ، لدينا العديد من المصادر الاصلية التي تزودنا بمعلومات وافية وغزيرة عن ذلك تأتي في مقدمتها القوانين المدونة والعادات والتقاليد والاعراف التي كانت سائدة مما تعكسه النصوص المسمارية المختلفة التي كشف عن عشرات الالاف منها حتى الان . اضافة الى ذلك ، فقد تم الكشف عن اثار مادية امتدنا بمعلومات مهمة عن الحياة الاجتماعية من ابنية عامة وبيوت سكنية واثاث منزلية والات وادوات وتمائيل ومسلات ومنحوتات جدارية مملوءة بمشاهد من الحياة العامة وغيرها مما يعكس لنا جوانب من الحياة الاجتماعية . ومع كثرة المصادر وغزارة المعلومات المتوفرة الا انها غير موزعة على جميع الفترات والعصور بشكل متوازن ، كما نتمنى ان تكون ، كما انها لا تخص جميع المدن في العراق ، فقد تتوافر معلومات جيدة عن فترة من الفترات ، كفترة العصر البابلي القديم مثلاً، وقد تقل او تنعدم احياناً بالنسبة لفترة اخرى اما لاسباب عضوية ناتجة عن عدم اكتشاف مدينة من المدن او ناتجة عن ندرة فعلية في المصادر بسبب تعرض هذه المدينة او تلك لغزو اجنبي كان من نتائجه التدمير والتخريب والاحراق لكل ما كان موجوداً في المدينة . وحيث ان معظم المعلومات المتوفرة لدينا عن الحياة الاجتماعية ترقى بتاريخها الى العصر البابلي القديم (حدود ٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق م) لذا ان الحديث سيركز على هذه الفترة بالذات خاصة وانها تتوسط فترتين مهمتين ، اخذت عن الاولى منهما ، وهي الفترة السومرية - الاكدية ، الكثير من العادات والتقاليد والقوانين ، واعطت للثانية ، وهي الفترة التي حكمت فيها السلالة الكشية في بلاد بابل والدولة الاشورية في عصرها القديم في بلاد اشور ، نظاماً اجتماعياً متكاملًا متمثلاً بالقواعد القانونية التي وردت في قانون حمورابي

وغيره من القوانين البابلية . كما ان فترة العصر البابلي القديم تعد ، من جانب اخر ، من الفترات المضيئة والمزدهرة ربما بسبب توافر المعلومات الكثيرة عنها . غير ان التركيز على هذه الفترة لا يعني اهمال الفترات الاخرى بل اننا سنشير لها كلما دعت الحاجة الى ذلك وتوافرت المعلومات اخذنا بنظر الاعتبار طبيعة هذا البحث الموجزة .

القوانين والاصلاحات الاجتماعية :

عرف بعضهم القوانين بانها « مجموعة القواعد التي تنظم الروابط الاجتماعية والتي تقصر الدولة الناس على اتباعها ولو بالقوة عند الاقتضاء » . ولعل هذا التعريف يوضح اكثر من غيره اهمية القوانين في دراسة الحياة الاجتماعية في اي مجتمع من المجتمعات قديمها وحديثها . وطالما ان مهمة القوانين الاساسية هي تنظيم الروابط الاجتماعية ، فان وجودها يرتبط بوجود المجتمعات المنظمة التي قطعت مرحلة البدائية في حياتها وتنظيماتها . ولقد برز العراقيون القدماء في مجال التشريع القانوني وكانوا السباقين في تدوين القواعد القانونية التي كانت تحكم حياتهم فخلفوها لنا بصيغة قوانين مدونة تعد الان اقدم القوانين المدونة المعروفة في العالم حيث سبقت جميع القوانين القديمة الاخرى بقرون عدة . كما ان القوانين العراقية المكتشفة والتي ترقى بتاريخها الى اواخر الالف الثالث ومطلع الالف الثاني قبل الميلاد ما هي في الواقع الا مرحلة متطورة وناضجة من صيغ العلاقات والروابط الانسانية الاجتماعية والاقتصادية وغيرها لا بد ان سبقتها مراحل اخرى . كما ان غياب القوانين المدونة في الفترة السابقة مع وجود دلائل ثابتة على تطبيقها بصورة وثائق قانونية يؤكد اصالة القوانين العراقية القديمة وامتداد جذورها الى عصور موعلة في القدم وربما سبقت ظهور وسيلة التدوين نفسها .

لقد سبق القوانين المدونة المكتشفة من حيث الفترة الزمنية النشاطات الاجتماعية والاقتصادية التي قام بها آخر حكام سلالة لجتش ، المدعو اوروانيم جينا (اوروكاجينا) في القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد وعرفت باصلاحات اوروانيم جينا ، وهي اقدم اصلاحات اجتماعية معروفة في العالم قاطبة . لقد ذكرت هذه الاصلاحات في نص سومري عثر على ثلاث نسخ منه وبينت تفصيل الاوضاع الفاسدة التي آلت اليها لجتش قبل نولي هذا الحاكم الحكم فيها حيث كان « جياة وموظفو الحاكم يبتزون الاموال من الناس بشتى الوسائل ، وكانت ثيران الالهة تحرث مساحات البصل التابعة للحاكم وكانت حقول بصل وخيار الحاكم تقع في احسن حقول الالهة . » كما شملت الضرائب التي فرضها الحاكم مختلف اوجه الحياة وحتى بعد الممات حيث فرضت ضريبة للدفن . كما يشير النص الى المفاسد الاجتماعية التي انتشرت في البلاد فاصبح القوي يعتدي على الضعيف ويسخره للعمل دون مقابل . ثم يستطرد النص بعد ان يذكر تفصيل ذلك قائلا : « هذه هي الاساليب التي كانت سائدة في الايام السابقة » ، ولكن عندما منح الاله نجرسو ، محارب الاله انليل الاول ، ملوكية لجتش الى اوروانيم جينا ، وامسك بيده من بين الجموع ، التي تؤلف سكان المدينة ، تمسك اوروانيم جينا بالكلمة التي قالها له نجرسو « فمنع الرجل المسؤول عن اصحاب القوارب من الاستيلاء على القوارب ولم يعد هناك جابي ضرائب من حدود نجرسو الى حدود البحر » كما خفض الضرائب المفروضة على الناس . . . وخصص جرايات دائمة لاصناف من الكهنة واصحاب الحرف وبعض العمال . . . » ثم وضع بعض القواعد القانونية ذات المفعول الدائم منعا لاستغلال الضعيف . كما قام اوروانيم جينا باطلاق الحريات للمواطنين الذين وقعوا تحت طائلة الديون والضرائب المتراكمة حيث يذكر بانه اطلق حرية من كان مقيدا بسبب دين او ضريبة او غرامة بسبب سرقة او قتل . وفي احدى النسخ

الآخري ، ذكرت بعض العقوبات التي فرضت على المجرمين ، « فكان السارق يرجم بالحجارة التي (كتبت عليها) نيته (الشريرة) » (اما) الممتلكات المفقودة (عندما يعثر عليها او تستعاد من السارق) فكانت تعلق على الباب الكبير (حيث يمكن ان يطالب بها صاحبها الشرعي) » ثم يذكر انه « اعتادت المرأة في الايام السابقة ان تأخذ زوجين » (ولكن اذا حاولت المرأة ذلك اليوم ، كانت ترحم بالحجارة (التي كتب عليها سوء) نيتهما » .

وعلى الرغم من ان هذه الاصلاحات لا تؤلف قوانين كالقوانين المكتشفة في العراق القديم ، الا انها بلا شك تمثل اقدم محاولات الحاكم والملوك نحو اصلاح الاوضاع الاجتماعية وتنظيم العلاقات التي تربط افراد المجتمع ومنع الاستغلال وسوء استخدام الوظيفة والى غير ذلك من الاصلاحات الاجتماعية .

ويبقى قانون اور - نمّو (٢١١٣ - ٢٠٩٥ ق م) ، مؤسس سلالة اور الثالثة ، اقدم القوانين المدونة المعروفة في العالم . وقد ضم القانون بين مواده المعروفة ، مواد خاصة بتنظيم الاحوال الشخصية وهروب الرقيق والاعتداء على الاشخاص وشهادة الزور مما له علاقة بالحياة الاجتماعية . وتكمن اهمية هذا القانون اضافة الى كونه اقدم القوانين المكتشفة ، انه دون باللغة السومرية وتضمن قواعد واحكاما سومرية تختلف عن تلك التي نجدها في القوانين البابلية التالية ، فلم يأخذ قانون اور - نمو بحالته الراهنة بمبدأ القصاص الذي اخذت به القوانين البابلية مثلاً بل نص على اتباع مبدأ التعويض المادي فقط .

اما قانون لبّت - عشتار ، فيأتي بعد قانون اور - نمّو من حيث الفترة الزمنية وهو الآخر مدون باللغة السومرية ويرقى تاريخ اصداره الى القرن العشرين قبل الميلاد ، حيث اصدره خامس حكام مدينة ايسن المدعو

البّت - عشتار الذي حكم في الفترة ١٩٣٤ - ١٩٢٣ ق م ، وهي المدينة التي ورثت سلالتها الحاكمة سلالة اور - نمّو في اور .

امكن التعرف على اجزاء من هذا القانون مدونة على لوح من الطين مهشم الى ثلاث قطع ، ويبدو ان القانون بهيئته الكاملة كان يضم ثلاثة اضعاف المواد المعروفة الآن ، ويمثل اللوح الطين نسخة من القانون الاصلي الذي كان قد دون على مسلة من الحجر ووضع في المعبد الرئيس في المدينة ، كما يستدل على ذلك من نص خاتمة القانون . ويتألف النص حالياً من مقدمة وخاتمة تتوسطهما ثمان وثلاثون مادة قانونية ، اي ان القانون بشكله الكامل كان يضم اكثر من مائة مادة .

تضمنت المقدمة تمجيذاً للالهة السومرية ولاله المدينة الرئيس الذي اختار لبّت - عشتار الراعي الحكيم ، لنشر العدل في البلاد والقضاء على السكاوي والعداوة بقوة السلاح ولجلب الرفاهية لابناء سومر واكد ، فقام لبّت - عشتار ، ذو الصفات الرفيعة والنبيلة ، امثالاً لرغبة الالهة وتنفيذاً لارادتها بنشر العدل في البلاد فجعل « الوالد يساعد اولاده والاولاد يساعدون والدهم » ، « واعطى الحرية لابناء وبنات ايسن وابناء وبنات سومر واكد » ، ثم تشير الخاتمة الى انجازات لبّت - عشتار في مجال نشر العدل والحق والقضاء على البغضاء والعنف وتحقيق رفاهية البلاد . وعالجت مواد القانون ، فيما له علاقة بالحياة الاجتماعية ، العقوبات الخاصة بالسرقة وهروب الرقيق والاعتداء على الاشخاص في حين خصصت اربع عشرة مادة لمعالجة الاحوال الشخصية مما له علاقة بالارث والزواج للمرة الثانية . والخطوبة والزنا وغير ذلك .

ويعد قانون اشنونا ، المنسوب الى مملكة اشنونا في منطقة دياللي ، اقدم القوانين المدونة باللغة الاكدية واكثرها مواد بعد قانون حمورابي ، ويسبق قانون حمورابي زمنياً بما يقرب من مائة سنة وقد تم الكشف عن

نسختين منه مدونتين على لوحين من الطين في موقع تل حرملة
القريب من بغداد .

يضم القانون مقدمة قصيرة ، هي عبارة عن تاريخ احدى سنوات حكم
ملك من ملوك اشنونا ، وستين مادة قانونية تضمنت مواضيع اقتصادية
 واجتماعية مختلفة . وقد خصص القانون خمس عشرة مادة لمعالجة الاحوال
 الشخصية اضافة الى المواد الاخرى ذات العلاقة بالحياة الاجتماعية كالسرقة
 وهروب الرقيق والايذاء واضرار العجماوات . وتناولت المواد الخاصة بتنظيم
 الحياة الاجتماعية جوانب مختلفة من الخطوبة والزواج والطلاق والزواج
 للمرة الثانية بالنسبة للرجل والمرأة والخيانة الزوجية والاغتصاب والزنا
 والتبني والارث وغيرها من الاحكام ذات العلاقة بالاحوال الشخصية . غير
 ان القانون لم يعالج ، كبقية القوانين العراقية القديمة ، جميع ماله علاقة
 بالاحوال الاجتماعية بل انه تطرق الى حالات معينة ربما لانها كانت ، في
 نظر المشرع القديم ، اكثر اهمية او بحاجة الى تعديل او تثبيت او تغيير .

اما قانون حمورابي ، فهو بحق اكمل وانضج القوانين العراقية المكتشفة
 حتى الان ، ويظل محور الدراسات التاريخية والقانونية الكثيرة التي ظهرت
 وتظهر بمختلف اللغات العالمية ، وهو القانون الوحيد الذي وصلنا بصيغته
 الاصلية مدوناً على مسلة من الحجر الديوريدي الاسود باللغة الاكدية وخطها
 المسماري ، وقد تضمنت مواده القانونية ٢٨٢ مادة تقريباً اضافة الى المقدمة
 والخاتمة . وكان حمورابي قد اصدر القانون في السنوات الاخيرة من
 حكمه ، بعد ان وحد جميع المدن العراقية في دولة مركزية واحدة ، وحكم
 حمورابي في الفترة من ١٧٩٢ الى ١٧٥٠ قبل الميلاد .

وكعادة الملوك القدامى ، ادعى حمورابي في مقدمة قوانينه ان الالهة
 العظام دعتة لنشر العدل في البلاد حتى يقضي على الشر والخبيث ولكي لا
 يستعبد القوي الضعيف ولكي يعلو كالشمس فوق ذوي الرؤوس السود

«ولكي ينير البلاد» ثم يستعرض حمورابي بكل فخر القابه واعماله وانجازاته العسكرية والعمرانية • ويتبع المقدمة نص المواد القانونية تليها الخاتمة التي اقتضت في حديثها على القوانين نفسها ، شرعيتها ونسبتها الى حمورابي مع بيان اهدافها وكيفية الاستفادة منها والتأكيد على مراعاتها وعدم الاخلال بها ومن ثم ازال اللعنات على كل من يحاول تخريبها او نسبتها لنفسه • فيذكر حمورابي بعد ذكر صفاته ومؤهلاته وقابلياته انه في سبيل أن : « لا يظلم القوي الضعيف ، ولمنح العدالة لليتيم والارملة في بابل ، ولاطبق قانون البلاد ولاتخذ القرارات في البلاد ولامنح العدل للمظلومين، كتبت كلماتي القيمة على مسلتي وثبتهم امام تمثالي (المسمى) (ملك العدالة) أنا الملك البارز بين الملوك ، كلماتي مختارة وقدرتي ليس لها مثيل بارادة الاله شمش قاضي السماء والارض العظيم ، عسى ان تسود عدالتي البلاد...دع كل مظلوم وله شكوى ان يذهب امام تمثالي (ملك العدالة) ومن ثم يقرأ الكتابة على مسلتي ويستمع الى كلماتي القيمة، فعسى أن توضح له مسلتي الشكوى وعسى ان يفهم شكواه وعسى أن يرتاح فؤاده ويقول : حمورابي السيد الذي هو والد الشعب الحقيقي ، قد صدح الان بكلمة الاله مردوخ سيده وحقق رغبة مردوخ من الشمال الى الجنوب ، واسعد قلب مردوخ سيده وجلب الرفاهية للناس الى الأبد ومنح العدالة للبلاد ، دعه يعلن هذا ودعه يصلي من اجلي بكل قلبه للاله مردوخ سيدي وصربايتم سيدتي » •

بعد ذلك ، يبدأ حمورابي بالدعاء الى الالهة من اجل الملوك الذين سيأتون بعده ويطبقون قوانينه وينشرون العدل في البلاد ثم ينزل لعناته ولعنات الالهة على كل من يتجاهلها •

اما متن القوانين ، فقد تضمن ما يقرب من ٢٨٢ مادة كان حمورابي قد اختارها من بين القواعد والاحكام القانونية السائدة في عصره وصاغها صياغة جديدة موحدة تنسجم وظروف الدولة البابلية التي اسسها والتي

تميزت بوحدة القطر السياسية وسيادة القانون على جميع المواطنين دون استثناء . ويبدو ان حمورابي قد ضمن قوانينه تلك المواد التي كانت بحاجة الى تثبيت او تعديل او تغيير في حين هناك قواعد قانونية كثيرة اخرى لم تثبت في متن القوانين . ومهما يكن من امر ، فقد خصص حمورابي جزءاً كبيراً من مواد قانونه الى تنظيم العلاقات الاجتماعية بين افراد المجتمع ووضع الضوابط والاحكام الصارمة على كل من يخرج عنها او يسيء اليها ، وقد غالى احياناً في ازالة العقوبات القاسية بحق كل من يعيث بامن المواطنين وسلامتهم او يظلم الضعيف منهم ، فحق بذلك لحمورابي ان يفخر ويقول انه نشر العدل والحق في البلاد . ان استعراض سريع لمضمون المواد القانونية يبين بوضوح ان حمورابي خصص اكثر من ستين مادة قانونية لتنظيم الاحوال الشخصية في حين تناولت المواد الخمس الاولى قضايا خاصة بالقضاة والمحاكم وشهادة الزور وهناك حوالي عشرين مادة اخرى خاصة بالجرائم التي تقع على الاموال كالسرقة واللصوصية وايواء الرقيق الابقين ، اضافة الى ذلك هناك تسع عشرة مادة خاصة بعقوبات الايذاء واربع اخرى خاصة بطبقة العبيد . وهكذا يتضح اهتمام المشرع بالحياة الاجتماعية وتنظيمها ووضع العقوبات الصارمة على كل من يحاول الاضرار بنظامها .

اما القوانين الاشورية الوسيطة والتي ترقى بتاريخها الى الفترة الواقعة بين ١٤٥٠ و ١٢٥٠ ق م ، فقد خصص اللوح الاول منها ، وهو اللوح الوحيد الذي يمكن قراءة مواده بصورة كاملة ، جميع مواده لتنظيم الروابط الاجتماعية والاحكام والقواعد الخاصة بالجرائم التي ترتكبها النساء وتلك التي ترتكب ضد النساء . وسنحاول الاشارة الى بعض نصوص المواد القانونية من خلال الحديث عن الروابط الاجتماعية والاحوال الشخصية بصورة عامة .

التكوين الاجتماعي :

تطرت القوانين العراقية القديمة ، وعلى وجه الخصوص قانون حمورابي ، الى طبقات وفئات المجتمع العراقي القديم عرضا كما اشارت الى ذلك بعض الوثائق اليومية والقانونية الاخرى . ومن خلال ما ورد في هذه النصوص يبدو ان مجتمع المدينة العراقية في العصور القديمة كان على درجة كبيرة من التنظيم والتعقيد استوجبت اصدار قوانين تفصيلية لتثبيت القواعد والاحكام التي تحدد الروابط الاجتماعية وتنظمها وكما سبقت الاشارة الى ذلك . وكان المجتمع بصورة عامة يتألف ، كغيره من المجتمعات القديمة والحديثة ، من فئات وشرائع اجتماعية متعددة منها الحاكمة والمتنفذة او المسيطرة ومنها المحكومة التي لم يكن لها نفوذ او سلطان بل كان عليها تنفيذ الاوامر حسب . اضافة الى ذلك ، ضمت المجتمعات القديمة عامة طبقة خاصة من المملوكين ، اي العبيد .

وتأتي الاسرة الحاكمة او المالكة في مقدمة المجتمع العراقي القديم، وكانت تحتل مركزا مقدسا في نظر وثقوس العراقيين القدماء ، ولم يرق الملوك الى مرتبة الالهية التي وصل اليها فراعنة مصر ، ومع ذلك هناك من يرى ان بعض ملوك الفترات المبكرة الهوا أنفسهم ، كالملك الاكدي نرام - سين مثلا . وكان ينظر الى الملك بانه ممثل الالهة على الارض ونائبها فيها لذا هو يحمل وظيفة الهية مقدسة، وهي وظيفة الملك، منحته اياها الالهة ليسوس بها الناس ، وقد تجاوز بعض الملوك هذا الحد وادعى قرابته الى الالهة عن طريق التبني ليزيدوا من احترام وتقديس الناس لهم . وكانت واجبات الملك كثيرة ومتنوعة منها الدينية ومنها الدنيوية ، ويعاونه في اداؤها جمع ضخم من كبار الموظفين المملوكين ، كما اشرك بعض الملوك ابناءهم في ادارة شؤون مملكتهم وعينوهم نوابا لهم او حكاما في بعض المقاطعات والاقاليم التابعة للمملكة . وطبيعي ان حياة الاسرة المالكة كانت تختلف تمام الاختلاف عن

حياة عامة الناس ، فقد عاشت في قصور فخمة مزودة بجميع وسائل الراحة المتيسرة آنذاك ، وكان يقوم على خدمتها اعداد كبيرة من الخدم والحاشية والعبيد من الذكور والاناث وضمت القصور الملكية المئات من الخدم والندماء والعاملين على اختلاف اصنافهم . اما تفاصيل حياة الاسرة المالكة ، فمعلوماتنا عنها قليلة نسبياً ومستمدة بالدرجة الاولى من المخلفات المادية كالقصور وما فيها من مرافق واثاث في حين لم تردنا مشاهد او نصوص خاصة بحياة الاسرة المالكة على غرار مانجده في التاريخ المصري . وكان مقر اقامة الملك ، او الحاكم ، يسمى القصر ، واصبح المصطلح يعني مقر الدولة بصورة عامة .

ويلي الاسر المالكة ، او الحاكمة ، فئات عدة تؤلف بمجموعها الطبقة المتنفذة في المدينة وقد ضمت الى جانب الامراء واصحاب الاقطاعات الكبيرة، قادة الجيش وضباطه وكهنة المعابد وكبار موظفي الدولة من حكام مناطق وقضاة واطباء وكتبة ومفتشين ومراقبين وغيرهم من الموظفين . كما ضمت هذه الطبقة جميع المتنفذين سياسيا او اقتصاديا او دينيا من تجار وصناع واصحاب رؤوس اموال . وطبيعي ان حياة هذه الفئات كانت مرفهة نسبياً فقد وفرت لها مراكزها الاجتماعية او امكاناتها المادية العيش في بيوت فخمة مؤثثة باثاث مريح ومزودة بمختلف وسائل الراحة كما كان يعمل في معظم بيوت الاسر المرفهة هذه عدد من الاماء والعبيد لخدمة افراد الاسرة وتوفير الراحة لهم .

وكان للكهنة وبعض اصناف القوات المسلحة والتجار امتيازات خاصة اشارت اليها القوانين مما يضعهم في مركز اجتماعي متميز . اضافة الى ذلك، عاش الكهنة بصورة عامة معتمدين على واردات المعبد الكثيرة التي كانت تنهل عليه من جهات مختلفة الى جانب ما كان يجنيه المعبد من ارباح كثيرة من خلال نشاطاته الاقتصادية .

اما بقية سكان المدينة ، وهم عامة الناس باستثناء طبقة العبيد ، فهم صغار التجار والكسبة والباعة والاجراء واصحاب الحرف والصناعات اليدوية والعاملين في الحقول والبساتين والمزارع وغيرهم من ذوي الدخول القليلة . وكانت هذه الفئات تعيش حياة بسيطة في بيوت صغيرة ، او ما يشبه الصرايف ، وتعتمد اساسا : على جهدها اليومي لتوفير معيشتها ، وغالبا ما كانت تقع تحت طائلة الدين ، لاسيما في فترات الازمات الاقتصادية التي تمر بالبلاد نتيجة الجفاف . او غيره مما كان يدفع الملوك والحكام الى اصدار مراسيم خاصة لتخفيض نسب الفائدة والغاء بعض الديون والبيوعات التي اضطر اليها اصحاب الاملاك الصغيرة .

وكانت بعض الحرف والصناعات الشائعة في المدن العراقية القديمة ، وخاصة تلك التي تحتاج الى مهارة خاصة وتدريب طويل ، مقصورة ومحصورة في اسر محدودة احتفظت باسرار حرفتها لنفسها فكانت الحرفة تنتقل بالتدريب الطويل من الاب الى الابن ، وفي حالات معينة ، كان صاحب الحرفة يتبنى له صبيا او اكثر ويعدهم كاولاده بغية تعليمهم حرفته ومن ثم الاستفادة منهم في مستقبل الايام . ويبدو ان اصحاب الحرفة الواحدة كانوا ينظمون فيما يشبه النقابات المهنية تماما كما كانت عليه الحرف في مطلع القرن الحالي في المدن العراقية الحديثة وكأن يرأس كل حرفة او صنعة اكثر المتتمين لها شهرة ونفوذا واحسنهم سمعة ، وكان اصحاب الحرفة الواحدة يحتكمون اليه في فض المنازعات والخلافات التي قد تنشأ بينهم وربما قام ايضا بدور الوسيط بينهم وبين السلطة . ولا يعرف بالضبط هل كان اصحاب الحرفة الواحدة يعملون في اسواق مخصصة ام انهم كانوا ينتشرون في المدينة ام انهم كانوا يقومون باعمالهم في بيوتهم ومن ثم يعرضون منتجاتهم في الاسواق . ويبدو ان النساء كن يشاركن في بعض الحرف اليدوية ولاسيما تلك التي تتطلب الصبر والاناة والدقة في العمل كالحيكة والنسيج والخياطة

والتطريز * وكان للمعابد ، وخاصة في الفترات المبكرة ، نشاط ملحوظ في المجال الاقتصادي حيث ضمت بعض المعابد مشاغل عديدة عمل فيها الرجال والنساء والصبيان من الاحرار اضافة الى الكهنة والعييد التابعين للمعبد، وقد ذكر بين مشاغل المعابد مشغل النحات والصائغ والنجار وصانع الجلود والخياط والخزاف وغيره *

وكان الرقيق يؤلف الفئة الدنيا من فئات المجتمع وكانت اقلها حظاً من جميع الواجه الاجتماعية والاقتصادية * ولم يكن الرقيق يؤلفون نسبة كبيرة من سكان المدينة في الفترات الاولى من تاريخ العراق القديم ثم زاد عددهم تدريجياً بازدياد الحروب والمعارك العسكرية ومن ثم زادت اعداد الاسرى الذين آلت اليهم حالة الاسر الى العبودية * وكان عدد الاناث من الرقيق في الفترات الاولى اكثر من عدد الذكور نظراً لفائدة الاناث المزدوجة كعاملات وخادمات وكمحضيات او سرايا ، وكان يؤتى بهن من الاقاليم المجاورة ، ولاسيما الجبلية كما تشير الى ذلك العلامة الصورية المستخدمة للدلالة على كلمة أمة او عبد ، عن طريق الشراء * ثم زاد عدد الذكور نتيجة الحروب الكثيرة واسر جند الاعداء ، كما كان التجار البابليون يجلبون العديد احياناً من بلدان مختلفة بهدف بيعهم ، وكانت اسعارهم تختلف من فترة الى اخرى وتعتمد على جنس الرقيق وشكله وقابلياته واوصافه العامة والخاصة * ولم يقتصر مصدر الرقيق على الخارج فقط ، فقد كان يؤول حال بعض الافراد الاحرار من ابناء المجتمع الى العبودية اما نتيجة وقوعهم تحت طائلة الدين او لارتكابهم بعض الجرائم التي نص عليها القانون وحدد عقوبتها بالاستعباد او لولادة بعض الاطفال غير الشرعيين ورميهم والتخلص منهم * كما كان عدد الرقيق يتزايد نتيجة التناسل حيث كان اولاد الرقيق يعدون رقيقاً بالولادة *

وكان الرقيق من ممتلكات مالكة ، له الحق بالتصرف به كيفما شاء ، ولم يكن الرقيق ينتسب الى ابويه بل كان يذكر اسم مالكة وربما كان يعلم بعلامة خاصة بالعبودية على يده او باسلوب قص شعره ، كما اشار الى ذلك قانون حمورابي . وكان يباع بموجب عقد محرر وتنتقل ملكيته ، كأى شيء آخر ، الى المالك الجديد . ولم تعترف القوانين بكامل اهلية الرقيق القانونية بل عدته قاصراً ومنعت التعامل التجاري معه . ومع ذلك ، لم يكن الرقيق يختلف عن مالكة من حيث اللون او الجنس او الدين او الزبي الا اذا كان يحمل علامة خاصة . وعلى الرغم من وضع الرقيق السيئ ، فقد كانت له بعض الحقوق ، فكان له حق الزواج الشرعي وتكوين عائلة وامتلاك الاموال والتمتع بها طوال حياته كما كان من الجائز للعبد ان يتزوج من امرأة حرة وبالعكس كان من الجائز للامة ان يتزوجها رجل حر ، ففي الحالة الاولى ، كان الاولاد الناتجين عن الزواج يعدون احرارا اما في الحالة الثانية ، فان اعترف صاحب الامة او سيدها ببنوة الاولاد ، عندها يصبحون اولادا شرعيين لا يختلفون عن اولاده الآخرين ، وبعد وفاة الاب تمنح الحرية للام كذلك . وعاقبت القوانين كل من يعتدي على الرقيق . ويبدو ان مركز الرقيق كان في تحسن مستمر حيث اصبح لهم في العهود الاشورية والبابلية الحديثة مركز قد يفوق احيانا مركز بعض الاحرار ، فكان بإمكان بعضهم ان يتقلد الوظائف الحكومية وان يمتلك الاموال الخاصة وان يتفق مع مالكة على افتداء نفسه وشراء حريته باموال يجنيها هو نفسه من خلال عمله في احدى الحرف وكان في مثل هذه الحالات يتفق مع مالكة على مبلغ معين يدفعه له باقساط شهرية . الى ان يتم شراء نفسه ، وكان له ان يسكن في بيت خاص به وتشير بعض النصوص المسمارية الى ان بعض الرقيق وصلوا الى المركز الذي امتلكوا فيه رقيقا يقومون على خدمتهم وراحتهم مما لا نجد له مثيلا في أي مجتمع قديم اخر حتى تلك المجتمعات التي عاشت بعد المجتمع البابلي بقرون عديدة كالمجتمع اليوناني والمجتمع الروماني .

وهكذا تألف مجتمع المدينة العراقية القديمة من فئات كثيرة تتباين من حيث الامكانيات المادية والمركز الاجتماعي تبانيا كبيرا غير انها كانت تنصوى جميعها تحت لواء طبقتين اجتماعيتين فقط، اعترفت بوجودهما القوانين وميزت بينهما في المعاملة ، شأنها في ذلك شأن القوانين القديمة الاخرى عند كل المجتمعات، تلكهما طبقة الاحرار وطبقة العبيد. وضمت طبقة الاحرار جميع الفئات الاجتماعية من سكان المدينة باستثناء العبيد المملوكين الذين كانوا يؤلفون الطبقة الثانية . وهناك من الباحثين المحدثين من يرى ان المجتمع العراقي القديم ضم ثلاث طبقات اجتماعية وان هناك طبقة تتوسط هاتين الطبقتين كانت لها حريتها ولكنها كانت حرة مقيدة في حين كانت طبقة العبيد معدومة الحرية . وقد اعتمد اصحاب هذا الرأي على ماورد في قانون اشنونا وقانون حمورابي من اشارات للدلالة على فئات اجتماعية مختلفة ، فقد ورد مصطلح « اويلم » بمعنى « الرجل » وكأنه يشير الى الفرد من طبقة الاحرار في حين ورد ذكر مصطلح « مشكينم » بمعنى « المسكين » للاشارة الى الفرد من الطبقة المتوسطة مقيدة الحرية . غير ان تحليل المواد القانونية القليلة التي ورد فيها ذكر المشكينم ومقارنتها مع بقية المواد يؤكد ان المقصود من كلا المصطلحين هو الاشارة الى طبقة الاحرار غير ان القوانين قصدت من المصطلح الاول عامة الناس من المتمكنين اقتصاديا في حين استخدمت المصطلح الثاني بشكل خاص ومحدود للدلالة على الفرد من طبقة الاحرار من غير المتمكنين اقتصاديا ، اي من فئة الفقراء والمساكين . لذلك لم تذكر القوانين مصطلح مشكينم الا حينما تكون هناك معالجة لناحية اقتصادية او مادية . وتظهر دراسة قانون حمورابي الى ان المشرع كان يحاول دائما التخفيف عن كاهل هذه الفئة من المساكين اخذاً بنظر الاعتبار وضعها المادي عند فرض العقوبات المادية عليها وتحديد الاحكام تماما كما تفعل القوانين الحديثة المتطورة عند اصدارها الاحكام واخذها بنظر الاعتبار حالة الفرد

المحكوم المادية ومستواه المعاشي وخاصة في القضايا ذات العلاقة
بالاحوال الشخصية *

العائلة :

ان متانة البناء الاجتماعي للعائلة يعني متانة بناء المجتمع المؤلف من
مجموع العوائل ، وتشير جميع القوانين والوثائق الاخرى المكتشفة في
العراق الى متانة بناء العائلة العراقية القديمة وقوة تماسكها * ان ما لدينا من
معلومات عن العائلة في العراق القديم كثير جداً ويكفي لاعطاء صورة
تفصيلية عنها بفضل اهتمام المشرعين الكبير بتنظيم واحكام الاحوال الشخصية
وعدم اعتراف القوانين باي عقد ، أزواجاً كان ام طلاقاً ام تبنياً ام غيره ، الا
اذا كان محرراً ومشهداً عليه ، وهكذا تم العثور على المئات من مثل هذه
العقود وفيما ياتي نبذة عن بعض جوانب الاحوال الشخصية *

الخطوبة والزواج :

من الطبيعي ان الزواج هو الاساس الذي تقوم عليه العائلة ، ولم يكن
الزواج يعد شرعياً وتتحقق بموجبه حقوق الزوج والزوجة الا اذا تم تسجيل
العقد على رقيم من الطين * وطبيعي ايضاً انه كان يسبق عقد الزواج ما يعرف
بالخطوبة ، اي اختيار الرجل لزوجته المقبلة والاعلان عن ذلك بالطرق
المألوفة * ويبدو انه لم يكن هناك اجراءات قانونية خاصة بهذا الاختيار
بل كانت العادة ان يتم اختيار الفتى لفتاته من خلال ذويه وقلما يحدث
العكس ، كما لا توجد اشارة الى خطوبة تمت بين الفتى والفتاة دون تدخل
ذويهما بل ان القوانين نصت على عدم شرعية الزواج ان لم يكن مقترناً بموافقة
الوالدين حتى وان قضت المرأة سنة كاملة في بيت زوجها ، ويشير هذا الى
الدور الرئيس الذي كان يؤديه الوالدان في الزواج ولاسيما بالنسبة لاختيار
الفتاة * وقد يفسر ذلك أن التقاليد السائدة كانت تقضي بالزواج المبكر حيث
لم يكن سن الفتاة او الفتى كافيه لحسن الاختيار * وبعد ان يتم اختيار الفتاة،

تقام الاحتفالات العائلية وتقدم الهدايا الى بيت الفتاة وقد تجري بعض الطقوس الخاصة بذلك كأن يقوم الفتى بصب الزيت والعطور على رأس الفتاة اشارة رمزية عن اتمام الخطوبة • وقد تطول فترة الخطوبة او تقصر تبعا لظروف الخطيبين المادية او الاجتماعية • ولم يكن هناك سن محددة للزواج بل ربما كان سن البلوغ هو المعوّل عليه • وقد تفسخ الخطوبة لسبب او آخر ، حيث نصت القوانين على تحمل الطرف المسؤول عن فسخ الخطوبة التبعات المالية • اما اذا كان سبب فك الخطوبة هو وفاة الفتاة ، عندها يحق للفتى اختيار احدى اخواتها او استرداد الهدايا ، وبالعكس اذا توفي الفتى حق لوالده ان يزوج الفتاة الى احد ابنائه الآخرين • وكان يحق للرجل ان يختار زوجته المقبلة بحرية تامة غير انه كان هناك عدد من الحدود والقيود لهذه الحرية حددت المحارم من الفتيات والنساء بالنسبة للرجل • فمثلا لا يجوز الزواج من امرأة متزوجة كما لا يجوز الاتصال بالابنة وزوجة الابن • وطبيعي ان مجتمعا وصل الى هذا التنظيم عدّ اتصال الابن بامه بعد وفاة ابيه من الجرائم الشنيعة التي عاقب عليها بقسوة شديدة كما منع الاتصال بالاخت ، غير ان معلوماتنا عن بقية الاقرباء قليلة ولنا ان نفترض بانها كانت مشابهة لما عرف عن الاقوام الجزرية في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام في الفترات التالية •

وبعد ان يتم تسجيل العقد ، يصبح الزواج قانونيا وتحقق حقوق ومسؤوليات والتزامات كلا الطرفين المالية والاجتماعية التي نصت عليها القوانين ، ويصبح الرجل والمرأة زوجاً وزوجة • وقد تم العثور على مئات من عقود الزواج المسجلة على رقم الطين • ويبدو ان العقد كان يبرم بين الرجل وولي امر الزوجة المقبلة ، تماما كما يحدث في الوقت الحاضر • وقد يكون غياب رأي الفتاة في العقد ناتجا عن صغر سنها او ضعف مركزها الاجتماعي • في حين تؤكد القوانين بانه كان للمرأة احيانا حق صريح في اتخاذ القرار واختيار الزوج حيث منحت بعض النسوة حرية اختيار الزوج

ان كن من الكاهنات او كان زواجهن للمرة الثانية او عند غياب الزوج غيبة طويلة .

وتتضمن عقود الزواج اضافة الى اسماء الاطراف المتعاقدة ، كمية المبالغ والهدايا المقدمة والتزامات كلا الطرفين ، واحيانا بعض الشروط الجزائية . ويختتم العقد عادة باسماء الشهود وقد يطبع الرقيم بختم احد المتعاقدين ، ويذيل بالتأريخ محدد باليوم والشهر والسنة .

وكان يحق للزوج ان يدخل بزوجه بعد تسجيل العقد ، وقد يتأخر الدخول لحين استكمال متطلبات الزواج ، ولا بد انه كانت هناك احتفالات ، وطقوس ترفيحية ودينية خاصة يشترك بها ذوو الفتى والفتاة لاضفاء طابع الخير والبركة على الزواج واشهاره امام الناس .

ولم يكن الزواج في العراق القديم ، كما يراه بعضهم ، تجارة تتضمن بيع الفتاة الى الزوج المقبل لقاء مبلغ معين ، بل كان يقوم ، كما تشير الى ذلك القوانين صراحة ، على مساهمة كلا الطرفين بتجهيز متطلبات الزواج المادية . فكان والدا الفتاة يقدمان الى ابنتهما هدايا خاصة عند الزواج تتناسب وامكاناتهما المادية وقد تتضمن اموالا منقولة واخرى غير منقولة تمثل حصة الفتاة في اموال والديها ، وكانت هذه الهدايا تسمى « شريفتوم » ، وكانت الزوجة تقدم هذه الهدايا الى زوجها للمحافظة عليها وتنميتها غير انها كانت تحتفظ بملكيتها طالما كانت على قيد الحياة ، وكانت تقول من بعدها الى اولادها او الى والديها ان لم يكن لها اولاد . وبالمقابل ، كان الزوج يقدم لزوجه هدايا الخطوبة اولا ومن ثم هدايا الزواج التي كانت تسمى « ترخاتم » وهناك هدية اخرى تسمى « بيلوم » كافت تسلم لوالدي الزوجة ، ولكنها لم تكن من الهدايا الاساسية في الزواج وربما كانت تمثل نفقات مراسيم الزواج .

وهنا لابد من الاشارة الى ان الزواج الذي يتم وفق ماذكر اعلاه يمثل القاعدة العامة وهو الزواج الكامل او التام في حين انه كان هناك انواع اخرى من الزواج اقل ورودا وشيوعا ، منها الزواج الناقص ، الذي يتم فيه تحرير العقد ويتأخر تنفيذه والدخول بالفتاة الى فترة معينة وقد تطول لاسباب مختلفة ربما لصغر سن الفتى او الفتاة او لعدم اكتمال الترتيبات اللازمة وتستمر الفتاة في العيش في كنف ابيها حتى يتم الزواج فعليا + وقد تنتقل الفتاة الى بيت حميها وتعيش فيه لحين اكمال الزواج + وهناك الزواج الذي يتم دون تحرير عقد ويقع هذا الزواج في حالات خاصة اعترف القانون بشرعية هذا النوع من الزواج غير انه لم يعط المرأة حقوق الزوجة الكاملة فقد تدخل المرأة بيت رجل ثانٍ لغياب زوجها غيبة طويلة دون ان يترك لها ما يعيلها +

الملاقات الزوجية :

من الواضح ان السمة العامة التي اتصفت بها العائلة العراقية القديمة هي سلطة الاب المطلقة في بيته لذا كان يسمى رب الأسرة ، فهو معيلها واليه ينتسب الاولاد وعليه يعتمدون في حياتهم ، وله حق الزواج والتزويج والطلاق في حين كانت حقوق المرأة محدودة في هذا المجال ولكنها كانت تأتي في المرتبة الثانية ، وهذا لا يعني انه لم يكن للمرأة حقوق بل بالعكس حيث كان لها حقوق نصت عليها القوانين منها ما لا نجده حتى في بعض القوانين الحديثة + فقد كانت لها شخصيتها المالية المستقلة ، تمتلك الاموال المنقولة وغير المنقولة وتتصرف بها وفق مشيئتها ، وتظهر المرأة تاجرة ومقرضة للاموال وبائعة خمر وكاهنة وكاتبة وقاضية او شاهدة + وكانت تركتها تؤول الى اولادها او الى ابويها ان لم يكن لها اولاد + وكان لها الحق في الزواج ثانية في حالات معينة كما كان لها حق طلب الطلاق في حالات حددها القانون مما سنتطرق اليه فيما بعد +

وكانت القاعدة العامة في العائلة هي الزواج الاحادي ، ولكن كان يحق للرجل التسري ، كما جرت العادة ان تدفع الزوجة العاقر باحدى امائها الى زوجها بهدف انجاب الاطفال ، وكان للزوج ايضا ان يتزوج بامرأة ثانية ان كانت زوجته الاولى مريضة مرضاً لا يرجى شفاؤه وتشير القوانين الى ان منزلة الزوجة الاولى تبقى محفوظة حتى في حالة زواج الرجل للمرة الثانية .

والى جانب الحقوق التي حددتها القوانين للزوج والزوجة كل عند الآخر فقد فرضت عليهما واجبات والتزامات ، ويأتي في المقدمة المحافظة على بيت الزوجية وعدم الاخلال بسمعته . وهكذا نصت احدى مواد قانون اشنونا (البابلي) على طرد الزوج من بيته وخسارته املاكه المنقولة ان هو اراد تطليق زوجته . وام اولاده بسبب عشيقته كما منعه من الزواج من العشيقة ، في حين نص قانون حمورابي على حق الزوجة طلب الطلاق من زوجها ان ثبت تكرار خروج الزوج من بيته واثباته اعمالاً تحطّ من سمعته وسمعة زوجته . ومن ناحية اخرى ، كان على الزوجة ان تحافظ على سمعتها وشرفها وحسن سلوكها ولا تؤتي ما يغضب الزوج او يحط من كرامته والا وقعت تحت طائلة القانون فاما ان تطلق او ان تعاقب بعقوبة قاسية قد تصل الى الموت ان هي ضبطت متلبسة بجريمة الخيانة الزوجية او ان تستعبد كأمة من قبل زوجها . كما اشارت القوانين الاشورية الوسيطة الى حق الزوج تأديب زوجته وضربها او سحب شعرها في حالات معينة . وتنص القوانين الى العقوبات الصارمة التي يعاقب بها كل من الزوج والزوجة ان تسبب احدهما بموت الآخر عن قصد .

وكان من واجبات الزوجة الرئيس ان توفر لزوجها واولادها بيتاً هادئاً مطمئناً وتسهر على تربية الاولاد وتوفر لهم ولزوجها المأكل والملبس وقد تعمل اثناء النهار في الحقل او البستان او تقوم ببعض الحرف اليدوية البسيطة وهي في بيتها كالحياكة او صناعة النسيج او غيرها في حين كان

الزوج يتولى مهمة توفير المسكن ومستلزمات المعيشة لجميع افراد الاسرة ،
وكانت سلطته في بيته تشبه تماما سلطة الملك في مملكته . وكان احترامه
واجب نصت عليه القوانين حيث اشارت ، اضافة الى ماذكر اعلاه بالنسبة
للزوجة ، الى معاقبة الولد الذي يتجاوز على ابيه بالكلام او الضرب ، وقد
تصل عقوبة الولد العاق الى الاستعباد والحرمان من الابوة وما يتحقق
نتيجة ذلك من تبعات مالية .

الاولاد :

ان الهدف الرئيس من الزواج ، الى جانب اتحاد الجنسين جسديا ، هو
تكوين اسرة جديدة على اسس قوية وانجاب اطفال ينتسبون الى ابوين
معروفين ويبدو ان الرغبة في الاكثار بالبنين كانت هي الشائعة ، كما هي
اليوم . ومع ذلك ، فان ولادة الاناث لم تكن تخلق مشاكل عائلية رئيسية
بالنسبة للزوجة بل ان المشكلة كانت تظهر في حالة عدم انجاب الاطفال . ويبدو ان
العراقيين القدماء ظنوا ان اسباب عدم الانجاب هي الزوجة دائما لذلك
تراهم يضعوا الحلول امام الزوج للحصول على الاولاد كما تشير الى ذلك
القوانين . ومن هذه الحلول اعطاء الحق للزوج بالزواج ثانية او اتخاذ
له سرية تقوم بالانجاب دون ان يؤثر ذلك على مركز الزوجة الاولى او تطبيق
الزوجة العاقر بعد دفع هدية الزواج التي كانت قد جلبتها من بيت ابوها
اضافة الى مبلغ الطلاق المتفق عليه . اما اذا عزف الزوج عن كل هذه الحلول
التي قد تؤثر على زوجته الاولى ، عاطفياً على اقل تقدير ، فله ان يتبنى طفلاً
من احدى الاسر الفقيرة التي تعرض اطفالها للتبني مقابل مبلغ معين من المال،
وقد اجازت القوانين هذا النوع من التبني و نظمت اسلوبه وحددت حقوق
وواجبات والتزامات كل من المتبني والمتبنى ، وكان على الاطراف المعنية
تحرير عقد خاص بالتبني بعدها يصبح الطفل كالطفل الحقيقي بالنسبة

لحقوقه المادية والاجتماعية عند ابويه بالتبني حتى وان رزقا اطفالا
بعد التبني •

ويبدو ان حالات التبني وغيرها من الحالات التي لا تتمكن فيها الام
من ارضاع أفلها وتربيته ، قد استوجبت استخدام المرضعات ، وقد حددت
القوانين مسؤولية المرضعة ومقدرتها على ارضاع الطفل وسلامة صحتها •

ولا بد ان الوالدين كانا يسميان طفلهما الجديد في الايام الاولى من
الولادة ، وكان اختيار الاسم من الامور المهمة لديهم وكان الاختيار يقع
غالبا على « الاسم الحسن » الذي يدل على البركة او النعم الالهية ، وقد
يتألف الاسم من جملة كاملة لها معنى مفيد وغالبا ما كان يدخل في تركيب
الاسم اسم او صفة احد الالهة الرئيسة • واذا اخذنا اسماء بعض الملوك
وجدنا ذلك واضحا جداً فيعني اسم سرجون (ضرو - كين) الملك الثابت ،
وسنحاريب (سين - اخي - اريا) يعني « الاله سين يزيد عدد الاخوة »
واشور بانيبال (اشور - بان - ابلى) يعني « اشور خالق الابن » وغيرها •

الطلاق :

الطلاق هو فسخ العلاقة القانونية والاجتماعية القائمة بين زوجين ،
وقد سبقت الاشارة الى عدد من الحالات التي كان يحق فيها للرجل تطبيق
زوجته او يحق للزوجة ان تطلب الطلاق من زوجها • ويبدو ان القاعدة
العامة التي كانت سائدة هي استمرارية الزواج حتى في حالة زواج الرجل
ثانية ، ولكن هناك حالات تستوجب الطلاق مما اشارت اليه القوانين •
وكان الطلاق عادة بيد الرجل ولكن كان يحق للزوجة طلب الطلاق إن هو
أخلّ بالتزاماته الزوجية مثلاً ، أو غاب عنها غيبة طويلة دون ان يترك
لها ما يكفيها لتغطية نفقات معيشتها وكان الطلاق مثل
الزواج ، يتم بموجب عقد محرر ويترتب عليه تبعات مالية معينة ولم يكن يتم

كيفية وحسب الاهواء بل كانت تحدده القوانين كما تحدد حقوق المرأة المطلقة المادية . فان اراد الزوج ان يطلق زوجته بسبب عشيقته ، فله ان يفعل ذلك ولكن عليه ان يدفع لزوجته مبلغ الطلاق ومن ثم لن يسمح له بالزواج من عشيقته ، اما اذا كانت زوجته هذه اما لأولاد ، فعندها يطرد الزوج من البيت ويخسر جميع املاكه الى زوجته واولاده (قانون اشنونا) . كما كان يسمح للرجل بتطليق زوجته الكاهنة او العاقر وعليه ان يدفع لها مبلغ الطلاق المتفق عليه عند الزواج اضافة الى الهدايا التي كانت قد جلبتها الزوجة من بيت ابويها هذا بالاضافة الى حالات لطلاق عند عدم محافظة اي من الزوجين على سمعة بيت الزوجية والحط من كرامة الزوج الاخر .

التحجب :

من العادات والتقاليد التي عرفت في العراق القديم ، في العصر اشوري على اقل تقدير ، عادة التحجب بالنسبة للنساء المتزوجات من الاحرار . فقد اشارت القوانين الاشورية الوسيطة الى ضرورة تحجب المرأة الحرة المتزوجة وحرمت ذلك على الاماء الا اذا تزوجن من رجل حر وعلن الزوج ذلك امام شهود . ولا نعرف طبيعة التحجب الذي اشارت اليه القوانين اهو خاص بارتداء عباءة خاصة تغطي الجسم والرأس والوجه ام نه ارتداء الخمار فقط حيث لم يعثر حتى الان على ما يفصح عن ذلك من المنحوتات او النصوص المسمارية باستثناء ما ورد في القوانين .

الارث :

من الامور التي اهتمت بها القوانين العراقية القديمة ، توزيع التركة على الورثة لما لذلك من تأثير كبير في مستقبل العلاقات الاجتماعية بين افراد الاسرة الواحدة . ومع ذلك ، فهناك العديد من الامور الغامضة التي لم تتطرق اليها القوانين شأنها في ذلك شأن العديد من الامور الاخرى

التي اغفلتها القوانين على الرغم من اهميتها * ومن خلال ما هو متيسر من معلومات يبدو ان التركة كانت توزع بين ابناء المتوفى الذين من صلبه بالتساوي من بعد اقتطاع حصص ومبالغ معينة اشارت اليها القوانين * فكان الابن الاكبر يختار الحصة الاولى ، وقد يعطى بعض الامتيازات الاخرى. تقديرا لمركزه الاجتماعي بعد وفاة الاب ، وتحمله مسؤوليات وتبعيات اجتماعية ومادية جديدة * كما كان يقتطع من التركة ما سبق للاب ان اوصى به ، بموجب وثيقة محررة ، لاحدى زوجاته او لابنه المفضل او لابنه بالتبني ، من امواله المنقولة وغير المنقولة * واذا كان بعض الابناء صبية صغارا دون سن الزواج ، فعلى اخوتهم ان يقتطعوا لهم من تركة ابيهم مبلغا من المال يساوي هدية الزواج وذلك قبل تقسيم التركة ، اضافة الى حصصهم القانونية في التركة كبقية الابناء * ولم يكن هناك حق لابناء الامة بالتركة الا اذا كان ابوهم قد اعترف بنسبته لهم قبل وفاته *

اما بالنسبة لبنات المتوفى ، فهو ما اغفلت ذكره القوانين ويستشف من بعض المواد القانونية بانه كان يحق للفتاة غير المتزوجة اقتطاع جزء من تركة ابيها مقابل هدية زواجها قبل تقسيم التركة ، كما تشير مادة اخرى الى تخصيص حصة معينة تساوي ثلث حصة الابن الذكر الى البنت من صنف الكاهنات التي لم تحصل على هدية زواج في حياة ابيها * اما الزوجة ، فكانت تأخذ هدية زوجها ان كان الزوج قد ثبت ذلك بموجب وثيقة محررة خلال حياته * ولا توجد هناك اشارات الى توريث اخوة والاخوات الا في حالة وفاة الزوجة دون ان يكون لها اولاد حيث تؤول املاكها الى بيت ابويها *

وفي حالة وفاة الزوجة ، يبدو ان تعيين حصص الورثة لم يكن يختلف كثيرا ، ولكن اذا كان الابناء هم اخوة بطنين مختلفين ، فيرث كل من الابناء تركة امه على افراد ويتقاسمون تركة الاب بالتساوي *

وفي حالة وفاة الاب وتركه صبية قصر ، تكون الزوجة وصية على الاولادها وعلى حقوقهم ، واذا تزوجت ثانية ، ينتقلون مع امهم الى بيت الزوج الثاني وتقع على الام وزوجها الجديد مسؤولية المحافظة على املاك وحقوق الاولاد القصر وعلى الحاكم ان يثبت ذلك وفق وثيقة محررة .

وكان حجب التركة عن احد الاولاد من العقوبات القاسية التي يمكن للاب ان يوقعها باحد اولاده . ولم يكن ذلك يتم الا باصدار قرار من الحاكم لاسباب مقنعة حددها القانون .

البيت العراقي القديم :

كشفت التنقيبات التي اجريت في مدن العراق المختلفة عن العديد من الاحياء السكنية الخاصة بعامة الناس ، كما كشفت عن قصور ملكية ومعابد وابنية عامة كثيرة كانت تحتل اماكن خاصة من المدينة . ومن الطبيعي ان الاثار المتبقية من دور سكن العامة قليلة نظراً لطبيعة المواد المستخدمة في بنائها ، التي اقتصرت غالباً على الطين غير المفخور (اللبن) والاشخاب ، وكذلك بالنسبة لاثائها . ومع ذلك ، يمكن الاستعانة بما تبقى من تلك الدور مع ما يمكن استنتاجه من النصوص السمارية والمنحوتات المختلفة لرسم صورة تقريبية عن البيت في العراق القديم .

ان دراسة مخطط البيت العراقي القديم العام والتعرف على اسلوب بنائه والمواد الانشائية المستخدمة في ذلك تشير الى ان العراقيين القدماء قد حاولوا بما لديهم من امكانيات ومواد ان يجعلوا من بيوتهم البسيطة اماكن ملائمة للسكن تقوى على مواجهة التقلبات المناخية وتطرفها من حيث الحرارة والبرودة . فقد استعاضوا عن الشبايك الواسعة ، التي لا تساعد على تدفئة البيت او تبريده ، بفتحات صغيرة للتهوية والاثارة ، واستخدموا الطين او الآجر للبناء ، وقد ثبت بانه اكثر المواد الانشائية المتوافرة ، ملائمة للمناخ في العراق ، وجعلوا جدران البيت سمكة ليزيدوا من عزل البيت عن

التقلبات المناخية ، واستخدموا الرمل الجاف في اسس الابنية ووضعوا طبقة من القير على القسم السفلي من اوجه الجدران الداخلية ، وحيانا غلفوا الجدران الداخلية بقطع من الرخام او الحجر لمنحوت كل ذلك من اجل منع تسرب الرطوبة الى داخل البيت ، وغالبا ما كانت البيوت تطل من الخارج بالابيض لزيادة جمال البيت من جهة ولعكس حرارة الشمس المحقة في الصيف من جهة ثانية .

وطبيعي انه كان هناك طرز مختلفة من البيوت حسب الفترات الزمنية واختلاف المدن ، كما كان هناك طرز خاصة بالبيوت الضخمة المرفهة واخرى للبيوت الخاصة بالطبقة الفقيرة والمعدمة . ومع ذلك ، كان هناك طابع عام يميز البيت العراقي القديم ، وظل هذا الطابع هو السائد حتى فترات متأخرة جداً من تاريخ العراق الحديث . فاما البيوت الصغيرة البسيطة ، فكانت عبارة عن اكواخ صغيرة من الطين ذات جدران سميكة بلا شبابيك تقريبا وتضم عددا من الغرف المتلاصقة وتسقف بالاشخاب والحصران والطين وكانت السقوف تميل الى احد الجوانب منعا لوقوف مياه الامطار عليها ، وقد تسقف على هيئة الجملون احيانا ، فهي بذلك شبيهة من حيث الشكل واسلوب البناء ومواده للاكواخ المعروفة في العراق حتى اليوم في المناطق الريفية وخاصة في القسم الشمالي من العراق والتي تعرف محليا باسم « دامه » وجمعها « دوم » اما الطراز الثاني من البيوت التي شاعت في العراق القديم فهو ما يمكن تسميته بالطراز الشرقي ، ويتألف في العادة من ساحة وسطية ، مربعة الشكل او مستطيلة مكشوفة يحيط بها عدد من الغرف المتلاصقة تطل مداخلها على الساحة ، وقد يتصل بعضها ببعض بمداخل صغيرة ، ويتناسب عدد الغرف وعدد افراد الاسرة وامكاناتها الاقتصادية وقد تصل الى عشر غرف احيانا ، وينفذ الى داخل البيت من خلال دهليز ضيق اشبه بالمر ، ويطل البيت على الطريق او الشارع الضيق

الذي تتجمع حوله ابواب البيوت الاخرى ، واحيانا دون انتظام . وكانت مداخل البيوت ضيقة ومنخفضة الى درجة قد يضطر الداخل الى الانحناء ، وكان لكل غرفة عدد قليل من الفتحات الضيقة للانارة والتهوية وغالبا ما تسد بواسطة قطعة من الاجر مثقبة بثقوب صغيرة تسمح بالانارة والتهوية فقط وتمنع دخول الحيوانات . وكان المطبخ يشغل احدى الغرف الصغيرة او احدى زوايا الساحة المكشوفة حيث يقام الموقد والتنور . اما ارضية الساحة والغرف ، فكانت تسوى وتعدل وتغلف احيانا بالآجر المفخور . وكان الطين يشكل المادة الاساسية في البناء بالنسبة لجميع طبقات وفئات المجتمع ، وقد يستخدم الآجر المفخور او الحجر احيانا ولكن على نطاق ضيق جدا . كما استخدمت الاخشاب والحصران للتسقيف . وقد يضم البيت الواحد طابقين ، لاسيما في مركز المدينة حيث ترتفع اسعار قطع الاراضي السكنية . وكان هناك بناءون محترفون يقومون ببناء البيوت عند الطلب ويتقاضون اجورهم استنادا ، كما تشير القوانين ، الى مساحة البناء ، كما كانوا يتحملون مسؤولية الاهمال والتقصير في البناء ويعاقبون بقسوة ان تسبوا في موت صاحب الدار او ابنه او أي فرد آخر من ساكنيه .

وقلما كانت البيوت الاعتيادية تضم حمامات خاصة والتي اقتصر وجودها على القصور الفخمة ، كما لا نعرف فيما اذا كان هناك حمامات عامة مشابهة لما نجده في مدن العراق في الفترات العربية الاسلامية . ويبدو ان سكان الدار استخدموا الدهليز او احدى الغرف و زوايا الساحة الوسطية مكانا للاستحمام ، كما اعتادوا الاستحمام في النهر والجداول القريب سيما ان معظم المدن قامت على شواطئ الانهار وضفاف الجداول والقنوات . وكان الصبية والفتيات من افراد الاسرة يقومون بنقل المياه النظيفة من النهر او البئر الى البيت بواسطة الاواني الفخارية او جلود الحيوانات (القرب) ، على ظهور الحيوانات ، وكان في كل بيت عدد من

الاولاني الفخارية الكبيرة (الحباب) لخزن المياه * ولم يكن هناك انظمة خاصة لتصريف المياه الثقيلة غير انه وجدت حفر كبيرة وسط ساحات البيوت كانت معدة لتجمع المياه القذرة في حين ضمت القصور والابنية العامة الكبيرة، وخاصة الاشورية منها ، نظم دقيقة وكفاءة لتصريف المياه قوامها اقنية فخارية مدفونة تحت مستوى ارضية الغرف والحمامات حيث تتجمع فيها المياه ويتصل بعضها ببعض لتؤدي الى خارج البناء وتصب في الوادي او النهر القريب ، وكانت فوهة المجرى النهائية تسد بمشبك من الفخار لمنع دخول الحيوانات الى الداخل *

وقد تضم البيوت مكانا خاصا للمرافق الصحية ، ولاسيما البيوت الخاصة بالطبقة الغنية ، وكان تصميم المرفق الصحي لا يختلف عن تصميمه في الوقت الحاضر في مدن العراق المختلفة حيث كان يتألف من دكتين من الحجر او الآجر المفخور تتوسطهما فوهة حفرة تتجمع فيها الاوساخ * وقد كشف عن مجموعة من هذه الرفاق في احد القصور في اشنونا في منطقة ديالى كما عثر في بعضها على اوانٍ فخارية لحفظ المياه النظيفة وجد في احدها مغرفة صغيرة مما يشير الى استخدام المياه للتنظيف ، وهي الطريقة المثلى الشائعة اليوم في العراق والتي تتناسب تماما ومناخ العراق *

الانارة والتدفئة :

كانت الانارة في البيوت تتم بواسطة المسارج والمشاعل * وقد استخدمت انواع بسيطة من المسارج تتألف من اناء صغير في احدي نهايتيه ثقب يخرج منه الفتيل ، وكان الزيت يوضع في الاناء *

بعض النصوص المسمارية الى استخدام زيت السمسم في الغالب وقودا وقد كشف عن انواع مختلفة من المسارج منها ما هو جميل للغاية * وتشير للمسارج كما استخدم زيت الزيتون ولكن في حالات قليلة وربما استخدم النفط الخام ايضا الذي كان يسمى (زيت الحجر) وان لم يكن مصفى غير

ان النور الذي يعطيه هو افضل من بقية الزيوت • اما المشاعل ، فكان استخدامها خارج البيوت في الحقول والطرق واثناء المعارك شائعاً •

وكانت التدفئة تتم بواسطة حرق اغصان الاشجار وجذوعها داخل مواقد مصنوعة من الطين المفخور ، وربما استخدمت فضلات الحيوانات لهذا الغرض ايضا •

الاثاث : -

ومن الطبيعي ان اثاث البيت وجودته يتناسب ومستوى العائلة المعاشي • وان كنا قد تعرفنا على مخطط البيت العراقي القديم العام وبعض طرز بنائه الغنية من البقايا المكتشفة ، فان مما يؤسف له اننا لم نعر على بيوت مؤثثة ربما لان معظم الاثاث كان يصنع من مواد سريعة التلف كالاخشاب والسجاد والقماش ، كما ان الاثاث الجيد لا يبقى في البيت بعد هجره الا في حالات قليلة • ومع ذلك ، يمكن الاستفادة من النصوص المسماة للتعرف على اسماء العديد من قطع الاثاث المنزلية وكذلك من المنحوتات التي تصور لنا بعض مشاهد الحياة اليومية وخاصة في القصور الملكية الى جانب ما تم الكشف عنه من ادوات منزلية مصنوعة من مواد غير قابلة للتلف •

ويبدو ان البيت المتوسط كان يضم بعض الاسرة والكراسي الخشبية وعدداً من الخزانات او الدواليب الخشبية ايضا • وكانت الاسرة تخصص للرب الاسرة غالباً في حين كان بقية افراد الاسرة ينامون على الارض ويلتحفون السجاد والجلود • وربما استخدمت الدكاك الطين للجلوس وللنوم • ولا يعرف فيما اذا اعتاد العراقيون القدماء النوم فوق سطوح المنازل ، كما يفعل احفادهم اليوم ، ام انهم اكتفوا بالنوم في ساحة البيت المكشوفة او امام البيت في المناطق الفسيحة • ولنا ان نفترض ان سكان البيت الواحد كانوا يجتمعون في ليالي الشتاء الباردة في احدى الغرف قعوداً على الارض ، او على الدكاك ، يتوسطهم موقد النار ، وقد فرشوا

الارضية بالسجاد والحصير • وعند تناول وجبة الطعام ، كانوا يضعون المائدة على الارض مباشرة او على مصطبة قليلة الارتفاع • اما في القصور ، فيبدو انه استخدمت المناضد المرتفعة وحولها الكراسي لقضاء الامسيات في تناول المشروبات او الاطعمة كما تشير الى ذلك مشاهد بعض المنحوتات الاشورية حيث كانت تقدم الاطعمة الى الالهة على المناضد • وربما استخدم سعف النخيل والقصب لصناعة الكراسي والمناضد والاسرة •

الى جانب الاثاث الخشبية ، كان البيت يضم ادوات كثيرة مصنوعة من الفخار التي شاع استخدامها في جميع الفترات الزمنية التي مرت على العراق منذ الالف الخامس قبل الميلاد فصاعدا وكانت ذات طرز فنية واشكال جميلة ومتنوعة وعليها نقوش وزخارف والوان غاية في الجمال • وقد تم الكشف عن كميات كبيرة من الاواني والكسر الفخارية في مدن العراق المختلفة وغدت طرزها الغنية واشكالها وطريقة صنعها من العلامات الرئيسة التي توجه المتقنين لمعرفة تاريخ الطبقات الاثرية المكتشفة ، وكان المطبخ يضم عادة موقدا للطبخ وتنورا لخبز الخبز وكلاهما مصنوع من الطين • وكانت سيدة البيت ، وهي الزوجة الاولى ، تشرف على عملية طبخ واعداد الطعام يعاونها في ذلك بقية الاناث من افراد الاسرة والاماء • وقد كشف عن انواع مختلفة من الادوات المنزلية الخاصة باعداد الطعام ، ومعظمها من الفخار ، وبعضها من النحاس او الحجر ، ومنها الجرار على اختلاف احجامها واشكالها والابواق والصحون والاقداح والكؤوس والحباب والطاوات والمدقات والهاونات والمطاحن والمجارش والكاسات والفساتين والقدور وغيرها •

وكانت الطريقة الشائعة في الاكل بواسطة اصابع اليد ، ومع ذلك عثر على ما يشبه الشوكات مصنوعة من العظم وذات اصبع واحد ، كما كشف

عن سكاكين من النحاس او العظم وعلى ملاعق من الفخار او القار او العظم
ومغارف من الطين وربما استخدم الخشب لصناعة الملاعق والمغارف .

الماكولات والمشروبات :

تختلف انواع الماكولات والمشروبات المستخدمة بالنسبة لمستوى
العائلة المعاشي ، كما تختلف باختلاف المناطق والفترات الزمنية . وبصورة
عامة يمكن القول اننا اذا استثنينا بعض المواد الغذائية التي دخلت العراق
في فترات زمنية متأخرة ، كالرز والحمضيات والبطاطا ، فان معظم
المواد الغذائية الاساسية الموجودة حاليا في العراق كانت متوافرة في العصور
القديمة ، وفي مقدمتها الحبوب على انواعها والبقوليات والخضراوات والفواكه
والتمور واللحوم والاسماك ، ولم يدخل الدجاج العراق الا في الالف الاول
قبل الميلاد . ويبدو ان اساس الوجبة الغذائية كان الخبز الفطير وبعض
الخضراوات والزيوت ومشتقات الحليب . وقد ورد العديد من اسماء
الماكولات في النصوص السامرية ، كان من بينها الكبة . وصورت بعض
هذه الماكولات على المنحوتات . وكان اكل اللحوم محدودا بصورة عامة
ويزداد في ايام الاعياد والمناسبات والاحتفالات . وكانت بعض اللحوم تملح
وتجفف ليتمكن حفظها الى فترات طويلة . ومن المشروبات الروحية ، كانت
البعجة منتشرة الى درجة ان قانون حمورابي اشار الى اسلوب بيعها وكانت
تصنع من الشعير ، كما استخدم نبيذ التمر والعنب . وتشير بعض الوصفات
الطبية الى ان الافراط في شرب الخمر كان معروفا ومن الظواهر
المكروهة ، كما استخدمت البعجة في كثير من الوصفات الطبية المركبة من
عقاقير مختلفة . وتمثل التمور مكانا بارزا في الغذاء اليومي وقد غالى بعض
الكتبة في بيان اهمية النخلة حيث قال بان لها ٣٦٥ فائدة ، وربما قصد بذلك
انها كانت مفيدة طوال ايام السنة .

الازياء : -

تشير المنحوتات والمسلات الى اختلاف ازياء النساء والرجال وفئات الناس المختلفة عبر العصور التي مرت على العراق * فيشير بعضها الى ان الرداء الذي كان شائعا في الفترات السومرية كان اشبه بالتنورة وقد استخدم هذا النوع من الرداء حتى من قبل الجند مع رداء آخر فضفاض طويل يتدلى على الكتفين ويثبت بكلاب باسلوب تثبيت المعطف الصوفي * كما مثل جوديا ، حاكم لجش ، مرتديا نوعا من اللباس السائب من الشال الطويل يصل الى الكعبين ويتدلى على الكتف الايسر تاركا الكتف الاخر عاريا ، وهي الطريقة التي شاعت في الفترات السومرية * وفي الالف الثاني قبل الميلاد ، كان الرداء النموذجي يتألف من رداء داخلي من القماش الطويل غالبا ما يربط بحزام عند الخصر * وقد ادخلت الملابس المخططة في هذه الفترة * وفي الالف الاول قبل الميلاد ، كان الرداء النموذجي هو القباء او عدة قباءات منسوجة اكثر مما هي متدلّية * وتختلف ازياء النساء عن الرجال كما تختلف بالنسبة لطبيعة عمل او صنف الشخص حيث كانت هناك ازياء خاصة بالكهنة والجند والعمال والفلاحين وغيرهم وكان جميعهم ينتعلون الصنادل ومعظمهم يلبس للرأس *

اما تسريح الشعر ، ففي بداية الالف الثالث قبل الميلاد ، كان لكلا الجنسين شعوطويل يتدلى بحزمة خلف الرقبة ، ولعله كان يربط بشكل من الاشكال ل يبدو وكأنه يغطي الاذان * وفي عصور فجر السلالات كانت التسريحة الرئيسية هي الشعوطويل المدفوع الى الوراء من الوجه والمعمول على شكل جديلة ملفوفة حول الرأس على شكل العمامة * وقد استخدمت احيانا الاطر لتساعد على رفع الشعر الى اعلى * ومن التسريحات الاخرى جعل الشعر بجديلة او جديلتين او اكثر متدلّية على الظهر * وفي العصر الاكدي ، كان الشعر يجعّد بطريقة اصطناعية ، حيث كان هذا الطراز هو

الشائع في التماثيل والمنحوتات وكان يقسم عند الوسط وتترك حافة منه في الامام وعلى الصدغ * وكانت النساء يجعلن شعرهن على هيئة كعكة الى الوراء تمتد من مؤخرة الرقبة وحتى اعلى الرأس وقد تستخدم الشبكة المثبتة برباط الشعر *

واستخدمت النساء الى جانب الشباك والاربطة ، الدبايس المختلفة والجميلة المصنوعة من مواد مختلفة * وفي الفترات السومرية ، يبدو ان الرجال كانوا يخلقون شعر رأسهم تماما او ان يكون لهم شعر رأس وذقن مجعد بدقة في حين يظهر الملوك البابليون والاشوريون بلحي مموّجة كثيفة وغالبا بشعر مموج كثيف وطويل يتدلى بانسياب على الكتفين * وكان للرقيق اسلوب خاص في قص الشعر كما كان للكهنة والاطباء اسلوبهم الخاص في قص الشعر ايضا *

لغة التخاطب ووسيلة التدوين :-

مرت على المدن العراقية القديمة في عصورها المتتابعة اقوام واجناس مختلفة وتعرضت لغزو اقوام اجنبية عدة اختلفت لغاتهم ، ومع ذلك ، ظلت اللغة السائدة بينهم هي اللغات المحلية الاصلية السومرية او الاكدية * فاللغة السومرية ، وهي لغة منفردة لا تشبهها اي من اللغات المعروفة الاخرى ، شاع استخدامها في الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد ودونت بها معظم النصوص المسمارية خلال هذه الفترة وابتكرت الكتابة المسمارية اصلا لتدوينها * وكان هناك اكثر من لهجة سومرية واحدة منها لهجة المخاطبة ، وهي اللهجة الاعتيادية الرئيسية ، واللهجة العالية والمنتخبة كما وردت تسميات لهجات اخرى خاصة بالسفانة واخرى لرعاة الغنم وثالثة للكهنة * وكان هناك لهجة سميت بلهجة النساء اُلق عليها باللغة الاكدية مصطلح لغة العراق ، ومنذ اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، دخلت اللغة السومرية في صراع لغوي مع اللغة الاكدية ، لغة الاقوام الجزرية (العربية القديمة) التي وفدت منذ مطلع الالف الثالث قبل الميلاد على اقل تقدير ، وغدت لغتها لغة البلاد

الرسمية بعد ان قامت الدولة الاكدية في حدود ٢٣٧١ ق م • ومع شيوع استخدام اللغة الاكدية ، الا ان اللغة السومرية ظلت مستخدمة حتى نهاية الالف الثالث قبل الميلاد عندما بدأ استخدامها ينحسر تدريجيا واتت المعاجم اللغوية الاكدية - السومرية وغدت اللغة السومرية مقصورة على النصوص الدينية والعلمية البحتة وبعض النصوص التذكارية في حين انتشر استخدام اللغة الاكدية وتفرعت الى عدة لهجات في الفترات الزمنية المختلفة ، فكان هناك اللهجات البابلية المختلفة واللهجات الاشورية المختلفة اضافة الى اللهجات المحلية الخاصة الاخرى التي لم تجد طريقها للتدوين لكي تتعرف عليها •

ومنذ اواخر الالف الرابع قبل الميلاد ، بدأ العراقيون القدماء باول محاولات تدوين اللغة واستخدمت من اجل ذلك العلامات الصورية للاشياء المادية ثم ما لبثت ان تطورت من حيث الشكل واسلوب الاستخدام حتى غدت اسلوبا كتابيا غاية في التعقيد عرف باسم الكتابة المسمارية • وقد استخدمت الكتابة المسمارية لتدوين اللغة السومرية واللغة الاكدية ايضا بعد ان اجري عليها بعض التحوير • وكان تعلم اسلوب الكتابة من الامور الصعبة التي تحتاج الى وقت طويل للتعلم وقد تم الكشف عن مئات من النصوص التعليمية التي عرفت بالمدرسية تعكس لنا اساليب التعليم والتدريب على اتقان فن الكتابة والقراءة • وتعطينا بعض النصوص المسمارية صورة عن الحياة المدرسية التي كان يعيشها المتعلم • ويبدو ان طلب العلم كان يكلف ذوي المتعلم الكثير لذلك اقتصر التعليم غالبا على اولاد الميسورين من العوائل والمتنفذين ، وربما شمل التعليم الاناث ايضا ، ولكن على نطاق ضيق ، حيث ذكرت اسماء بعض الكاتبات الى جانب الكتاب •

وكان التعليم يتم ومنذ فترات مبكرة من التاريخ في مدارس خاصة وان كنا لم نكتشف ابنية المدارس بعد وربما كان التعليم يتم في بعض اجنحة

المعابد او القصور او في بيوت خاصة * وكانت المدرسة تسمى (بيت الالواح)
ويديرها مدير ويعينه في ادارتها وكيل المدير (ابو بيت الالواح) والمعلمون
على اختلاف اختصاصاتهم * اما الطالب فكان يسمى (ابن بيت الالواح) ،
وكان المتخرج من المدرسة يتفاخر بكونه قد تعلم فن القراءة والكتابة *

الحياة الدينية : -

يمكن القول ان معظم النصوص المسمارية المكتشفة ، حتى تلك التي
لا تبعد ذات علاقة بالحياة الدينية ، يمكن ان تلقى بعض الضوء على جانب من
جوانب الحياة الدينية مما يشير الى مدى تغلغل الدين في نفوس العراقيين
القدماء ومدى تأثيره في حياتهم الى درجة ظنوا ان كل ما قد يحدث
للانسان من خير او شر ما هو الا نتيجة حتمية لرضاء او غضب الالهة على
ذلك الانسان * ومع وفرة النصوص المسمارية ذات العلاقة الا انها لا تمثل
الا وجهة نظر الكهنة والقائمين بالطقوس والاحتفالات الدينية وقلما نجد
نصا يتحدث عن الممارسات الدينية التي كان الفرد الاعتيادي يقوم بها بل
علينا ان نستنتج ذلك من النصوص الاخرى *

وكما هو معروف ، بان الديانة العراقية القديمة هي مزيج من المعتقدات
السومرية والجزرية التي انصهرت في بودقة الحضارة العراقية القديمة ،
لذلك اتصفت بسممة الاستمرارية التاريخية ، أي ان المعتقدات والطقوس
والالهة العراقية ظلت محافظة على جوهرها العام على مر العصور التاريخية
ولم تتغير الا في التفاصيل * كما تميزت المعتقدات القديمة بتعدد الالهة
وبصفة التشبيه ، أي تشبيه الالهة بالبشر * اما الصفة الاخرى الاكثر اهمية
بالنسبة لحياة الفرد الاعتيادي ، فهي صفة الحيوية ، أي ان الديانة قامت
على المبدأ القائل بوجود قوى خفية وحيّة في مختلف الظواهر الطبيعية
والكونية مثل الشمس والقمر والكواكب والمطر والرعد والسماء
والارض *** الخ وبمرور الوقت جسدت هذه القوى وغدت الهة تعبد *

وكان المعبد الذي احتل مكانا بارزا في وسط المدينة ، المكان الذي تتم فيه الطقوس والاحتفالات الدينية بمعاونة الكهنة . وكان المعبد ، على مر العصور ، يتكون من جزئين رئيسيين الاول هو المعبد العلوي ، أي الزقورة والمعبد الذي كان يشيد فوقها ، وثانيهما المعبد الارضي . وغدت الزقورة من السمات المعمارية البارزة في العراق القديم ، وهي صرح مدرج يتألف من ٣ الى طبقات مربعة او مستطيلة يرقى اليها بواسطة سلالم خارجية . اما المعبد الارضي ، فقد كان تخطيطه العام يتألف من مدخل يؤدي الى ساحة واسعة لتجمع الناس واقامة الاحتفالات والمهرجانات الدينية وتنتهي الساحة بحجرة تؤدي بدورها الى حجرة اخرى تعرف بالهيكل التي كانت تعد من اقدس اجزاء المعبد حيث كان فيها محراب الاله وتمثاله . وفي غرفة الهيكل توجد ايضا دكة المذبح التي كانت تقدم عليها القرابين والاضاحي . وتكون ابواب حجرات المعبد عادة باتجاه واحد بحيث ان الواقف في حجرة المدخل كان يستطيع ان يرى تمثال الاله في محرابه . اضافة الى ذلك ، حوى المعبد على اجنحة وغرف ومرافق اخرى تحف بالساحة او ملحقة ببناء المعبد خصصت للخزن والسكن والدرس وغيرها .

وكان المعبد يضم اصنافا مختلفة من الكهنة والكاهنات ، لها تقاليدها وأزيائها وحياتها الخاصة . وكانت مهمة الكهنة الاساسية القيام بالطقوس والشعائر الدينية والاشراف على شؤون العبادات ومعاونة المتعبدين في أدائهم الطقوس الدينية اضافة الى مهام بعضهم الخاصة بادارة شؤون المعبد الاخرى الاقتصادية وغيرها . وكان من اصناف الكهنة ، بعد الكاهن الاعظم والكاهنة (سنكو) او نحر الذبائح (ناشي بطري) ومن هو متخصص بقراءة الطالع (بارو) وتفسير الاحلام والتعزيم وهناك قارئ الرقي والتعاويد والعازفون والمترلون والقائمون على تطهير المعبد ورش الدهان والزيت والبخور و . . . الخ .

وكانت ساحة المعبد مفتوحة في الايام الاعتيادية لجميع الناس ، وغالبا ما كانت تغش بالناس من الكهنة والتجار والباعة والكتبة والمتعبدين ومن له دعوى او شكوى وغيرهم ، فقد كان المعبد ، وخاصة في العصور السومرية الاولى ، بؤرة النشاط الاقتصادي والثقافي والديني في المدينة . وكانت الطقوس والشعائر الدينية تجري يوميا في المعبد تصاحبها التراتيل والاناشيد والموسيقى الدينية ، وقد كشف عن الكثير من الالات الموسيقية التي كانت تستخدم لهذا الغرض ويأتي في مقدمتها قيثارة اور الشهيرة . وكانت القرايين والنذور تقدم على ذكة المذبح وفق طقوس خاصة ومن ثم تطهى لحومها وتقدم مع الخبز والعسل والنيذ والفاكهة الى الالهة على مائدة خاصة ، حيث ظن العراقيون القدماء بان الهتهم كانت تشبه البشر من حيث صفاتها وحواسها وحياتها . وخلال تقديم وجبات الغذاء الى الالهة ، كانت روائح العطور والبخور تتصاعد من المسارج والمشاعل الموزعة في ارجاء المعبد . وكان الكهنة منشغلين باجابة الناس عن استلثهم واستفساراتهم وتفسير احلامهم او قراءة طالع بعضهم او طرد الارواح الشريرة من جسم مريض او اعطائه الوصفة الطبية اللازمة اضافة الى اشغال بعضهم الاخر بالشؤون الدنيوية من بيع وشراء وقرض الى غير ذلك من النشاطات التي كان المعبد وكهنته يقومون بها . وشاركت الكاهنات في جميع اعمال الكهنة بما في ذلك النشاطات الاقتصادية والثقافية .

وكان المعبد مكانا لعقد بعض المحاكمات واداء القسم وابرام بعض العقود كما كان المكان الذي تقام فيه الاحتفالات العامة في ايام الاعياد الدينية وخاصة اعياد رأس السنة التي كانت تجري في بداية كل عام وتستغرق احد عشر يوما مملوءة بالنشاطات الدينية والاحتفالات والمهرجانات التي يرتاح فيها الناس من تعب ومشاكل السنة المنصرمة ويستقبلون عامهم الجديد ، الذي كانت بدايته مع بداية ايام الربيع في شهر نيسان من كل عام . وكانت

احتفالات رأس السنة الجديدة تجري عادة في معبد خاص يسمى - بيت - اكينو يشيد عادة خارج اسوار المدينة وينقل الناس اليه مع تماثيل الهتهم وفق طقوس واحتفالات مهيبه وكانت مشاركة الملك في مثل هذه الاحتفالات من الامور الاساسية والضرورية وقد وردتنا تفاصيل الطقوس والاحتفالات التي كانت تجري خلال ذلك ولاسيما في الايام الستة الاخيرة من ايام الاحتفالات *

وكان الانسان الاعتيادي يعتقد بانه محاط بقوى مهيمنة على حياته منها الالهة والعفاريت الخيرة ومنها الشريرة لذلك كان يسعى دائما للتقرب الى الالهة وكسب مرضاتها لكي تحميه من الشر ورفكان يقدم لها القرابين والصلوات ويضع التماثيل والرقى ويتوسل اليها بكل وسيلة ممكنة * والى جانب عبادة الالهة القومية والرئيسة في المدينة ، كان لكل شخص اله حام يتشفع له ، كما ظنوا ، امام الالهة الاخرى ، وكانت عبادته تتم عادة في البيت حيث كان يوضع تمثاله في احد اركان البيت * وتوضح بعض المنحوتات ان المتعبد كان يقف امام تمثال الاله في وضعية الصلاة بخشوع وقد رفع يده امام وجهه بحيث تكون قريبة من الم ولعل ابرز مثال على ذلك وقفة حمورابي الخاشعة امام الاله الشمس في اعلى مسلته المشهورة التي ضمت قوانينه ، كما ان هناك العديد من المنحوتات الاشورية التي توضح ذلك *

وكان الاعتقاد السائد عند العراقيين ان اتباع الاساليب والطقوس الدينية المطلوبة في اعداد الجنازة ودفنها بالاسلوب الصحيح من الامور الضرورية لراحة الموتى في عالمهم السفلي ، وان عدم الاهتمام بذلك قد يؤدي بالميت لان يخرج روحه على هيئة شبح مخيف يؤذي اهله والمقربين اليه ، وهكذا حرص الناس وهم على قيد الحياة على ضمان اقامة الطقوس الدينية اللازمة اثناء وبعد الدفن واحيانا تبنا اولادا للقيام بهذه المهمة ان لم يكن لهم اولاد *

الخدمات العامة

ان من الصعب حقا عقد مقارنة متوازنة بين الخدمات العامة التي كانت متوافرة في المدينة العراقية القديمة وبين ما هو متوافر فيها حاليا لا من حيث تنوع وشمول تلك الخدمات ولا من حيث كفاءتها ومدى تقدمها وتطورها . ومع ذلك ، تشير المعلومات المتيسرة ، على الرغم من قلتها وندرتها احيانا ، الى وجود بعض الخدمات العامة في المدن وفرتها حكومات المدن او اداراتها في الازمنة القديمة تعد على درجة كبيرة من التقدم حتى بالنسبة الى مقاييسنا الحديثة في تقييم المجتمعات، ويمكن تلمس ذلك من خلال دراسة وتحليل بعض النصوص القانونية التي ترقى بتاريخها الى اربعة الاف سنة خلت تقريبا .

ويظهر ان اهم الخدمات التي كانت تقدمها ادارات المدن القديمة ، وخاصة في القسم الوسطي والجنوبي من العراق ، هي الخاصة بالري وتجهيز المياه واقامة المشاريع العامة لدرء اخطار الفيضانات والاستفادة منها وفت الجفاف . بل يمكن القول ان من اهم العوامل التي ساعدت على نشأة المدن وتطورها هي حاجة الناس الملحة الى مشاريع الري التي لم يكن بمقدور الافراد والتجمعات السكانية الصغيرة القيام بها فكان لابد من تجسيع الجهود وتكثيفها وتعاونها وفق اسس منظمة ، فكان ان نشأت اولى الادارات المركزية التي غدت فيما بعد ادارات مدن مهمة ومراكز حضارية ، وكانت معظم تلك المدن ، ان لم يكن جميعها ، واقع على ضفاف الانهار والقنوات والجداول الرئيسية ، وكان ازدهارها او اضمحلالها يرتبط ارتباطا وثيقا بكفاءة مشاريع الري واستمرار ادامتها . وهكذا اصبح من اولى واجبات الحكام والملوك توفير المياه للمدن والقيام بمشاريع الري ، وهذا ما تفاخر به الملوك ، ومنهم حمورابي ، الذي يقول عن نفسه : « السيد الذي جعل الوركاء تعيش ، الذي ثبت المياه الوفيرة لشعبها ... الذي وضع اماكن الرعي واماكن المياه ... » .

وتشير الرسائل الملكية المرسلة الى حكام المدن والمقاطعات الى مدى اهتمام الملوك بتطهير القنوات وتنظيفها ، ففي احدى هذه الرسائل يوجه الملك حمورابي احد حكامه قائلاً : « ادع اصحاب الحقول على شواطئ القناة لتطهيرها خلال شهر » في حين اعتذر حاكم اخر عن المشول بين يدي الملك لانشغاله باعمال خاصة بالري تستوجب بقاءه في المدينة ، ويبدو ان ذلك عدّه عذراً مشروعاً : ويستدعي حاكم آخر سكان المنطقة باجمعهم لاصلاح قنوات الري . كما يلاحظ ان الملوك والحكام أرخوا احيانا سنوات حكمهم باعمال ذات علاقة بالري مما يشير الى الاهمية التي احتلتها مشاريع الري لدى العراقيين القدماء .

وطبيعي انه لم يكن بمقدور ادارة المدينة ، سواء أمستقلة كانت أم تابعة لحكومة مركزية اخرى ، ان تقوم بتنفيذ مشاريع الري وادامتها من خلال الموظفين العاملين في الادارة لديها فقط بل كان لابد من تجنيد سكان المنطقة المستفيدة وتسخيرهم للعمل فيها لمدة محدودة ، وهذا ما تشير اليه كثير من الرسائل ومنها ما ذكر انفا . وهكذا انشأ نظام جديد خاص بتسخير الناس للعمل في المشاريع العامة واصبح من واجب كل مواطن العمل في هذه المشاريع لفترة محددة من السنة وكان لابد من وضع ضوابط وقواعد عامة لاسلوب تجنيد السكان وتسخيرهم والا اصبح التجنيد كينيا تتحكم فيه الاهواء ، كما كان لابد من وجود قواعد اخرى لاسلوب الاستفادة من مياه الارواء من قبل الفلاحين واصحاب الحقول والبساتين لضمان عملية الارواء وعدم الاضرار بحقول وبساتين الغير نتيجة التقصير او الاهمال في تقويته السداد او سد الفتحات . وكانت تلك القواعد في بداية امرها اعراف وتقاليد ثم اصبحت قوانين ملزمة صادرة عن الدولة ، يعاقب من لا يقوم بتطبيقها بصورة جيدة ، وهكذا نص حمورابي في المادة ٥٣ من

قانونه على انه : « اذا تقاعس رجل في تقوية سد حقله ولم يقوَّ سده وحدثت كسرة في سده فترك الماء يخرب الارض المزروعة ، فعلى الشخص الذي حدثت الكسرة في سده ان يعوض الحبوب التي سبب تلفها » * وتستمر المادة ٤٥ في بيان كيفية تعويض الضرر فتقول : « فان كان غير قادر على تعويض الحبوب ، فعليهم ان يبيعوه وممتلكاته وعلى المستأجرين (الفلاحين) الذين اتلف الماء حبوبهم ان يقتسموا (الثمن) » وهي عقوبة نظيفة جدا تعكس لنا مدى اهتمام الدولة بالمحافظة على حقوق الناس وعدم السماح لاي كان الاضرار بها * وتنسب المادتان ٥٥ و ٥٦ الى الموضوع نفسه ولكن في حالة تقاعس الفلاح في فتح جدولته اثناء السقي مما اضر بالحقل المجاور ، عندها يعوض جاره حبوبا بقدر ما تسبب في اضراره ، فان كان التخريب قد وقع قبل نمو النبات ، فعليه ان يعرضه استنادا الى مساحة الارض المعدة للزراعة *

ولمراقبة حسن تنفيذ وتطبيق ما ورد في القوانين وما تعارف عليه الناس من قواعد واعراف غير مدونة ، كان لابد من وجود مفتشين ومراقبين حكوميين دائمين ، عندهم من السلطة ما يكفي لتطبيق القواعد القانونية قسرا عند الحاجة * وهكذا نشأ نظام شبيه بنظام الشرطة ولكنه على هيئة مفتشين ومراقبين للقنوات عرف الواحد منهم باسم گوکالو

وفي بلاد اشور ، حيث من الصعب ارواء الحقول والبساتين بمياه النهر عن طريق شق الجداول والترع نظرا لانخفاض مناسيب المياه في النهر عن مستوى الاراضي المجاورة ، لذا كانت طريقة الزراعة الشائعة هي الزراعة الدائمة ، اضطر بعض الملوك الاشوريين الى جلب المياه الى المدن من اماكن بعيدة لكي يمكن ارواء الحقول والبساتين الخاصة بالمدينة المهمة كمدينة نينوى ومدينة اربيل ومدينة تريبصو ، لذا قام سنحاريب (٧٠٥-٦٨١ ق م)

بجلب المياه من مسافة تبعد اكثر من خمسين ميلا الى مدينة نينوى واقام من اجل تنفيذ ذلك المسناة والسدود والقناطر التي تعد من اروع المنجزات التي قام بها سنحاريب ، ويتحدث سنحاريب عن ذلك نفسه فيقول : « لقد حفرت قناة : الى مروج نينوى واقمت جسرا من الصخر عبر الوادي العميق وتركت المياه تعبر فوقه » وقام سنحاريب بمشروع آخر جلب بواسطته المياه الى مدينة اربيل .

ومن الخدمات الاخرى المهمة التي وفرتها ادارات المدن القديمة للسكان هي المحافظة على الامن والاستقرار وحماية السكان من اي اعتداء خارجي او فوضى داخلية . وكان من اهم واجبات حاكم المدينة وجهازه الاداري ومسؤولياته امام الملك هو ضمان ذلك . ولتحقيق ذلك كان لكل حاكم مدينة ، وخاصة في العصور المتأخرة ، قوة عسكرية خاصة تابعة له على اهبة الاستعداد لمواجهة اي خطر يهدد المدينة من الخارج ، خاصة المدن الحدودية التي كانت معرضة دوما لغارات واعتداءات الاقوام والقبائل المجاورة . وهذا ما نجده واضحا في احدى الرسائل التي بعث بها حاكم احدى المقاطعات الى الملك الاشوري قائلا : « بالنسبة الى حاكم احدى المدن التابعة له ، والذي كان يلقب عادة بلقب راب - الان (rāb ālān) اي (رئيس المدينة) : « ارسلت قواتا مع الراب - الان وجعلتهم يتقدمون بخط قتال ، وقد جرح ضابط الراب - الان مع تسعة رجال بالسهم وقتل اثنان من العدو وجرح ثلاثة » . والاشارات الى صد الغارات على المدن الحدودية كثيرة وخاصة في العصر الاشوري الحديث .

اما بالنسبة الى حفظ الامن الداخلي ، فكان من واجبات قوات اخرى تابعة لحاكم المدينة وان معلوماتنا عنها قليلة نسبيا . ففي العهد البابلي القديم ، ورد في قانون حمورابي وفي النصوص المسمارية من هذه الفترة ذكر لبعض اصناف القوات المسلحة التي يمكن مقارنة واجباتها واعمالها

بواجبات واعمال ما يعرف بقوة الدرك ، اي انها كانت تجمع بين واجبات القوات العسكرية وقوات الشرطة ، واشير الى هذه القوات بمصطلح ريديم redum الذي يترجم عادة بالجندي . وتشير الرسائل والنصوص المعاصرة الى ان الريديم لم يكن تابعا للقصر ، أي للحكومة ، فقط بل قد يكون تابعا للمعبد او لبعض الموظفين او لبعض القضاة مما يلقي الضوء على طبيعة الاعمال التي كان يقوم بها ، كما ورد في بعض النصوص ذكر لرئيس الريديم (واكل ريديوتم) و (شابر ريديوتم) مما يدل على ان هذه القوات كانت منظمة فيما يشبه الصنف او النقابة . وقد حدد قانون حمورابي في عدد من مواده كيفية اعطاء هذا الصنف من الوقات الاراضي الملكية ومنحهم بعض الحقوق والامتيازات وحمايتهم من المتنفذين والاغنياء وكذلك تثبيت حقوقهم في حالات الاسر والوفاة اثناء الخدمة العسكرية وفي الوقت نفسه معاقبتهم بقسوة عند المخالفة . اما حالات الاضطرابات والفوضى الشديدة التي قد تعم المدينة ، فكانت تعالج بواسطة مجموعة خاصة من القوات العسكرية المتخصصة بمثل هذه الامور وقد اشير الى احداها بالنسبة الى مدينة اشور وهي قبيلة ايلتو .

والى جانب ذلك ، لابد وان كان هناك في كل مدينة جهاز أمني مسؤول عن حماية وحراسة المدينة وطرقها والمحافظة على أمن وسلامة سكانها وغيرهم من المتواجدين فيها ضد المجرمين وقطاع الطرق الذين قد يعبثوا بالنظام . وقد اشارت النصوص السومارية الى حالات قبض فيها على المجرمين وحقن معهم وتم توقيفهم او ارسالهم الى العاصمة للمحاكمة ، وفي قانون حمورابي اشارات صريحة حول مسؤولية المدينة وحاكمها تقديم هذه الخدمات للمواطنين وضمان امنهم وسلامتهم وبعبكسه تتحمل المدينة وحاكمها مسؤولية اي ضرر قد يقع على المواطنين من جراء اللصوصية التي تحدث بطبيعة الحال نتيجة لضعف الجهاز الامني في المدينة . فالمادة ٢٣ من قانون

حمورابي تنص على انه « اذا لم يقبض على السارق ، فعلى الرجل المسروق ان يعرض امام الاله عما فقدته وعلى المدينة والحاكم الذي حصلت في ارضه ومنطقته السرقة ان يعوضه ما فقد منه » * وتستمر المادة ٢٤ لتقول : « فان كان نفس (قد فقدت اثناء السرقة) ، فعلى المدينة والحاكم ان يدفع ماثا من الفضة لاهلها » * ان هذين النصين الواضحين لا يؤكدان مسؤولية المدينة وحاكمها في المحافظة على الامن وحماية المواطنين من المجرمين فحسب بل انهما يشيران الى مدى تفهم المشرع العراقي القديم لفكرة تغطية خطر السرقة التي قد يتعرض لها المواطنون ، اي لفكرة التأمين ضد السرقة ، وهي فكرة لم تظهر في المجتمعات الاوربية الا في القرون الوسطى في حين حددها حمورابي بأسلوب يتطابق تماما مع الاسس والقواعد الخاصة بالتأمين ضد السرقة في العصور الحديثة فحدد الخطر الذي يمكن لحاكم المدينة تغطيته وبين مبلغ التعويض المتمثل بما يقابل المسروقات ، أي الضرر ، وحدد من له حق بطلب التعويض والجهة التي تقوم بالتعويض وهي الحاكم ، الذي يشرف على خزانة المدينة المكونة من الضرائب التي تمت جبايتها من المواطنين * ان هذا النوع من الخدمات الاجتماعية يضع مجتمع المدينة العراقية القديمة في مصاف ارقى المجتمعات الحديثة التي تتباهى حاليا بتطبيقها مبادئ حديثة تخفف من وطأة الاضرار التي قد تقع على المواطنين كأخطار السرقة وذلك بتطبيق مبدأ التأمين الذي طبقه حمورابي قبل اربعة الاف سنة تقريبا *

ولم يكتف المشرع العراقي القديم بهذا القدر من الحماية والضمان الذي وفره لجميع المواطنين دون استثناء بل انه خص بعض المواطنين بحماية اضافية نظرا لجهودهم الكبيرة وعطائهم الخاص في حماية الدولة نفسها فاشارت المادتان ٢٨ و ٢٩ من قانون حمورابي الى خطر الاسر الذي تتعرض اليه بعض اصناف القوات المسلحة ، وهم الرويدوم والبائيروم ، لذلك

نصت على اسلوب حماية وتعويض اسر هذين الصنفين في حالات الاسر ومسؤولية الدولة عن ذلك ، فالمادة ٢٨ تنص على انه « اذا ريدوم او باثيرون اسر في اثناء الخدمة العسكرية للملك وكان ابنه قادرا على القيام بالالتزامات الاقطاعية ، فعليهم ان يعطوه الحقل والبستان وعليه ان يمارس حقوق والده الاقطاعية » في حين تنص المادة ٢٩ على اعطاء والد الابن القاصر ثلث الحقل والبستان لكي يتسنى لها القيام بتربيته . وليس هذا فقط ، بل كان على المدينة او الدولة من خلال معبد المدينة او قصر الحاكم ان تفتدي المواطن من هذين الصنفين من القوات المسلحة في حالة اسره وعتقه من قبل تاجر وذلك بان تدفع للتاجر ما يكفي لافتدائه ان لم يكن لديه مال منقول يكفي لذلك ولا يجوز بيع امواله غير المنقولة وهكذا نصت المادة ٣٢ من قانون حمورابي : « اذا اسر ريدوم او باثيرون في اثناء حيلة الملك واعتقه تاجر واوصله الى بلدته ، فاذا كان يوجد في بيته كفاية للعتق فعليه ان يعتق نفسه اما اذا لا يوجد في بيته ما يكفي لعتقه ، فيعتق من بيت اله بلدته ، فاذا لا يوجد في بيت اله بلدته ما يكفي لعتقه ، فعلى القصر ان يعتقه ولا يجوز ان يعطي حقله وبستانه وبيته مقابل عتقه » . وتمثل هذه المادة دون شك ارقى ما يمكن ان تصله المجتمعات في حماية مواطنيها من المحاربين على وجه الخصوص ضد حالات الاسر وما ينتج عنه من ضياع .

ومن الخدمات الاخرى التي قدمتها المدن للمواطنين هي ضمان حسن تطبيق القوانين ومحاسبة المقصرين ومعاقبتهم وتعويض المتضررين . وكان ذلك يتم من خلال جهاز خاص بالمحاكم حيث يعمل القضاة لدى الدولة متمثلة بالقصر او المعبد ويقدمون خدماتهم للمواطنين دون استثناء . وعلى الرغم من ان معلوماتنا عن المحاكم والقضاة قليلة مقارنة مع ما هو متوافر من نصوص قانونية ، الا انها كافية لاعطاء صورة عامة عنها ولاسيما في العصر البابلي القديم . فقد كان لكل مواطن الحق في اقامة الدعوى ضد أي شخص كان قد ظلمه او غبن حقه حتى وان كان موظفا حكوميا ، ولكن في الوقت

نفسه كان عليه ان يتبت التهمة الموجهة الى خصمه والا عرض نفسه لعقوبة قاسية توازي العقوبة التي كان خصمه مهدد بها ، وقد جاء هذا المبدأ القانوني الرائع حماية للمواطنين من عبث العابثين ومحاولاتهم الاساءة الى الخير او التشهير بهم او ابتزازهم •

وكان القضاة ، ومنهم من كان خاصا بالمعبد واخرين بالقصر او قضاة غير تابعين لمؤسسة معينة ، ينظرون في القضايا المحالة لهم من المحاكم او الملك او تلك التي يرفعها المواطنون ضد خصومهم ، وربما كانت المحاكمات تجري في احد اجنحة المعبد او القصر او في مكان مخصص لذلك مستقل حيث ورد في بعض النصوص الاشارة الى بيت القضاة • وكان على القضاة ان يدققوا في القضية المعروضة امامهم ويستسعوا الى شهادات الشهود بعد ان يؤدي كل واحد من الشهود اليمين القانونية امام تثال الاله كما كان عليهم ان يستسعوا الى افادة المتهم وشكوى المدعي واخيرا يصدر القرار المناسب استنادا الى ما كان معسولا به من قواعد قانونية ، وليس هناك اشارات الى ان القرارات كانت تشير الى المواد القانونية الواردة في قانون حمورابي مثلا وان اشار احد النصوص الى المسئلة بالنسبة الى تحديد اجور بعض الاجراء • وكان قرار القضاة يحرر على لوح من الطين ويذكر فيه اسماء الشهود وربما اسم القاضي ويختتم ويذيل بالتاريخ • اما اذا عاد القاضي وغير من حكمه الذي اصدره بسبب رشوة او تأثير متنفذ ، عندها يعاقب معاقبة قاسية حيث نصت المادتان الرابعة والخامسة من قانون حمورابي على طرد القاضي من كرسي القضاة وتغريمه اثني عشر مثل الدعوى التي غير فيها قراره • كما كانت عقوبة شاهد الزور قاسية جدا حيث كان يتحمل تبعات شهادته فان لم يثبتها عوقب بسثل ما كان سيعاقب به المتهم ولو ثبتت ادانته • وكان في معظم المدن العراقية القديمة ، وعلى وجه الخصوص في العهود

السومرية والبابلية ، مجلس من مسني المدينة كان يقوم احيانا بدور القضاة حيث كان ينظر بالقضايا التي تعرض عليه ويصدر قراره بشأنها *

ليس من المتوقع ان نجد في مدن العراق القديم من الخدمات الطبية الكثير التي تتوافر في مدن العصر ، غير ان ذلك لا يعني انعدام الخدمات الطبية في المدينة العراقية القديمة بل تشير كثير من النصوص المسارية الى المدى الذي وصل اليه الطب في العصر البابلي القديم الى درجة ان خصصت عدة مواد من قانون حمورابي لتحديد اجور الطبيب وتحميله مسؤولية التقصير والاهمال في مهنته * وقد تم العثور على مئات من النصوص المسارية التي امدتنا بعلومات وافية عن الممارسات الطبية غير ان ما يؤسف له ان لغة كثير من تلك النصوص لغة غامضة واهيانا غير مفهومة تماما وربما قصد الكاتب ان تكون كذلك لاضفاء نوع من القدسية والغموض على الممارسات الطبية بحيث لا يفهم النصوص الخاصة بها الا المختصون حتى ان بعض تلك النصوص يذكر العبارة « ليعلم الشخص المتعلم غير المتعلم والذي لا يعرف لا يستطيع قراءتها والذي لا يحفظ السر عسى ان لا يبقى صحيح البدن وان تقصر ايامه » *

وقد ميز العراقيون القدماء ، بين نوعين من الطب والاطباء ، الطب السحري (اشيبوتو ashiputu) بمعنى السحر والتعويذ ، والطب العلمي. (اسوتو asûtu) أي الطب والتطبيب * وينسحب هذا التميز على القائمين بتقديم الخدمات الطبية فسمي الاول اشيبو والثاني اسو فاما الاول ، فكان يدل على الساحر المعوذ الذي كان ينتمي عادة الى طبقة الكهنة وكانت وظيفته الرئيسة طرد الارواح الشريرة والعفاريت ، التي تدخل جسم الانسان فتسبب له المرض ، وذلك من خلال اجراء بعض الطقوس السحرية ومن ثم يعرف المرض ويشخص ويعطى له الدواء * اما القائم بالطب العلمي ، اسو ، فيعني اسسه ، كما يظن ، (العارف بالماء) او (العارف بالزيت) ومع

ذلك ، لم يكن هنا لفصل كامل بين هذين النوعين من الطب فغالبا ما كان الطب العليي يغلف بقطوس سحرية لمعالجة المريض نفسيا واعطاء الدواء اللازم لمعالجته عضويا .

ويبدو ان تعليم الطب كان يتم من خلال التدريب والممارسة الطويلة مع الاطباء المتربين وربما كانت هناك مدارس خاصة تابعة للعباد لتعليم مبادئ التطبيق حيث ذكرت اسماء بعض المدارس الطبية كدرسة نيور ومدرسة ايسن ومدرسة بورسبا ، وقد تفاخر احد الاطباء الاشوريين بانه كان طبيبا كبيرا ماهرا من مدرسة ايسن في حين ينير نص آخر الى التطبيق وحسب طريقة بورسبا ، واخر يذكر ان على المريض ان يذهب الى مدينة بورسبا للعلاج . وتشير احدى الرسائل المكتشفة في مدينة ماري على نهر الفرات بان الاطباء كانوا ينتظسون فيما يشبه النقابة المهنية طبقا لدرجاتهم ومراتبهم حيث نجد منهم من يحصل لقب رئيس الاطباء وورد لقب مساعد رئيس الاطباء وكان هناك عدد من الاطباء يعملون في البلاط الملكي في حين عمل اخرون خارج القصر والمعبد . وورد ذكر بعض الاطباء المتخصصين بالعيون والجراحين والمختص بالاسنان والطبيب البيطري . ولا بد انه كان هناك قابلات للتوليد .

وفيه من بعض الرسائل التي تتحدث عن ارسال الاطباء لمعالجة مرضى معينين انه كان على الطبيب معاودة مرضاه في بيوتهم ان كانوا من الاسرة الحاكمة او الطبقة المتنفذة ، كما كان عليه ان يقدم تقريرا عن حالة المريض الصحية . اما المرضى الاعتياديون ، فلا بد أنهم كانوا يراجعون الطبيب في بيته او مكان عمله ، ان كان لديه مكان عمل مستقل ، ويطلبون اليه المعالجة لقاء اجور مرتفعة احيانا غير انها كانت تتناسب وخطورة المرض اولا ومركز المريض الاجتماعي والاقتصادي ثانيا ، وهذا ما اشارت اليه صراحة قوانين حورابي . اما في حالات فشل الطبيب ، ولاسيما الجراح ، في مهمته وتسببه في

موت المريض او اتلاف عضو من اعضائه نتيجة الاهمال والتقصير ، عندها يحاسب حسابا عسيرا •

وكان الطبيب يرتدي زيا خاصا ويحلق رأسه بأسلوب خاص تميزا له عن غيره وكان يحصل حقبة مملوءة بالالات الخاصة بالجراحة والضمادات مع بعض الاعشاب والعقاقير الاخرى وقناني لا بد انها تسلا بالزيت او الجعة كما يهم ذلك من مشهد خاص بطبيب نحت على ختم اسطواني ، كما ان احد الاطباء الاسوريين تفاخر قائلا « انا طبيب اعرف كيف ادوي واحمل معي جميع الاعشاب (اي الادوية) ، انا مجهز بحقبة مملوءة بالتعاون وحمل جرة •• وامنح العافية » مما يشير الى ان الاطباء كانوا يستخدمون بعض الرنى والتعاويد الى جانب الادوية لمعالجة مرضاهم •

وكان الاطباء يستمعون بسرور اجتاعي مرموق ، وربما كانوا في مقدمة الفئات الاجتماعية ، ونال بعضهم شهرة واسعة حتى انهم كانوا يستقبلون مرضاهم من مدن اخرى او يرسلون الى بلدان اخرى لمعالجة بعض الملوك والحكام • ومع كل هذه المعلومات الا ان معلوماتنا عن دور العلاج قليلة حيث لم نرد اشارات واضحة عن بنايات المستشفيات وان ذكر في احد النصوص مكان خاص لمعالجة المغنين والمغنيا التابعين للسعيد •

وتشير التنقيبات الاثرية التي اجريت في مدن العراق القديمة المختلفة وخاصة الكبيرة منها مثل بابل واسور ونيوى ، ان سكان تلك المدن عاشوا في ظل خدمات بلدية تضاهي احيانا الخدمات التي تقدمها بلديات المدن الشرقية في الوقت الحاضر • فقد كان يقسم المدينة عدد من الشوارع الرئيسية والواسعة التي كانت تؤدي غالبا الى مركز المدينة وتنتهي من الجهة الثانية باحدى بوابات المدينة ، وكان كثير من هذه الشوارع مبلطا بالآجر وحيانا بقطع من حجر الرخام او الصخر • وطبيعي ان مثل هذه الشوارع التي نجدها في المدن العواصم ، كانت معدة للاحتفالات الدينية والرسمية

ولاستقبال القطعات العسكرية واقامة المهرجانات ، وكانت مثل هذه الشوارع تسمى باسماء خاصة غالبا ما تحمل اسم البوابة التي تؤدي اليها . الى جانب ذلك ، هناك شوارع ضيقة تقسم الاحياء السكنية والمباني العامة الاخرى وناخذ الشكل الذي تمليه الابنية لذلك كانت تتسع وتضيق حسب الابنية المشيدة على جانبيها وتشكل عموما شبكة غير منتظمة . اضافة الى ذلك ، هناك الازقة الضيقة التي لا تعدو كونها فواصل ضيقة تفصل بين البيوت السكنية . ولا بد وان كان هناك ساحات واسعة في المدينة لتجمع السكان في ايام العطل والاحتفالات او لانخاذها اسواقا مفتوحة .

وقد يقطع المدينة نهر ، كمدينة بابل او كوتا ، عندها تظهر الحاجة الى وجود جسر يصل بين جزئي المدينة ، وهذا ما نجده في اثار مدينة بابل حيث اقيم جسر مؤلف من خمس قناطر على نهر الفرات ليصل بين جزئي المدينة .

ويحدثنا سنحاريب بأنه اقام في مدينته نينوى حديقة واسعة جمع فيها مختلف انواع النباتات وجلب اليها نباتات من جميع الاقاليم والبلدان التي وصلت اليها جيوشه بما في ذلك اشجار الصوف (أي القطن) . كما اشار ملوك اخرون الى الحدائق الغناء التي اقاموها في عواصمهم ولعله تكفي الاشارة هنا فقط الى الجنائن المعلقة التي عدت من عجائب الدنيا السبع لتعرف مدى اهتمام ملوك العراق القدامى بالحدائق والبساتين وجلب المياه لسقيها . كما اشار بعض الملوك ، ومنهم سنحاريب ، الى اهتمامهم بالحيوانات وكيف انهم جبعوا مختلف انواع الحيوانات ووضعوها في حديقة حيوان خاصة .

ومن الخدمات الرئيسة التي وفرتها المدن الى السكان هي تجهيزها بالمياه العذبة للشرب . ولم يكن تجهيز المياه في مدن جنوب العراق ليخلق مشكلة رئيسة طالما كانت المدن على شواطئ الانهار وان تجهزها بالمياه

العذبة بواسطة القنوات والجداول كان من الامور السهلة * غير ان المشكلة تظهر في مدن شمال العراق والمدن الواقعة بعيدا عن مجرى المياه مما اضطر الملوك الى جلب المياه الى المدينة من اماكن بعيدة كما فعل سنحاريب عندما جلب المياه من جروانة على بعد خمسين ميلاد الى نينوى بواسطة قنوات وقناطر اقام بعضها على الوديان العميقة واقام السداد على نهر الخوصر لرفع مناسيب المياه ومن ثم تمكن من ايصاله الى مدينة نينوى وما جاورها * وفعل الشيء نفسه بالنسبة الى مدينة اربيل * وفي حالة الحصار او الجفاف ، كان الناس يعتمدون على مياه الابار والعيون وكان في كل مدينة كبيرة عدد من الابار يصل عمق بعضها اكثر من ثلاثين مترا وقد اظهرت التنقيبات في مدينة النمرود عددا من هذه الابار وكان احدها لا يزال ينتج ما قدره خمسة الاف غالون من الماء يوميا وقد عثر في البئر نفسه على بكرة خشبية مازالت عليها اثار احتكاك الجبال واضحة بينما كان هناك عدة عشرات من الاواني لا يزال على رقبة بعضها قطع من الجبال التي استخدمت لتولف سلسلة من الاواني تعمل بدولاب لسحب المياه من البئر * وقد ذكر سنحاريب بعض اساليب سحب المياه من الابار عند حديثه عن اعادة بناء نينوى قائلا :

« ولأجل سحب الماء يوميا ، امرت بعمل الجبال والاسلاك البرونزية ، والسلاسل البرونزية وثبتت الاعمدة والقضبان العرضية على الابار بدلا من الاعمدة الخشبية » *

نخلص من هاذ الموجز السريع بان مجتمع المدينة في العراق القديم كان قد قطع شوطا بعيدا في مضمار التقدم الاجتماعي والخدمي ، وما الاصلاحات والقوانين الاجتماعية التي اصدرها الملوك والحكام منذ اكثر من اربعة الاف سنة لوضع الضوابط والاحكام وارساء القواعد والنظم التي يسير عليها افراد المجتمع بهدف تنظيم حياتهم وتحديد تصرفاتهم بما يخدم مصلحة

المجسوع ويضمن حقوق وحرية الفرد والجماعة الا دليل ناصع على ذلك *
وتشير الاصلاحات والقوانين الى ان الضوابط والقيود والاحكام التي ظمت
الحياة الاجتماعية في العراق القديم لم تكن تختلف كثيرا عما كانت عليه في
الفترات التالية ، بل ان الملاحظ ان هناك العديد من الاحكام والقواعد
والاعراف والتقاليد السائدة في مجتمعاتنا المعاصرة ما يمكن ارجاع اصوله
وجذوره البعيدة الى القواعد القديمة التي تطرقت اليها قوانين حمورابي
وغيرها من القوانين ولنا في تقاليد ومراسيم واحكام الزواج وتنظيم العائلة
وحالات الطلاق وتوزيع التركة والتحجب وغير ذلك خير الامثلة *

كما تشير بقايا الاحياء السكنية المكتشفة في مدن العراق القديمة بما
فيها من بيوت وشوارع وازقة الى ان العراقيين القدماء قد نجحوا نجاحا
كبيرا في توظيف ما هو متيسر لديهم من مواد انشائية لانشاء بيوت سكنية
تتلاءم وتقلبات الجو العراقي على مدار السنة وتطرفه احيانا حتى خلال
اليوم الواحد ، فاستخدموا الطين او الآجر مادة اساسية للبناء وجعلوا
جدران البيت سبيكة وغلفوها من الداخل بالقيز او الرخام ومن الخارج
بالطلاء الابيض وسقفوها بالخشب والطين ، ولم يتركوا منفذا فيها الا ما هو
ضروري للانارة والتهوية كل ذلك بهدف عزل مكان السكن عن الحرارة
المحركة والبرودة القارصة ، وفعلوا الشيء نفسه بالنسبة لتأثيث البيت حيث
استخدموا المواد الرخيصة والمتوافرة لصناعة اثاث بسيط ينسجم وحاجاتهم
الضرورية ، فكانت معظم الاواني المنزلية مصنوعة من الفخار او الحجارة او
الخشب الى جانب الاواني المعدنية غالية الثمن *

وقد وفرت حكومات المدن واداراتها العديد من الخدمات العامة
لتيسير الحياة واستغلال الموارد الطبيعية المتوافرة لخدمة الانسان فكان ان
قامت تلك الادارات ومنذ اقدم العصور بتنفيذ مشاريع الري وايصال المياه
الى الحقول والبساتين والى داخل المدن واصدرت القوانين التي تحدد

اسلوب الاستفادة من مياه القنوات والجداول ومحاسبة المهمل والمقصر ووضعت المراقبين والمشرفين لمتابعة حسن تنفيذ وتطبيق القوانين • كما وفرت الادارات الامن لافراد المجتمع وهم في اماكن سكناهم وفي الطرق العامة وعاقبت بقسوة كل من يعتدي على الغير وحملت القوانين حاكم المدينة او المنطقة مسؤولية المحافظة على أمن الطرق العامة وتعويض من يتعرض من المواطنين الى السرقة وهو ضمن حدود المنطقة الى جانب ذلك ، قامت ادرات المدن بتقديم بعض الخدمات البلدية والطبية بما يتناسب والفترات الزمنية القديمة •

ومع كل ذلك ، فقد كانت معظم الخدمات تتركز في المدن الرئيسية ولاسيما العواصم ، في حين افتقرت المدن الصغيرة والقرى الى الكثير من الخدمات ، وهي ظاهرة كانت ولا تزال قائمة في معظم بلدان العالم قديما وحديثا •

اهم المراجع

- د . سامي سعيد الاحمد ، العراق القديم ، بغداد ، ج ١ (١٩٧٨) ج ٢ (١٩٨٠) .
- ليو اوبنهايم ، بلاد ما بين النهرين ، شيكاغو ، ١٩٦٥ ، ترجمة سعدي فيضي .
- طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج ١ ، بغداد ١٩٥٥
- طه باقر ، فاضل عبدالواحد وعامر سليمان ، تاريخ العراق القديم ، بغداد ، ١٩٨٠ .
- د . فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ .
- د . جورج رو ، العراق القديم ، ترجمة حسين علوان حسين ، ١٩٨٤ .
- نخبة من الباحثين العراقيين ، حضارة العراق ، ج ١ ، ج ٢ ، ج ٣ ، بغداد ١٩٨٥ .
- هـ . ساكر ، عظمة بابل ، لندن ، ١٩٦٦ ، ترجمة د . عامر سليمان .
- د . عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، موصل ١٩٧٧ .
- د . فاضل عبدالواحد و د . عامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، موصل ١٩٧٩ .
- كريم ، السومريون ، شيكاغو ١٩٦٣ ، ترجمة د . فيصل الوائلي
- كريم . من الواح سومر ، شيكاغو ، ترجمة طه باقر .
- جورج كوتينو الحياة اليومية في بلاد اشور ، لندن ، ١٩٥٤ ،
- ترجمة سليم طه وبرهان عبد التكريتي ١٩٧٩ .
- رضا الهاشمي ، نظام العائلة في العهد البابلي القديم ، بغداد ،
- G. R. Diver and J. Miles, The Babylonian Laws, Oxford, 1955, --
- Assyrian Laws, Oxford, 1936.
- A. Goetze, The Laws of Eshmuma, AASOR, 31 (1956).
- H.W.F. Saggs, The Might that was Assyria, London, 1984. Everyday
- Life in Babylonia and Assyria, London ١٩٦٥.

الفصل السابع

اقتصاد المدينة العراقية القديمة

الدكتور فاروق ناصر الراوي
استاذ مساعد كلية الاداب / قسم الآثار
جامعة بغداد

تطورت المستوطنات القديمة الى مدن بعد ان زاد الاستيطان وكثر العمران بها • وتدل القرائن الاثرية ان طليعة تلك المدن كانت مدينة اريدو • ولا عجب اذن ان تشير قائمة الملوك السومريين ، التي تعد من اهم مصادرنا عن التاريخ القديم ، الى ان مدينة اريدو من جملة خمس مدن كانت قد تأسست قبل الطوفان • وثبتت المخلفات المستظهرة وجود مركز ديني «المعبد» الذي استخدم كسركز اداري واقتصادي لمثل تلك المدن • وكان لمدينة اريدو والمدن الاخرى التي كشفت عنها التنقيبات ومن نفس الفترة اقتصادا زراعيا كفوءا جدا يستند الى نظام ري منتظم اضافة الى وجود بعض الحرف الصناعية مثل صناعة الاجر والمناجل والسكاكين والالات وادوات الحرب وبعض الصناعات الخاصة بالحلي كصناعة الدلايات والخرز وهناك ايضا صناعة الاواني الحجرية والفخارية وبضمنها الاواني المستخدمة للاغراض الدينية اضافة الى صب وسبك بعض المعادن •

كما تدل المخلفات الانارية على اهتمام سكنة المدن الاولى بالصيد وبخاصة صيد الاسماك حيث وجدت كميات كبيرة من عظام الاسماك التي قدمت كقرايين للالهة ويشير هذا دون ادنى شك الى اهمية صيد الاسماك في اقتصاد المدينة آنذاك ، كما يدل على اهتمام المجتمع بالاله الخاص بالانهار والبحار وهو الاله ايا الذي تعرفنا عليه عبر النصوص المسمارية التي جاءت من فترات لاحقة ويعد معبده الخلية الرئيسة لعمل المجتمع العراقي آنذاك .

ان انتشار الصناعات الحرفية لمدينة اريدو والمدن الجنوبية الاخرى وفي مواقع متعددة من بلاد وادي الرافدين والبلدان الدانية والقاصية ، كبلاد فارس وجنوبي انضوليا ووسطها والخليج العربي وسوريا ومصر وربما السند، ادى الى انتشار التجارة وتبادل السلع والخبر فيما بين تلك المجتمعات ويمكن اعتبار عصر بداية ظهور المدن العراقية القديمة اول بواكير تبلور الوحدة الحضارية للعراق لابل يمكن ان يشير الى تعزيز الوحدة الحضارية للوطن العربي التي تستمد اصالتها من جذورها القديمة الممتدة عميقا في تربة هذه الارض المعطاء وقدمها قدم وجود الانسان .

وفي هذه الفترة بالذات تم وضع الاسس المتينة للحضارة العراقية القديمة التي تبوأ الصدارة اكثر من ثلاثة الاف سنة والتي وضعت بصماتها على الحضارات اللاحقة ووصولا الى الحضارة حتى يومنا هذا .

والحديث عن فترة نشأة المدينة وتطورها يقودنا الى طبيعة التشكيلات الاجتماعية السائدة وتقسيم العمل فيما بين شرائح المجتمع وبناء المشاريع العامة وتنظيم الحياة الدينية والدنيوية والمجتمعات القروية ودورها في توفير القوت لسكنة المدن وغير ذلك ، فلقد ساعد التعقيد هذا على ايجاد ابتكارات مهمة غيرت مجرى حياة الناس عامة مثل ابتكار العجلة ودولاب الفخار والتقنيات المتعلقة بهما كتحويل محور حركة العجلات لصناعة المزارف او ما الى ذلك . فضلا عن تطور اعمال التعدين والصب والسبك للمعادن .. ووصولا الى

تطور المعارف بالكيمياء وتعقد العمليات الحسابية والعمل على ايجاد انجح الطرق والوسائل لحل تلك المعضلات كل ذلك اضافة الى رفع الروح المعنوية للناس وضبط علاقاتهم الاجتماعية التي تحكمها التوجيهات والمثل الدينية المتطورة .

وزودتنا الحفريات التي جرت في بعض المعابد بالكثير من الرقم الطينية التي كتبت بالخط الصوري ثم المسماري والمدون عليها جرايات من الحبوب وبخاصة الشعير والحبّة واللحوم والملابس للقائمين على خدمة المعابد او للعاملين في الحقول التابعة لها . وخير مثال على ماوصلته المدن العراقية القديمة من مستوى التقدم يمكن ان تمثله لنا بقايا مدينة الوركاء التي كان يقطنها مايقارب ٤٠/١٠٠٠ - ٥٠/١٠٠٠ الف نسمة يسكنون في بيوت مشيدة من الطابوق او اللبن وجلهم مرتبط اقتصاديا بالمعبد او بقصر الحاكم ، او باتحادات تشبه الجمعيات على حد رأي العلماء السوفيت ، وعثرت هيئات التنقيب على الكثير من قطع الاثاث المنزلية التي تشير الى وجود حرف مثل النحت ، والكتابة، والنجارة ، والحداة ، والصياغة وصناعة الطابوق واللبن ، والحياسة ، واعمال الدباغة ، وصناعة الجلود ، وصناعة الاواني الفخارية والحجرية وصناعة الاختام الاسطوانية . وتركت بصمات اولئك الحرفيين على اعمالهم لتشهد بدورهم في بناء الحضارة العراقية .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يعيش مثل اولئك الحرفيون ؟ . ولناخذ على سبيل المثال النحات الذي يتوجه الى محل عمله مارا بالمعبد لتقديم الصلاة لاجل مباركة يوم عمله . ولان مايعمل عليه هو الحجر النادر والمستورد من بلاد بعيدة توجب عليه العمل بدقة ومهارة فائقة والا فمصيره العمل الشاق في حقول او مشاغل المعبد الاخرى كيف لا وما يقوم بصناعته خاص بالمعبد وبالالهة احيانا او بالحاكم نفسه . ولذلك فلقد جاءت منحوتاتهم دقيقة الصنعة ومعبرة عن مختلف اوجه الحياة الدينية والاجتماعية وكان النحات

يأخذ اجرا من المعبد او من قصر الحاكم مقابل اعماله • واجره بطبيعة الحال، هو الطعام الكافي والكسوة وكان عليه ان يستلم الجرايات الخاصة به من المعبد او القصر مع زملائه الآخرين او مع الحرفيين الآخرين وكلهم يأخذون طبقا لاهمية الاعمال التي تناط بهم وربما تدور الاحاديث فيما بينهم حول السلع المنتجة والامور التي تقع بالمدينة وحول انتاج الحقول وكمية المحاصيل، وحظ كل منهم او دوره في الاحتفالات والمهرجانات الدينية وما الى ذلك •

ويدون اجر كل واحد منهم على لوح من الطين يكتب من قبل الكتاب المختصين لان عدد الكتاب كان محدودا ولان معظم القصص والملاحم البطولية والتراويل الدينية كانت تحفظ من قبل الجميع وتنتقل شفاهيا •

وكان النحات وغيره من مواطني مدينة الوركاء يعتزون بالمنجزات الحضارية لبلدتهم وبلادهم ويساهمون بكل فخر في الاحتفالات العامة ويتزينون ويتظاهرون ويلبسون افخر ما عندهم من ملابس ويتطيّبون قبل دخولهم المعابد على ان غالبيتهم ربما يلبسون الملابس الصوفية التي حيكت من قبل اصحاب حرفة الحياكة، وغالبا ما يلحق بالمدينة او حتى يكون في داخلها الحقول والبساتين المزروعة بالنخيل والتفاح والبصل والثوم وانواع اخرى من الفواكه والخضروات المتنوعة • وتشير النصوص المسماوية الى اكل لحوم الاسماك والضأن والخنزير والطيور الطرية او المقددة • كما حفلت النصوص المسماوية بالاشارة الى موطن الاحجار الكريمة والعاج والاصداف ومن ذلك الخليج العربي والهند وافغانستان وايران وافضوليا ومدن البحر الابيض المتوسط ومصر وغيرها من البلدان •

وكان على النحات ان يدرب ابناءه على حرفته ليخلقوه في الصنعة وعندما لا يكون له ابناء ربما كان يتبنى احد الاشخاص ويعلمه الصنعة مقابل ان يقوم الاخير بتأدية الخدمات الواجبة له عند الكبر وبتأدية مراسيم الدفن

والتقدمات الخاصة بذلك وغالبا مايربط مثل ذلك الشخص بعقد كي لاتسول له نفسه ان يكون عاقا لانه سيتحمل عقوبات ثقيلة قد تؤدي بحياته .

وبعيد الالف الثالث ق . م توسعت الاراضي المملوكة من قبل المجاميع المتاخية او « الجمعيات » كما كثر وجود الملكية الفردية الخاصة من قبل اثرياء الشريحة الاجتماعية الارستقراطية وخاصة كبار رجال الدين وحاشية الامير الحاكم وبعض الحكام انفسهم . وشاع تبادل وشراء الاراضي وفقا لعقود مكتوبة ومصدقة ولدينا عقد من حدود ٢٣٠٠ ق . م عن شراء ارض واسعة من قبل ٦٠٠ شخص احتفلوا لمدة يومين احتفاء بعقد مثل تلك الصفقة وكانت الاسعار متفاوتة ربما بالنسبة لقربها وبعدها من المدينة او لصلاحها او عدمه للزراعة او زراعة نوع معين من المحاصيل .

فتعرف من خلال التحريات الاثرية والتنقيب عن وجود مايقارب ١٤٦ قرية حول مدينة الوركاء وفي كل قرية منها معبد ومجرى مشروع للري وتدار من قبل « الجمعيات الفلاحية » ذات الطبيعة الاقتصادية المتكاملة .

وعلى مقربة من تلك القرى يعيش البدو الرحل الذين يتنقلون بمواشيهم واغنامهم طلبا للماء والكلاء وغالبا ماكانوا يثيرون المشاكل وبخاصة اذا ما حدث جفاف او عدم سقوط امطار كافية وعلى اية حال فهم يمدون المدن بالمواشي والاغنام ومنتجاتها المتنوعة . ومما لاشك فيه فان عدد القرى قد ينقص او يزيد ففي حدود ٢٧٠٠ ق.م . اصبح عدد القرى المحيطة بالوركاء ٧٦ وبعد ذلك بـ (٣٠٠) سنة تناقص هذا العدد الى ٢٤ قرية فقط وذلك لتكثيف السكن بالمدن او ايجاد مدن اخرى او لضغط القبائل البدوية المحيطة بالقرى . وتشهد القرائن الاثرية على زيادة عدد المدن من مدينتين الى اربع مدن ثم الى ثمان مدن كبيرة انتشرت في المناطق المحيطة بالوركاء . وهكذا تغير تركيب الشرائح الاجتماعية للمجتمع العراقي القديم ، ولكن نظام العائلة

لم يتغير • وورث الابن اياه ووسع ارضه او باعها لغيره وتاجر الولد او أمه ببعض المال فزاد او زال ماله ••

ومع توسع المدن انحصرت العلاقات العشائرية قليلا وتطورت العلاقات ذات الطابع الحرفي والانتماء للمدينة ككل اصبح هو السائد ولا غرابة في ذلك اذا ما عرفنا وحتى في يومنا هذا ان اغلب الناس تنتسب الى المدن مع الاحتفاظ بالنسب العشائري او القبلي للفرد داخل المدينة •

تقع على عاتق كل عضو من اعضاء المجاميع الحرفية حقوق عامة للمدينة بجانب اعمالهم الحرفية ، ومن تلك الحقوق العمل على انفاذ احد السدود التي قد تتعرض للانهييار او كربي مجاري القنوات وهو مانعرفه في الوقت الحاضر بالريف باسم « الفرعة » والتي قد تكون ايام حصاد بعض المحاصيل • واذا ما تعرضت البلاد او المدينة لاعتداءات الغزاة فان الحرفيين ينظمون على شكل مجاميع يقودهم رئيس الصانع وغالبا ماكانوا يوزعون على بعض الضباط لقيادتهم في المعارك • ويدفع لهم مقابل ذلك مثلما يدفع لهم عند قيامهم باعمالهم الحرفية أي الطعام والكساء ووفقا لدورهم في سوح المعارك لان البعض منهم قد يكرم باغداق الهدايا او العطايا او منحه قطعة ارض للعمل فيها •

وبشكل عام فان المجتمع العراقي القديم في هذه الفترة يتألف من الملك وحاشيته ورجال الدين وشيية المدينة وشبابها المحاربين وكبار ملاك الاراضي والتجار والحرفيين والفلاحين والعبيد والبدو الرحل •

وتزداد معلوماتنا عن طبيعة ادارة الاراضي العائدة للمبعد بعد منتصف الالف الثالث ق.م • وتمكن الباحثون من تمييز ثلاثة انواع من اراضي المعبد ١ - الصنف الاول هو الاكثر شيوعا ويتمثل بتأجير الارض مقابل حصة من المحصول مقدارها الثلث ٢ - والصنف الثاني مايعرف بحقول السيد الذي يعمل على توفير حاجات المعبد والقصر ٣ - اما الصنف الثالث فهو حقول العمل التابعة للمبعد وتوزع على شكل اقطاعات او مقابل خدمات تقدم

الى المعبد والاله * واطافة الى تلك الاراضي هناك البساتين والحدائق الخاصة ومساحات واسعة تستخدم كمراعي وتمتد مثل هذه الاراضي على ضفاف الانهار والاهوار حيث يمكن للرعاة اطعام مواشيهم واغنامهم وخنازيرهم وحميرهم ، وعلى اية حال وكما اشرنا سابقا كانت هناك الاراضي المملوكة من قبل « الجمعيات » وبعض الاملاك الفردية التي توسعت وزادت بموجبها ثروة اولئك الافراد *

ان زيادة املاك السيد والامير وسيطرته على املاك الاله والمعبد وزيادة الاراضي العائدة للملاك الكبار احدثت تغييرات اخلت بتوازن النظام الاقتصادي واخذ الكثير من السكان ينتقدون مثل تلك التجاوزات ويرى الاستاذ البريطاني ساكر ان سبب ذلك هو اعتماد المبادئ « الاشتراكية » « والرأسمالية » في الدولة لذلك فان تلك المساوىء يمكن ان تفسر كنتيجة طبيعية لاحد هذين المبدأين وحسب التفضيل السياسي وبالإضافة الى الشكاوي المقدمة ضد اطماع الامير كانت هناك شكاوى المواطنين المعرضين لدفع الضرائب الباهضة التي تجنى من قبل الامير وموظفي المعبد والتي توزعت على جميع مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية ووصولاً الى دفع الضرائب عن دفن الموتى *

وتمزق الاقتصاد من جراء ذلك وبخاصة عندما زاد حجم الضرائب على الماشية والاغنام وعلى صيد السمك وعلى فروض الزواج او الطلاق او دفن الموتى وظهرت شريحة اجتماعية غنية بشكل فاحش جراء عمليات القروض والمطالبة بسدادها بوقت غير ملائم للفقراء الذين يضطرون لسداد ديونهم بتسليم حيواناتهم او بضائعهم التي تزيد قيمتها اضعاف المبلغ المدينين به *

وكعهدنا بالقادة المتميزين والمخلصين الذين ترعرعوا على هذه الارض المعطاء ، نرى الامير اوروانمكينا يتصدى لذلك الوضع المتردي ووضع حد

لانهائه عندما عمد الى اصدار اصلاحاته الاجتماعية-الاقتصادية والتي وردت بمتنها كلمة الحرية (اما - ار - كي) بكل ماتعنيه هذه الكلمة في الوقت الحاضر ولاول مرة في تاريخ البشرية. فاخبرنا هذا العاهل عن اطاحة الشعب بمضطهديه وقيامه باسترداد هيبة القانون واشاعة الامن والحرية . ويعتقد بعض الباحثين وبضمنهم الباحث الشهير كريمران اوروانمكينا جاء الى السلطة عن طريق الانتخاب .

ان حرية العمل في المجتمع الزراعي المذكور الذي يعتمد اساسا على « الاشتراكية » في المشاريع العامة ونظام « التعاونيات » وعلى الاعمال الحرفية والملكية الخاصة ساعد على غنى العاملين المجدين من الحرفيين والتجار وممكنهم من تصريف بضائعهم المتاجرة ببضائع اخرى عبر المراكز التجارية الموجودة في الخليج العربي او في بلاد فارس او في انضوليا او في بقاع اخرى من ارجاء الشرق القديم . ان ظهور هذه الشريحة الاجتماعية المتوسطة ساعد كثيرا على توسع المدن العراقية القديمة وازدهارها .

ان اصلاحات القائد العراقي المخلص اورانمكينا مكنت المجتمع والدولة ككل من الخروج من تلك الازمة الاقتصادية - الاجتماعية التي يمكن التعرف على مدى خطورتها من خلال مانصت عليه الوثيقة التاريخية المعروفة باصلاحات اوروانمكينا والتي جاء فيها : مفتش الزوارق حجز الزوارق ، مفتش القطعان حجز القطعان ، مفتش الصيادين حجز الصيادين . حين يجلب المواطن خروفا لكي يبيع صوفه ، كان عليه ان يؤدي خمسة شقلات (من الفضة) اذا كان الصوف ابيض ، واذا شاء رجل ان يطلق زوجته ، كان عليه ان يدفع خمسة شقلات (من الفضة) للحاكم ، وواحد للوزير ، واذا قام عامل باتتاج شيء من الزيت ، فعليه ان يدفع للحاكم خمسة شقلات (من الفضة) ، وواحدة للوزير ، وواحد لمحافظة القصر . اما بالنسبة للمعبد وممتلكاته فان الحاكم قد استولى عليها كما لو كانت ملكه الخاص . وحتى الموت لايجلب

الخلاص من الحياة • حين يؤتى بميت الى المقبرة ليدفن ، يحضر عدد من موظفي القصر لكي يسلبوا من اسرة الميت كميات من الذرة والخبز والشراب والاثاث • في طول البلاد وعرضها لا نجد الا جباة الضرائب ، فلا عجب ان بدأ القصر يسمن ويثرى وتزداد اراضيهم واملاكه • بيوت الحاكم وحقول حريم الحاكم بيوت خدم الحاكم وحقول خدم الحاكم ، كلها تتزاحم وتصطف وحاول اوروانمكيننا وضع حدٍ لذلك الانحطاط الاقتصادي الاجتماعي فاعاد الاوضاع الى سابق عصرها كما اعاد الحق والعدالة والحرية الى المواطنين الذين اصابهم الضيم ، فعزل المفتشين المرتشين واعفى الكثير من الاعمال من الضرائب ، ولم يعد موظفو الدولة يسلبون وينهبون ووضع حدا للظلم والاعتداء والتطاول وغيرها من المظالم التي كان يقاسي منها الفقراء وجاء في متن اصلاحاته الاجتماعية والاقتصادية ان ليس للكاهن المعين ان يذهب بعد الان الى حديقة الفقير ويقطع شجرة او يأخذ فاكهة • اذا كان لفقير حمار جيد يحمل جنينا ، وقال له سيده : ساشتره ، (ففي حالة ما) اذا رغب الرجل بالبيع ، فعليه (الفقير) ان يخبره (السيد) ويوزن كمية مرضية من الفضة ، او أنه (الفقير) غير راغب في البيع ، فان السيد الساخط سوف لن يضربه •

واذا اقام فقير بحيرة للسماك فليس لاي من طبقة الذوات ان يأخذ سمكة • واذا كان بيت الرجل المتواضع مجاورا لبيت الرجل السيد ، وقال هذا السيد لجاره المتواضع الحال: أريد شراء بيتك وطلب الرجل متواضع الحال ثمنا معيناً لبيته ، فان السيد له ان يوافق على الثمن ويشترى البيت ، والا فانه لا يستطيع سلبه • ولم يكن بإمكان موظف كبير ان يتطاول على بستان امرأة فقيرة فيقطع الاشجار او ينهب الاثمار • كما قام بتقنين الضرائب المتعلقة بالزواج والطلاق والدفن واعفى المنتجين من الضرائب وبخاصة تلك الضرائب

التي كانت تفرض على جز الصوف وبعض منتجي الزيوت • وعاهد اورانمكية
الالهة على عدم السماح باستغلال الارامل واليتامى والفقراء من قبل ذوى
المكانة والحضوة والقوة •

ان زيادة حجم السكان وتوسع المدن ونمو الفائض المنتج من قبل
الحرفيين ونمو وتوسع العلاقات التجارية مع اماكن قاصية ادت في النهاية الى
ظهور المنافسة السياسية والاقتصادية وفتح الطريق للمنازعات والحروب
الطاحنة حول الارض ومشاريع الارواء والمراعي وتأمين الطرق البرية والنهرية
والبحرية وظهرت في هذه الفترة شريحة اجتماعية اخرى وهم العبيد الا انهم
لم يؤلفوا الاغلبية بين السكان ولم تعتمد اعمال كل المجتمع ، كما يحلو
للبعض تصور ذلك ، بل كانوا شريحة اجتماعية مصدرها الاساس اسرى
الحرب وبعض من يبيع نفسه نتيجة الديون المتراكمة وخشية من الجوع •
على اية حال فلقد تطورت تجارة العبيد في فترات لاحقة واصبحت شائعة
حوالي القرن التاسع عشر ق • م وكان عمل هؤلاء يتركز في المطاحن التابعة
للمعبد او في الصناعات الحرفية التي تطورت في تلك الفترة مثل صناعة النسيج
وحياكة الملابس وفي بناء تحصينات المدن وبناء المشاريع العامة كالمعابد
والزقورات والقصور ومشاريع الري وما الى ذلك ، كما تطورت ملكية
الرقيق من قبل الموسرين من افراد المجتمع العراقي القديم وقام البعض بدراسة
عدد العبيد المملوكين من قبل احدى الاسر الموسرة فتوصلوا الى ان بإمكان
الاسرة العراقية ان تمتلك بين ثلاثة او اربعة عبيد ولعله من المفيد التنويه ان
العبودية في العراق القديم لم تكن نظاما طبيعيا مقفلا مثل اليونان والرومان
بل كان من المحتمل ان يصبح بعض الاحرار عبيدا وبالإمكان البعض من
العبيد ان يحصلوا على حرياتهم كما انه لم يكن زواج العبد من حرة غير
شائع كما لدينا الشواهد الكثيرة على زواج احرار باماء •

واذا ما اخذنا على سبيل المثال مدينة الوركاء او مدينة لكش او اية مدينة عراقية اخرى فاننا نرى ان عدد العبيد الذين وردت اسمائهم في النصوص المسارية قليلا الا ان اعمالهم كانت مهمة جدا بالنسبة لحياة المدينة . وغالبا ما تركزت اعمالهم في النشاطات الاقتصادية الشائعة في المناطق الريفية المحيطة بالمدن وبخاصة لمساعدتهم في اعمال الغزل والحياكة او في عمل الخبز اللازم للمعابد او في اعمال القصور او الدور الواسعة للموسرين وكان عملهم مقابل وجبات الطعام وسقف يظلمهم وعوائلهم وسيد يحميهم من استغلال الآخرين لهم . كما كانوا يستخدمون في اوقات الحروب عندما يخرجون مع اسيادهم لنزال الاعداء وربما لعدم الثقة بهم عند بقائهم في المدن بعد غياب الاسياد والشباب من المدن لان اكثرهم ان لم يكن كلهم من البلدان الاجنبية .

وقبل الاسترسال في تطور المدن وفي تقدمها كلما تقدم بنا التاريخ لابد من التأكيد على ما اتفق عليه كل المعنيين بمثل هذه الدراسات وهو تطور القرى العراقية القديمة الى مدن وشواهدنا على ذلك من الناحية الاثرية كثيرة كمدينة اريدو ومدينة الوركاء والعبيد ومدينة سبار ومدينة بابل ومدينة كيش والمدن الشمالية مثل اربيل ونيوى وغيرها .

ولترك المدن الجنوبية قليلا وتوجه الى الشمال ووصولا الى الحدود الطبيعية التي تفصل بلاد وادي الرافدين عن غيره من البدان فالى الشرق تشمخ سلسلة جبال زاغروس والى الشمال تمتد سلسلة جبال طوروس الوعرة وغير الصالحة للعبور والتي طالما وقفت حائلا بوجه الغزاة القادمين من منطقة ارمينيا . اما بالنسبة للغرب والجنوب فالمنطقة مفتوحة ولا يوجد مانع طبيعي يحد من الاتصالات وهذا مما ساعد على سرعة الاتصالات وبالتالي الوحدة الحضارية العراقية القديمة التي تكلمت بالوحدة السياسية وذلك عبر توحيد بعض المدن الكبيرة ومن ثم العمل على توحيد

كل المدن ومنذ بدايات العصر الاكدي ومرورا بعصر سلالة اور الثالثة والعصور اللاحقة ، وعلى اية حال ، فلقد نشأت كبريات المدن العراقية القديمة في المنطقة الشمالية ضمن المثلثين المحصورين بين امتدادات الزاب الاعلى والزاب الاسفل وامتداد نهر دجلة ومنذ فجر التاريخ وقد تطورت تلك المدن وبضمنها اشور وكالحو (النمرود) ونيوى وأربيل واربخا (كركوك) وغيرها التي تطورت عن قرى سبق استيطانها في عصور قبل التاريخ .

وتطورت تلك المدن بشكل بطيء ثم نمت لتصبح من كبريات مدن العراق القديم وذلك بعد التطور الديني والديوي الذي حدث وبخاصة فيما يتعلق بالمعابد والقصور والزقورات وتطور المجتمع نفسه وحياته الاقتصادية والسياسية واصبحت مدينة اشور المركز السياسي والديني في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد . وبقيت عاصمة للدولة الاشورية ، باستثناء فترات قليلة زمن شمسي - ادد الاول وزمن تنورتا الاول والى القرن التاسع قبل الميلاد عندما أسس آشور ناصر بال الثاني مدينة كالح (النمرود) التي دامت كعاصمة مايقارب القرن والنصف حيث انتقلت العاصمة الى مدينة جديدة شيدها سرجون الاشوري واسماها دور شروكين (خرسباد) ثم اتخذ ولده سنحاريب نيوى كعاصمة للامبراطورية الاشورية القريبة والموصلة بين المراكز الاشورية الكبرى مثل أربيل واربخا (كركوك) وكالح واشور والمدن الاخرى .

والذي يهمننا بالوقت الحاضر هو اقتصاد تلك المدن الذي لم يختلف كثيرا عن اقتصاد المدن الجنوبية في بدايته من حيث طبيعته الزراعية ومن حيث سيطرة المعبد وحاكم القصر على الموارد الاقتصادية الاساسية كالاراضي والتجارة وشيوخ مايعرف بالملكية الجماعية المتكاملة « الجمعيات التعاونية » ووصولاً في عصور لاحقة الى ظهور الاقطاعات الكبيرة وما يمكن تسميته بملكية العشيرة او القبيلة وتطور ذلك الى استحواذ بعض الافراد على

مساحات واسعة من الاراضي والذين يمكن ان تطلق عليهم « الاقطاعيون » ويرى الباحث اوبنهايم ان تلك الاختلافات في توزيع مساحات الاراضي قد ادت الى ظهور تأثيرات بعيدة المدى على اقتصاديات البلاد ككل ويعزى ذلك الى نظام رأسمالية الدولة او شكل اخر من تنظيم اجتماعي يختص بإدارة ملكيات عقارية كبيرة *

وقد اختص سكان المدن في حراثة الارض التي تحيط بمدنهم وتمتعوا بامتيازات ملكية خاصة * واستعملت الفضة كوسيلة للتبادل ودفع الفروقات وفي فترة العصر البابلي الوسيط (القرن الخامس عشر ق م) والى القرن العاشر ق م) أصبحت قيمة الفضة تساوي قيمة الذهب ، اما فترة العصر الاشوري الوسيط المزامن له تقريبا أصبح القصدير واسطة التبادل * وهناك اشارات في الكتابات المسمارية عن قيام الملك سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق م) باستخدام « مسكوكات » نحاسية كانت تصب في قوالب ، الا ان النصوص الاقتصادية والقضائية والقانونية تشير دائما الى استخدام الفضة * وهذا الاستخدام الواسع للفضة قاد بعض الباحثين الى الاعتقاد بان المعبد والقصر الحاكم قد سيطرا على عملية تداول الفضة بشكل حازم لان مادة الفضة مستوردة واستطاعوا عبر سيطرتهم على الطرق التجارية والتجارة الخارجية تركيز التداول بهذا المعدن في المعابد والقصور وعدت مادة الفضة ثروة خاصة بهم ، وتبين النصوص الواردة من العصرين البابلي القديم والاشوري القديم والعصور اللاحقة عن تطور الثروة الشخصية والتحويلات الاقتصادية الجيدة التي مكنت بعض الفقراء ، وعبر اشاعة القوانين والمفاهيم الاقتصادية العادلة ، بان يصبحوا اغنياء ، وان يخاف الاغنياء من تحديد ثرواتهم * وكنتيجة لذلك شاع وجود « بيوتات الاموال » او بعبارة ادق « المرايين » الذين قد تصل فوائدهم الى اضعاف المبلغ المقرض او الموظف للاغراض التجارية او الزراعية او الحرفية كما شاع وجود المراكز التجارية وخير مثال على ذلك المراكز التجارية الاشورية في اواسط انضوليا *

ويرى بعض الباحثين وبضمنهم الباحث المتضلع في الامور الاقتصادية لبلاد وادي الرافدين بولياني ان لوجود لسوق محلية مقننة الاسعار ويعارضه الباحث البريطاني ساكر محاولا اثبات وجود مثل تلك السوق المقننة للاسعار عبر ما تشير اليه النصوص المسمارية وما امدتنا القرائن الاثرية من اوزان وحجوم مقننة استنادا للمعابد او الالهة او الحكام ، بينما يتحدث الباحث اوبنهايم عن تكامل اقتصادي مؤثر الى حد كبير اضافة الى وجود خزين في المعابد والقصور على ان ذلك لايمثل الوسائل الوحيدة الموجودة للتكامل الاقتصادي لانه يبدو ان انواعا من الترابط قد تم بين مراكز الخزين وبين عامة الشعب المنهمكين بالنشاط الاقتصادي المستقل والتركز بايدي الافراد او المجمعات من ذوي المكانة المتكافئة واستحسن استخدام النقود (الفضة مثلا) لشعب وتباين المراكز الاقتصادية ، حيث ان « النقود » او مايعادلها من البضائع كانت تستخدم في مثل تلك الظروف باعتبارها اداة ووسائل لممارسة الضغط الاقتصادي عن طريق تأجيرها او جعلها بضاعة من الممكن الدفع بواسطتها + واحتاج الاقتصاد المخزون اصلا الى وسائل الاتصال بالعالم المحيط به لتوفير المواد الخام غير الموجودة في بلاد وادي الرافدين كالا حجار والمعادن والخشب +

ولذلك فلقد تمكن ذلك الاسلوب المترابط للحياة الاقتصادية من تزويد احتياجات كلا الطرفين وخلق مناخ اقتصادي ملائم في ظل المراكز المدنية العامة +

فالسلع المنتجة في بلاد وادي الرافدين مثل الانسجة والملابس والصناعات الحرفية كانت وسيلة التبادل لجلب المعادن والاحجار والاشباب والتوابل وهذا بطبيعة الحال ساعد على انتشار وتوسع وازدهار المراكز التجارية الداخلية والخارجية ، وساهمت التجارة بشكل مباشر وغير مباشر على

ازدهار ونمو المدن العراقية القديمة كما ساعدت على رفع مستوى المعيشة
فضلا عن زيادة انتشار وتأثير حضارة بلاد وادي الرافدين في البلدان الاخرى ،
وهناك عامل اخر ساعد على نمو وتطور اقتصاد المدن العراقية القديمة
وهو اتساع الممالك ووصولها الى تكوين امبراطويات فان ذلك ادى الى اشاعة
الاستقرار وتوطيد دعائم الاقتصاد وبخاصة المدن الكبيرة كالعواصم حيث
شيد الملوك القصور والمعابد لتكون مرآة تعكس الطموحات الابداعية للحاكم
والشعب وهذا بطبيعة الحال ادى الى ظهور القوى العاملة الاخرى في
المجتمع او على اقل تقدير زيادتها واقصد هنا الموظفين ودورهم في مجتمعات
المدن وحياتها الاقتصادية لان النصوص المسماة زودتنا بعشرات الالقاب
لموظفي القصر والمعبد والعاملين على ادارة وادامة السدود والمشاكل واعمال
البناء والترتب العسكرية وما الى ذلك .

ويرى الباحث كريسون (١٩٨٦) وغيره من الباحثين المحدثين ان قمة
الابتكارات والمنجزات للعناصر الحضارية العراقية القديمة قد تركزت في المدن
الكبرى وبخاصة اريدو وأور والوركاء ونفس بابل وكيش وسپار واشور
وكالحو ونيوى وغيرها . وحاول هذا الباحث عبر مقاله الموسوم « نينوى
عاصمة العالم : روما على دجلة » المقارنة بين المكانة الاجتماعية الاقتصادية
لمدينة نينوى والحالة الاجتماعية والاقتصادية لروما واعتبار كلا المدينتين
قبلة العالم ولكن في أزمان مختلفة وسبقه بذلك كثيرون ممن اعتبروا بابل
قبلة العالم ومركزه للاشعاع الحضاري والفكري . ووصولاً الى عقد البعض
من الباحثين اوجه المقارنة ما بين المدن العراقية القديمة وازدهارها الاقتصادي
وبين المدن العربية الاسلامية الاولى التي شيدت بالعراق .

وخلاصة القول فان اهم العوامل التي ساعدت على ازدهار ونمو المدن
العراقية القديمة هي التطورات المتفاعلة وزيادة الانتاج الزراعي وتزايد مراكز
السلطة ونمو وسائل الاتصالات بين المدن والقرى ومناطق تواجد البدو ولم

يحصل الازدهار الاقتصادي والاجتماعي لعملية التمدن في مدينة واحدة او منطقة واحدة من بلاد وادي الرافدين لكنه بعد توحيد المدن في ارجاء البلاد وظهور الدولة الموحدة ومن ثم العمل على توحيد بعض الاقطار العربية التي خلقت قمة الازدهار الاقتصادي الاجتماعي في بابل ونيوى مثلما خلقت في ابلا وماري اوغاريت في سوريا ودلمون (البحرين) ومكان (عمان) وطيبة في مصر •

المادة في بعض المفاهيم الاقتصادية التي سادت في مدن العراق القديم : -

١ - العشر :

في مطلع هذا القرن وبالتحديد سنة ١٩٠٤م تناول الباحث جونز Johns موضوع ضريبة العشر بشيء من الشك نظرا لعدم توفر المصادر الكافية وركز عمله على الاشارات الواردة في العصر البابلي الحديث وبخاصة قيام الملك نبونائد (٥٥٥ - ٥٣٩ ق م) بتقديم خمسة امان من الذهب الى معبد سبار وذلك عند اعتلائه للعرش ايفاءً لضريبة العشر المفروضة على مثل ذلك الحدث •

كما توصل هذا الباحث الى ان ضريبة العشر كانت تدفع على شكل مواد مختلفة مثل الحبوب والزيوت والسمن والتمر والطحين ووجبات الطعام والثيران والاغنام والحمير وما الى ذلك •

وفي بداية الثمانينات من هذا القرن اهتم باحث آخر وهو أركي سلونن Salonen الذي اعتبر ضريبة العشر من الضرائب القديمة مؤكدا توارثها من قبل اوربا واستخدامها بشكل واضح في الكنائس المسيحية خلال فترة القرون الوسطى • وقد اكد الكاتب على اصل هذه الضريبة ذات الطابع الديني والاقتصادي الى بلاد وادي الرافدين القديمة •

ولقد تعرفنا سابقا على مكانة المعبد والامير الاقتصادية والدينية وارتباط الاقتصاد بشكل او بآخر بالمعبد الى ان جاء الملك حمورابي وفصل بين المؤسسات الدينية والدنيوية ولان ضريبة العشر اصلا وجدت في المعابد فلقد استمرت بالرغم من جبايتها احيانا من قبل بعض الحكام او من قبل الحكومة .. ومن خلال دراسة النصوص المسمارية نرى ان ضريبة العشر قد عرفت عند السومريين باسم ZAG. 10 وفي العصر البابلي القديم والاشوري القديم عرفت باسم ايشريتيم *ešrētum* اما في العصر البابلي الحديث فعرفت باسم ايشرو *ešrū* « العشر » وانتقلت الى سوريا حيث عرفوها بأسم *mešaru* .

وتعود ضريبة العشر المذكورة في المصادر المسمارية الى عصر سلالة اور الثالثة وبالتحديد زمن حكم الملك شولكي وابنائيه كما عرفت بنفس الاسم السومري زمن حكم سلانتي ايسن ولارسا أي بشكل عام بين ٢٠٩٤ - ١٧٦٣ ق م وشاع استخدام الكلمة الاكدية *ešrētum* العشر بعد ذلك وبالتحديد منذ حكم الملك البابلي سايبوم في حدود ١٨٤٤ - ١٨٣١ ق م ولكن معظم الاشارات عن هذه الضريبة وطبيعة فرضها جاءت من العصر البابلي الحديث والعصور اللاحقة وبالتحديد الزمني من سنة ٦٠٥ - ٣٣٣ ق م وباختصار فان على المتاجر او المستثمر لاملأك او اموال المعبد او الاموال الحكومية دفع ضريبة العشر او بعبارة ادق ١٠٪ من ارباحه .

وتشير النصوص المسمارية الى اخذ ضريبة العشر في مراكز المدن الكبرى التي اوضحت مراكز اقتصادية هامة مثل مدينة الوركاء ومعبدتها المعروف باسم E. AN. NA معبد الالهة عشتار والمعبد الابيض معبد الاله شمش في مدينة سبار ومعبد ايساكيلا معبد الاله مزدوخ في مدينة بابل وغيرها من المراكز .

وكانت الضرائب المعروفة باسم العشر ندفع للمخازن - المعروفة باسم بيت كاري او سوتومو او في الاصراء الذي يعرف بأسم bit Karē Sutummu وبخاصة عشر الاموال التي تتضمن الشعير والسمسم والتمر * والمهم لدينا هو دفع ضريبة العشر عند بوابات المدن او المعابد ومن ذلك دفعها عند باب المعبد الابيض في سبار ina abulli ša Ebabarra لأن ذلك قد يشير الى ان الداخل الى المدينة او المعبد يدفع ضريبة لانه سيتعامل بشكل او باخر تجاريا سواء كان مشتريا او بائعا *

وهناك اشارات في النصوص المسمارية على دفع بعض صائدي السمك عشر ماقاموا بصيده الى المعبد في مدينة الوركاء وهذا ربما دليل آخر على انهم دفعوا ذلك لبيعهم الحاصل في المراكز المخصص للبيع * وهناك اشارات في الكتابات المسمارية على دفع عشر مواد الفضة والنحاس او العاج او الاحجار الكريمة في لارسا والتي اتت اليها من الخليج العربي والهند للقصر وذلك مقابل تأمين الطرق وتوفير المكان اللازم لعرض البضائع المتاجر بها مثل الاقمشة المصدرة والمعادن والاحجار والاشخاب الموردة * وتدفع مثل تلك المواد او الاموال في مراكز التجارة bīl Kārim او في « المناء » Kāru او المحل الذي تباع وتشترى البضائع فيه *

ويوجد في النصوص المسمارية ما يعرف بالاكديّة بيت العشر bītešrū والذي تدفع فيه الاموال المنقولة من فضة وغيرها من المعادن او المنتجات المادية والحيوانية * ويدفع العشر على المنتجات الحرفية مثلما يدفع على المنتجات الاخرى كدفعه عن الاقمشة والحلي وعلى الشراب مثل الجعة وعلى المنتجات الحيوانية وتستلم مثل هذه الضريبة من قبل احد الموظفين المعروفين باسم Sa mulī-i ešrū « جابي العشر » واخذ العبران هذه الضريبة ووظفوها في

نرواتهم عندما يقومون بالتقدمة الى الههم واخذها عنهم الغريون خلال القرن السادس واستخدمها المشرفون على الكنائس . كما عرفها قبل ذلك اليونان بأسم dekate والرومان بأسم decuma والتي انتقلت اليهم عبر سوريا الى اليونان ثم الرومان . وفي تيماء بالجزيرة العربية عثر على نصوص مسمارية تشير الى دفع ضريبة العشر والتي ربما كانت تدفع الى معبد الاله سين الذي ربما شيده او اعاد تشييده على أقل تقدير الملك نبونائيد ، كما ظهر نظام ضريبة العشر في مصر وكانت تدفع من قبل التجار الايجيين . وفي نص من مدينة الحضر العربية جاء فيه ان « عبا اردكلا وجديه بنايت عشتا » « اي أن السيد عبا المهندس المعماري واصحابه بنا دار المكوس » .

كما عرفت ضريبة العشر بنفس الاسم باللغة العربية في الاقطار العربية الاسلامية الاخرى وان العشر الخاص بالاراضي ابان حكم الدولة العربية الاسلامية ذو قيمة عالية بالنسبة للمجتمع الاسلامي وفي فترات مختلفة من حكم الدولة العربية الاسلامية .

وهكذا فان هذا المفهوم الاقتصادي ولد في ارض بلاد وادي الرافدين قبل اكثر من ٤٠٠٠ سنة وبقي الى وقتنا الحاضر وفي بعض الدول مثل فنلندا في اوربا كان تستخدمه حتى سنة ١٩٢٤ م .

٢ - اساليب توسع الملكية الخاصة :

تأكيدا لما ذهبنا اليه في بداية بحثنا فان ملكية الارض في العصور التاريخية الاولى كانت محدودة ولكنها زادت بعد الالف الثاني ق . م وتوسعت اكثر في العصور اللاحقة . وتمكن الباحثون من تمييز نوعين من ملكية الارض ، تمثل النوع الاول بالملكية الخاصة المتوارثة أبا عن جد وتمثل النوع الثاني بما يعرف بملكية الاقطاعات الملكية او « الاقطاعية » مقابل تأدية الخدمة العسكرية . كما يمكن للفرد ان يحصل على قطعة ارض اما بواسطة الشراء

او بالتبني الحقيقي لاجل ان يرث قطعة ارض او بواسطة الالتفاف على القوانين والحصول على قطعة ارض عن طريق ما يعرف بالتبني الخاص بالاموال غير المنقولة او ما يطلق عليه الباحثون تبني البيع او بواسطة اشتراكه في الاعمال الزراعية ذات الطابع التعاوني والمكتفية ذاتيا، او عن طريق القروض لاهل الارض واثقالهم بضرائب او فوائد عالية مما يجبرهم على التخلي عن اراضيهم لقاء سداد ديونهم او اعالتهم مقابل التنازل عن ارضهم ، وهناك طرق لا تحصى تفنن بها كبار ملاك الاراضي للاحتيال على القوانين والاستيلاء على الارض وحتى على اصحابها ومن ذلك ماورد في نصوص القرن الخامس عشر ق.م. الاقتصادية والقانونية وبخاصة تلك النصوص التي جاءتنا من مدينة نوزي (قرب قرية تاركلان) في محافظة التأميم ومدينة اربخا (كركوك) ومدينة كوروخاني (تل الفخار) وغيرها من المواقع التي سكنت خلال هذه الفترة ومن تلك النصوص ما يعرف بنصوص القرض تيد نوتو Tidennūtu المشابهة لنظام القرض الانجليزي المعروف باسم او الوثائق الخاصة بدخول بعض الافراد في التعاونيات والمعروفة باسم نصوص آخوتي ahūtū (« التاخي » او المشاركة) وبوثائق نقل الملكية المعروفة باسم supeultu و ramgurtu و lišānšll او بواسطة mārūtu اي « التبني » وبانواع مختلفة من هذا الشكل من اشكال نقل الملكية .

ان الاسلوب الاخير لنقل الملكية اي « التبني » وبخاصة تبني البيع من الاهمية بحيث دفعنا الى تناوله باختصار فمنذ العشرينات من هذا القرن شخص الاستاذ كاد Gadd طبيعة هذا النوع من التبني وذلك من خلال تاكيده على الطبيعة الاقتصادية له . واطلق الباحثان كييرا وشبايزر على التبني مصطلح تبني البيع « Saleadoption » وقبلت هذه التسمية من قبل معظم

المعنيين بدراسة الاقتصاد . وفي الاونة الاخيرة مال البعض من الباحثين لتسمية هذا الاسلوب « بالتبني » الكاذب او التبني الخاص بتحويل ملكية الاموال غير المنقولة وشاع المصطلح الاخير مؤخرا .

ومن خلال الدراسة المستفيضة للباحثين تبين لهم ان السلطة قد منعت بيع الاراضي بعد ان اقطعتها الى من يستحقها من الناس . وذلك بعد الهجرة الواسعة لسعوب هندو - اوربية الى المناطق الشمالية الشرقية ومنطقة كركوك وربما خوفا من استحوادهم على اراضي تمكنهم من البقاء او النفوذ والتغلغل بين مجتمع بلاد وادي الرافدين وتحسبا للخطر الذي تمثله مثل تلك الحركة السكانية الواسعة التي استهدفت البلاد بكل نظمها الادارية والاجتماعية وبخاصة المؤسسات الموجودة في المدن . وبالفعل فلقد تمكن « الاقطاعيون » وبواسطه الحيل القانونية التي التفوا بها على ذلك القانون .

فنفراً في مئات من النصوص ، ان اكثر من مائتي فلاح قد تبنوا اقطاعيا واحدا ، واصبح ابنهم البكر والمستحق للحصة المفضلة من الاراضي او جميعها والمنصوص عليها وعلى حدودها في العقد المبرم ، لقاء هدية « أي الثمن » يقدمها الاقطاعي لتبنيه ، وهذا النوع من العقود يستند شرعا على المواد القانونية الخاصة بالتبني الحقيقي .

ان استعراض احد تلك النصوص قد يوضح مآزينا اليه ، والاتي ملخص لاحدى تلك الوثائق : عقد تبني بين الطرف الاول والطرف الثاني ، واستنادا اليه سيعطي الطرف الاول « المتبني » للطرف الثاني « المتبني » قطعة ارض في المدينة (المنصوص عليها في العقد) غرب الحقل العائد (للشخص المنصوص عليه في العقد) . واستنادا الى هذا العقد ايضا اعطى الطرف الثاني (المتبني او « الاقطاعي ») الى المتبني الفلاح (صاحب الارض) عشر وزنات من الشعير (وكذا) من الفضة كهدية له . واذا ما ادعى احد بخلاف ذلك فعلى الطرف الاول (المتبني وصاحب الارض) ان يزكي الطرف

الثاني * ويأتي بعد ذلك شرط جزاء ينص على دفع من " من الذهب ومن " من الفضة كعقوبة تترتب على اخلال طرفي العقد بنوده * كما ينص على عقد الاتفاق في بوابة المدينة (المنصوص عليها) واستنادا للوائح والقوانين المرعية في تلك البوابة * ثم يختم العقد بقائمة من الشهود وبضمنهم كاتب العقد ، ويوقع اللوح بواسطة اختام الطرفين والشهود وبعض الاداريين وكاتب العقد *

بمثل هذه الطريقة وغيرها تمكن كبار ملاك الاراضي والارياء الموسرين في المدن من الاستحواذ على اراضي الفلاحين والجنود وبمثل هذه الاساليب الملتوية استطاع الكثير منهم تحويل عدد كبير من هؤلاء الفقراء الى اقان او عبيد للخدمة في اراضيهم الواسعة التي تقع في المدينة او خارجها كما تمكنوا بنفس الطرق من الاستحواذ على البيوت وورش العمل او امتلاك الصانع المهرة ومع زيادة نفوذهم الاقتصادي زاد نفوذهم السياسي ايضا *

٣ - نتائج بحث اقتصاد المدن وتوجيهها :

في نهاية هذا الفصل لابد من الاشارة الى ما توصل اليه الباحثون المعنيون وصف نتائج عملهم لتدعيم المفاهيم او النظم الاقتصادية التي ينتسبون او التي يعملون على تعزيزها * فالعلماء السوفيت يرون ان اقتصاد المدن العراقية القديمة كان اقتصادا اشتراكيا سادت فيه الملكية الاشتراكية للدولة كما سادت فيه ملكية الكوميونات الزراعية ذات الاقتصاد المتكامل والاستقلال الذاتي * وان تطور الاقتصاد والمجتمع كان بفعل طبقة العبيد « ثم طبقة الاقطاع » وصراعهما مع بعضهما ومع « الطبقات » الاخرى في المجتمع *

اما العلماء الرأسماليون فعلى الرغم من اقرارهم بوجود « الملكية الجماعية » وبعض المفاهيم الاقتصادية الاشتراكية الا انهم يرون قوة سلطة المعبد ورجال الدين والنظم الاقتصادية « الرأسمالية » « والاستعمار » لابل « الامبريالية »

هي اساس ديمومة الرقي الحضاري والازدهار الاقتصادي والاجتماعي لمدن
بلاد وادي الرافدين *

وعبر دراستنا المستفيضة للوثائق والنصوص الاقتصادية التي تؤلف
اكثر من ٩٠٪ من مجموع النصوص المسمارية المعروفة والتي تقدر بمئات
الالوف والمكتوبة باللغتين السومرية والاكديّة ، وحرصا منا على ابراز جوانب
الفكر الاقتصادي العراقي القديم بحجمها وزخمها الفعال فلقد عمدنا الى
حذف التفاصيل والاقتصار على طرح الاسس المهمة للجوانب الاقتصادية
وبشكل نقاط مركزة جدا ادراكا منا ان مثل هذا الموضوع يصلح لبحث
مستفيض قد يأخذ حجم كتاب في الاقل *

ومن خلال دراستنا توصلنا الى الاستنتاج التالي اننا تتفق والعلماء
السوفيت ان الاقتصاد السائد كان « اشتراكيا » ولكننا نختلف في تقييم
حجم القوة الفاعلة والمسيرة في المجتمع أي « طبقة العبيد » او « طبقة الاقطاع »
والتي لم يكن لها الدور الاساسي في حركة المجتمع كما مر بنا كما انه لا توجد
اشارات في النصوص المسمارية الى صراع طبقي حاد مثلما تصوره المبادئ
الماركسية اللينينية * وتتفق ايضا مع علماء الغرب بان ما اسموه « الرأسمالية »
وبخاصة مايتعلق منها بالملكية الخاصة كانت موجودة ايضا * اما ما اسموه
« بالاستعمار » « والامبريالية » واعتبارهما اساس تطور الاقتصاد والازدهار
الحضاري فلنا فيه رأي اخر يخالفهم وينقض مذهبوا اليه *

وملخص استنتاجنا الذي توصلنا اليه عبر دراسة المفاهيم الاقتصادية
الشائعة هو ان اساس ، تقدم وازدهار وديمومة السمو الحضاري الاقتصادي
والسياسي لبلاد وادي الرافدين كان اشتراكية الدولة وشيوع « القطاع
الاشتراكي او نظام التعاونيات ذات الاقتصاد المتكامل والحكم الذاتي الخاضع
للدولة واشرافها عبر التكافل الموجود بين الطرفين ، اضافة الى وجود وشيوع
الملكية الفردية او الخاصة المشتركة مع الدولة المتمثلة بالمعبد او القصر ،

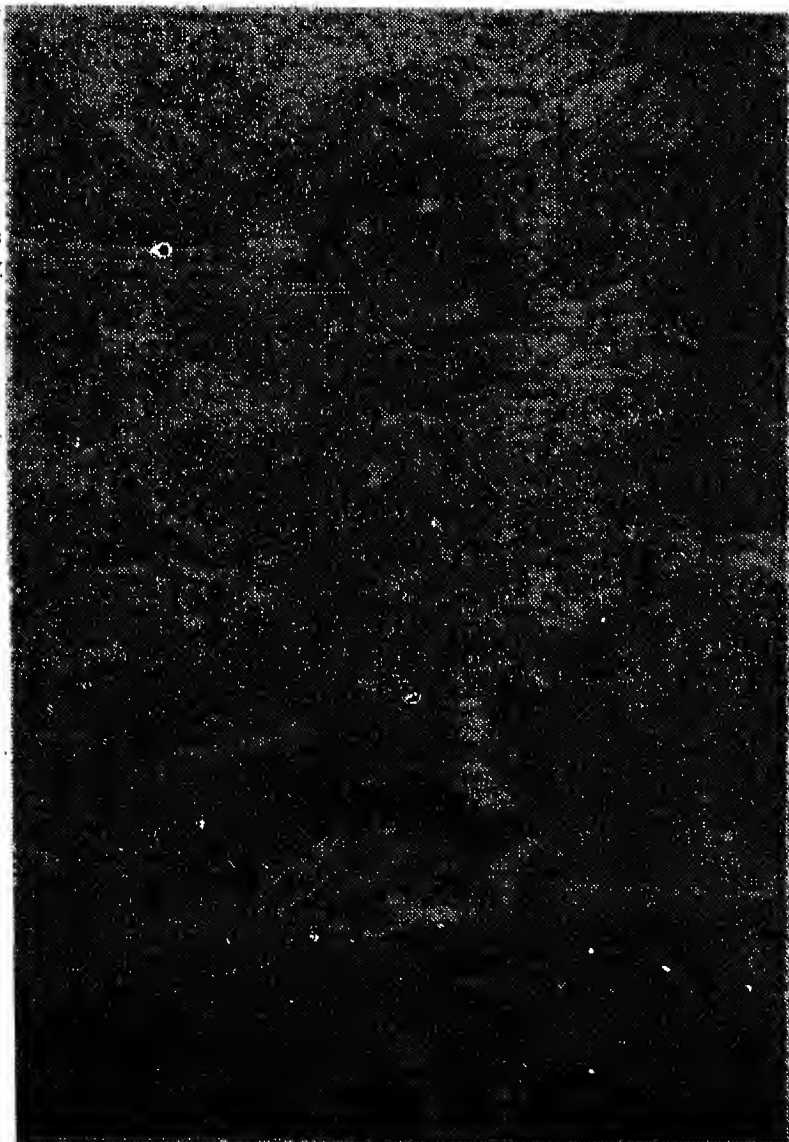
ويمكن مقارنة ذلك • بما يعرف بالقطاع المختلط » الذي ارتبط مصيرها
بالدولة والمجتمع والوطن •

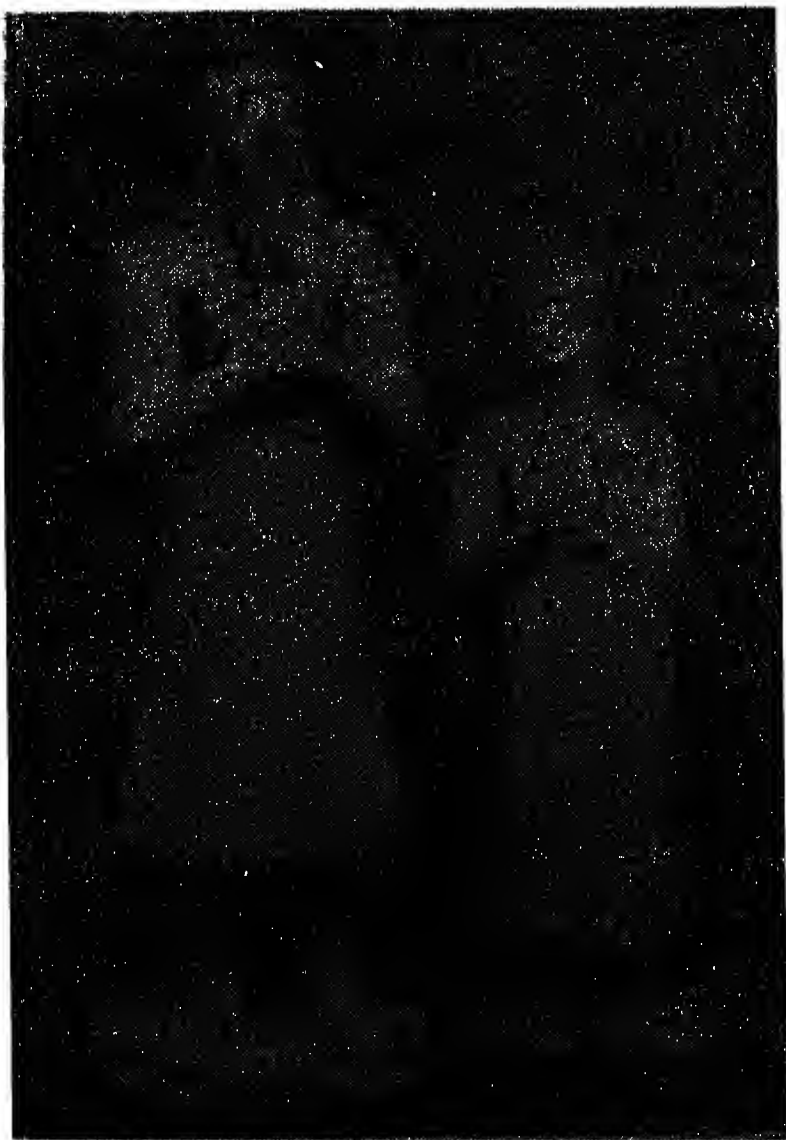
اما الرقي الحضاري اثناء ما يسميه الغربيون بالاستعمار والامبريانية
وبخاصة مايتعلق بالفترة الاشورية الحديثة فنرى فيه سعيًا حثيثًا من اجل
الوحدة الوطنية والعمل على توحيد بعض الاقطار والقبائل العربية اي بداية
الشعور بضرورة الوحدة القومية سيما وانهم وعلى حد قول الاستاذ البريطاني
ساكر يعتقدون بوجود « امة اشورية » انذاك • اما حروبهم مع الاقطار
والبلدان الواقعة خارج الوطن العربي فكانت حروبًا عادلة من اجل دفع الخطر
والقضاء على تحديات الاعداء اضافة الى تأمين الطرق والمسالك التي تربطهم
والعالم الخارجي •

ومن الجدير بالملاحظة ان استخدام الاساليب الرأسمالية وبخاصة نمو
رأسمالية الدولة والغنى الفاحش الذي حققه بعض الموسرين على حساب
الشرائع الاجتماعية الاخرى كان السبب الاساس لارتباط بعض احكام
الخونة وكبار الملاك والتجار بالبلدان الاجنبية والذي ادى بطبيعة الحال الى
تدهور الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحد من النمو والازدهار
الحضاري ، الا ان ذلك لم يدم طويلا وسرعان ما انتبه اليه عامة الشعب وعملوا
على الاطاحة بمثل تلك الاظمة او ان البلاد اصبحت تحت رحمة الاجنبي
الغازي والطامع الى ان توفرت لها القيادات المخلصة والتي طالما ظهرت
واعادت الامور الى مجاريها السابقة : وبمنظور ومفهوم اقتصادي ، اجتماعي
يعتمد اساسا على الاساليب التي ذكرناها في استنتاجنا ويعمل جاهدا على
توفير عدالة اجتماعية اساسها البنية الاقتصادية التي تعتمد على نظام اشتراكية
الدولة اساسا مع السماح بتنامي رأس المال الخاص « المرتبط مصيريا بالدولة
والوطن والمسيطر عليه من قبل الحكومة » او بالعمل على اشاعة الجمعيات
التعاونية ذات الاقتصاد المتكامل والمستقل ذاتيا ولكنه مرتبط مصيريا بالدولة

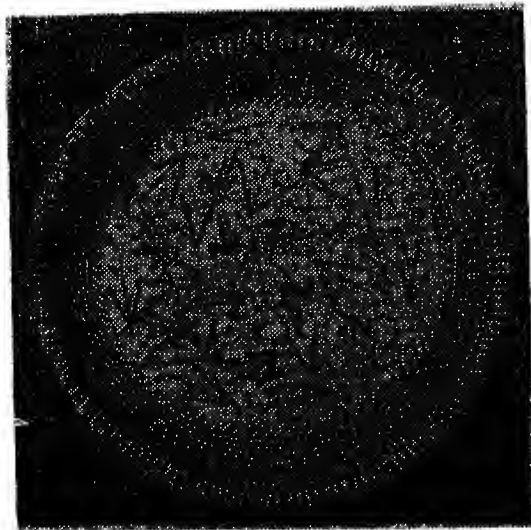
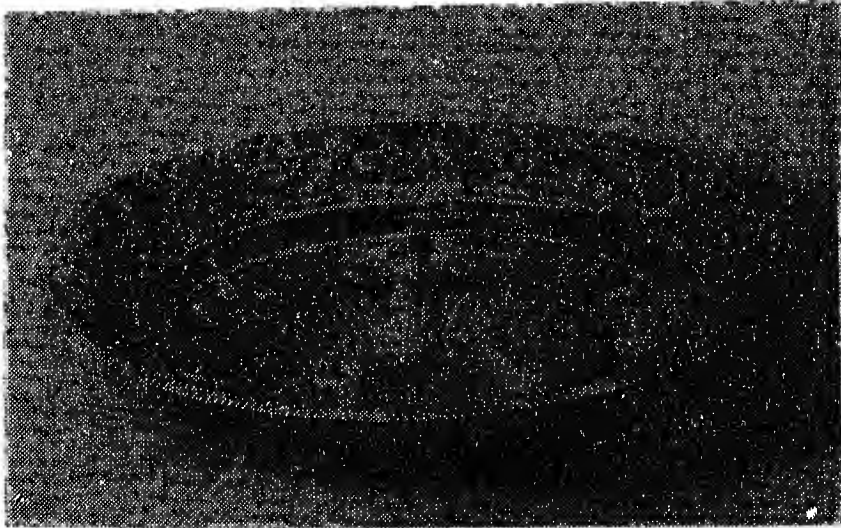
والمجتمع والبلاد ككل ويقع عليه مايقع عليها ويصيبه مما يصيبها من خيرات
ونعم *

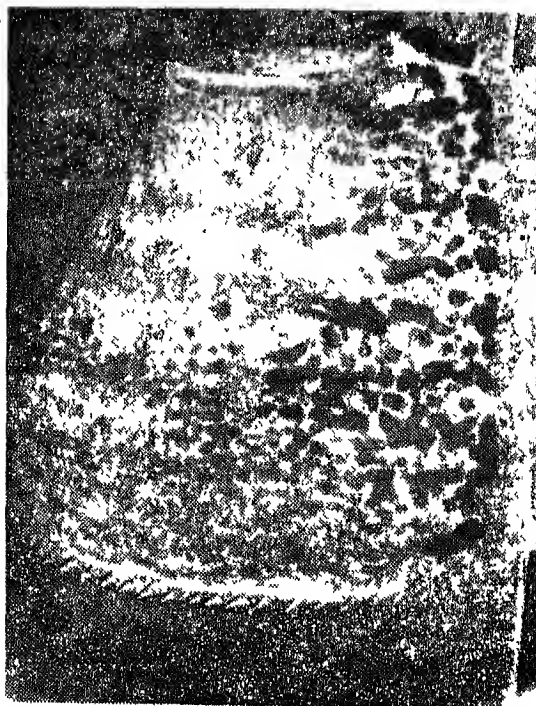
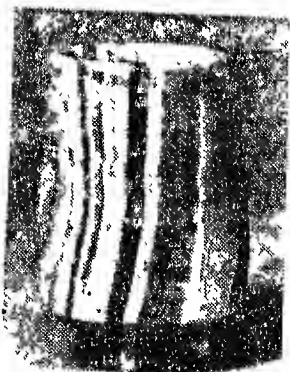
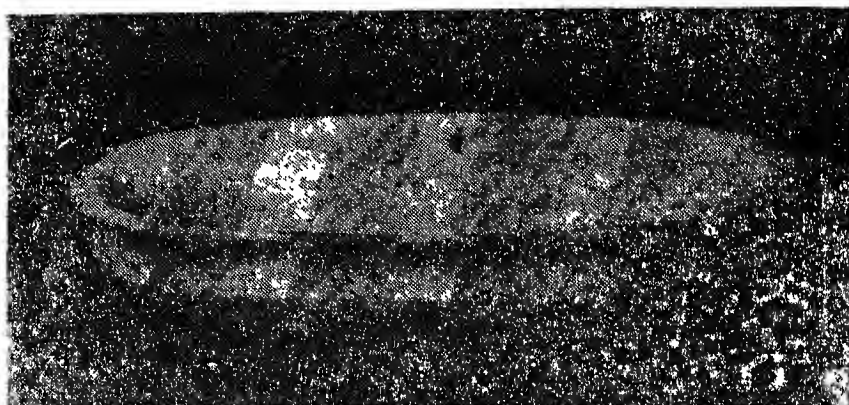
- ١ - خريطة بمواقع مدن عصر فجر السلالات
- ٢ - اطلال مدينة اور من الجو *
- ٣ - اعمال نحت دينية
- ٤ - تمثال الكاتب دودو
- ٥ - اواني فخارية
- ٦ - اواني حجرية
- ٧ - نفائس من الذهب
- ٨ - حلي مصنوعة من معادن مختلفة واحجار كريمة
- ٩ - حلي مصنوعة من احجار كريمة متنوعة *
- ١٠ - حلي من الفضة والذهب
- ١١ - حلي معمولة من الاحجار والذهب
- ١٢ - صناعة الاختام الاسطوانية
- ١٣ - صناعة الاختام الاسطوانية
- ١٤ - كتابات صورية ومسمارية
- ١٥ - نص خاص بعقد « تبني كاذب » *
- ١٦ - لوحات من العاج
- ١٧ - فوق : لوح فخاري ربما يمثل سيرك *
- تحت : قوارير زجاجية اشورية *



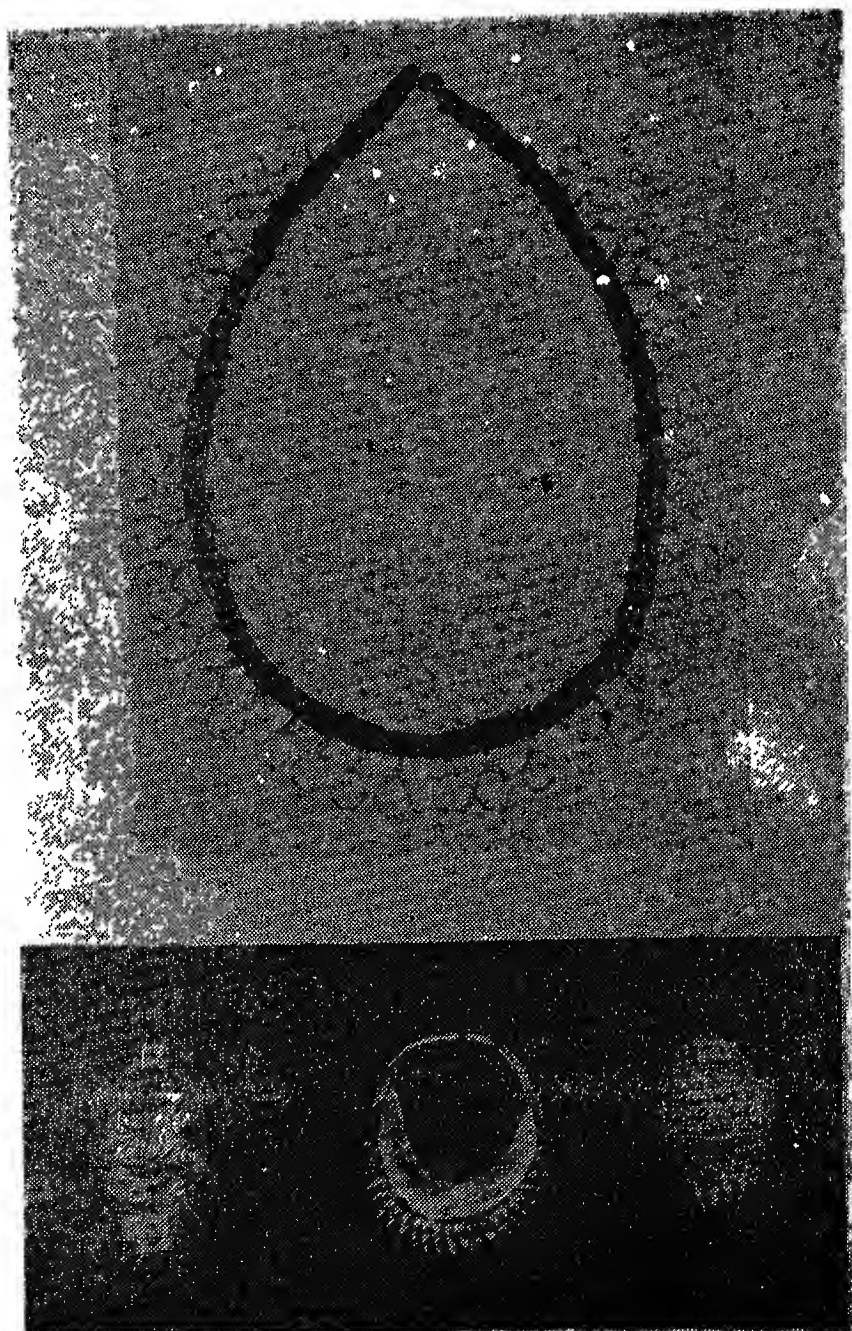


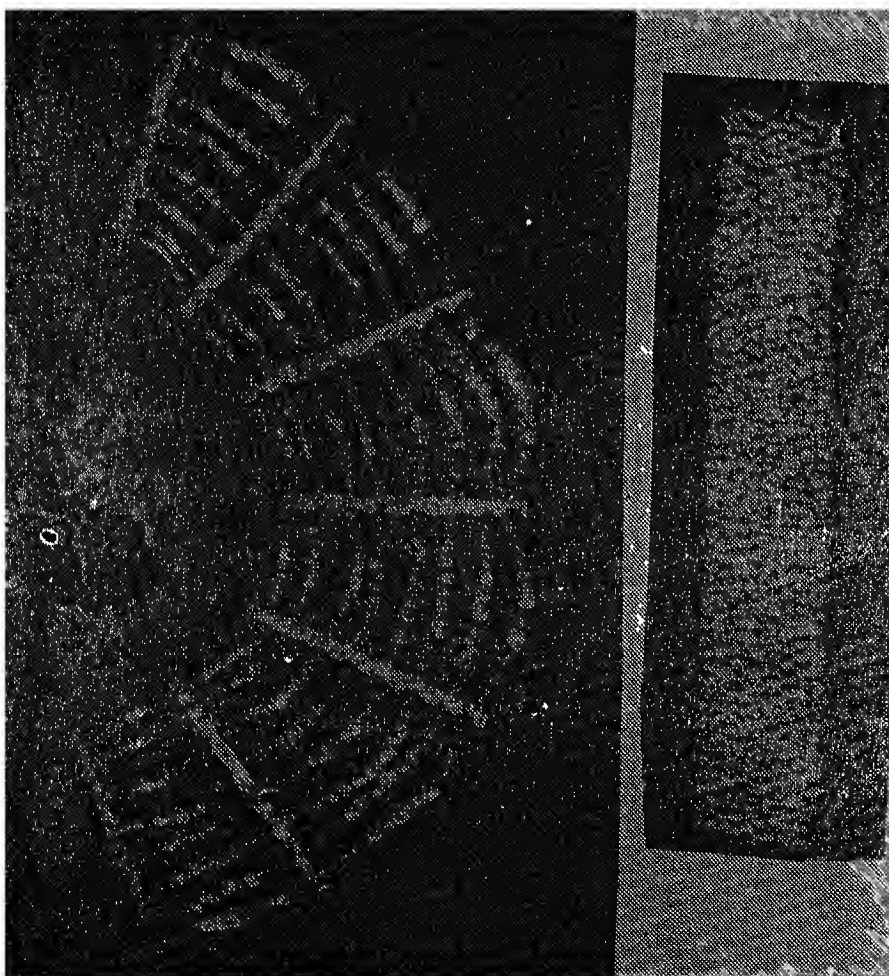


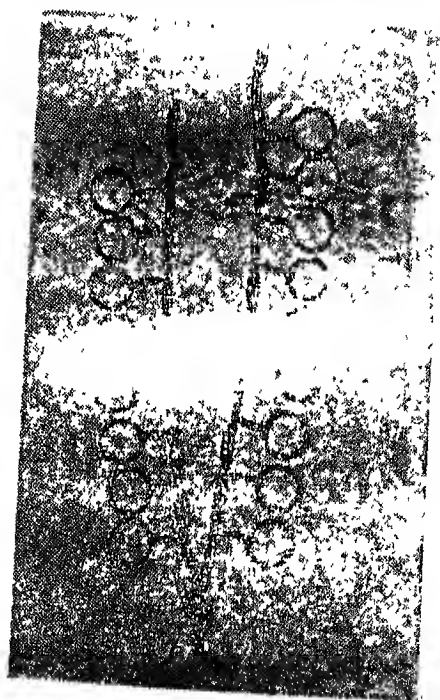
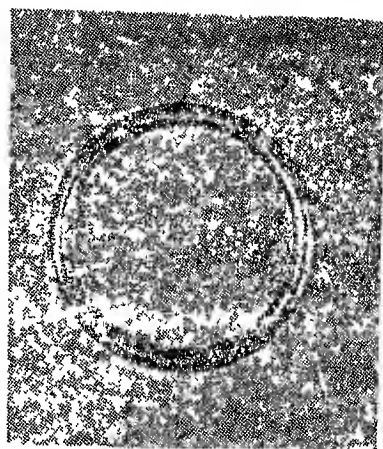
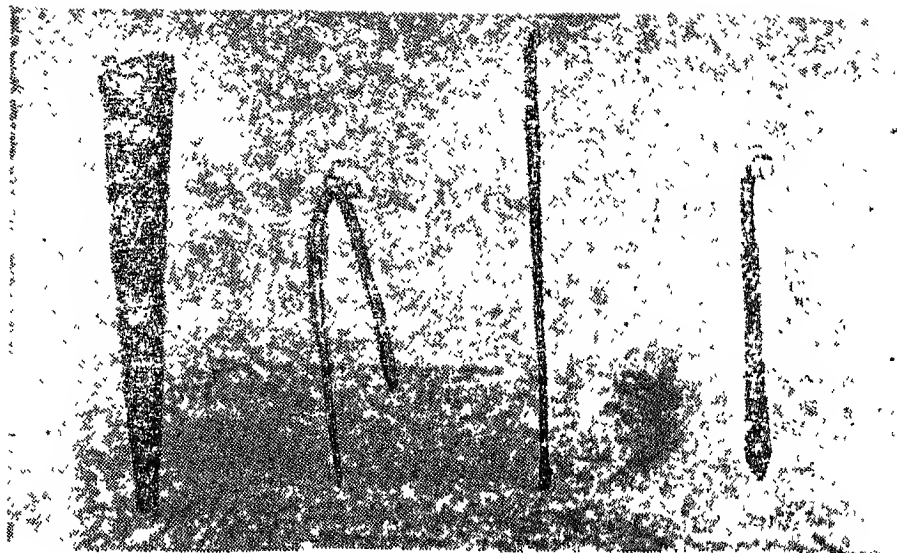




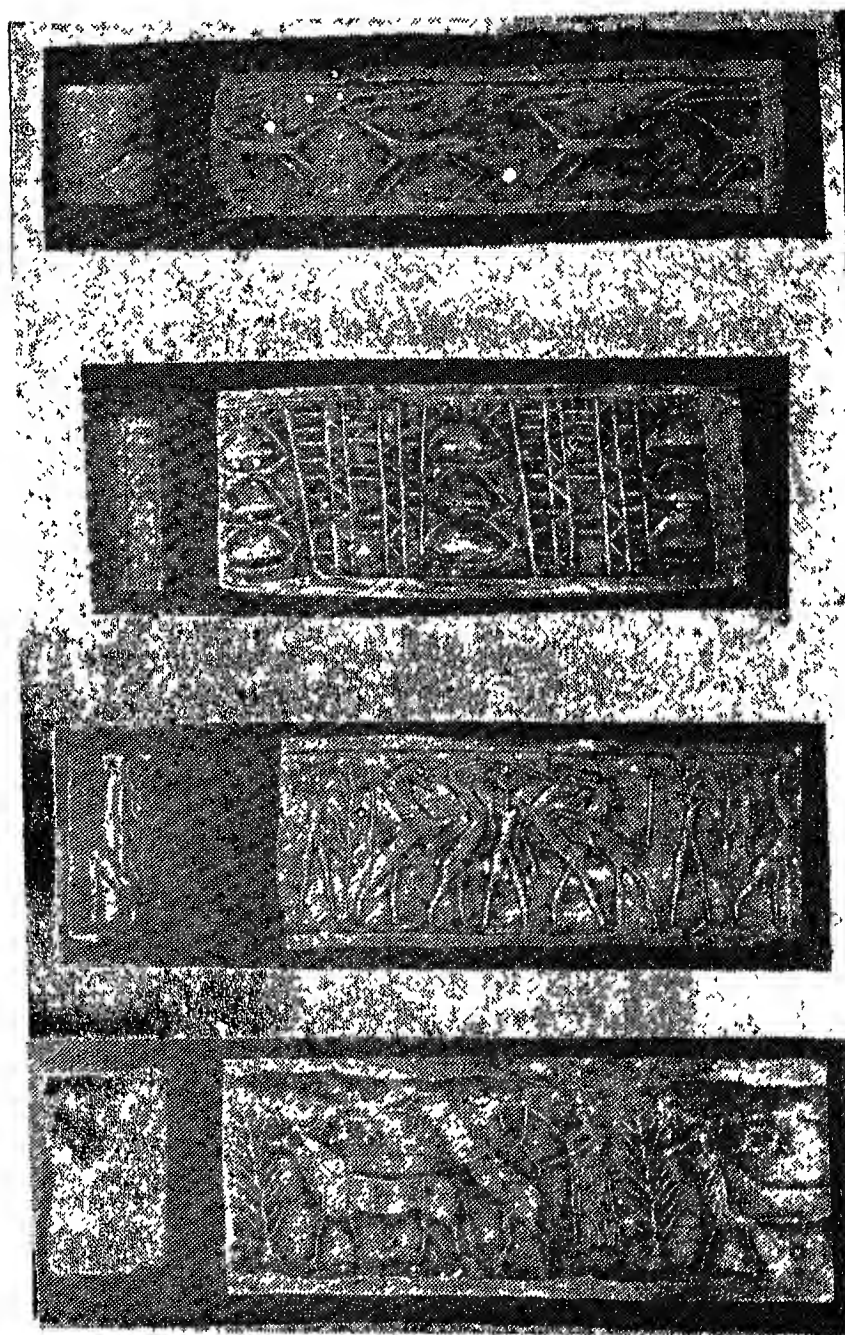




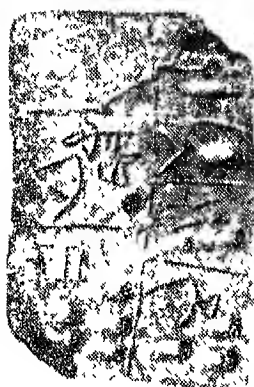
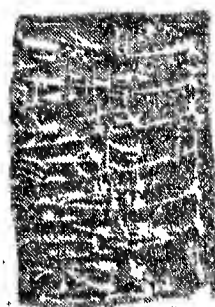


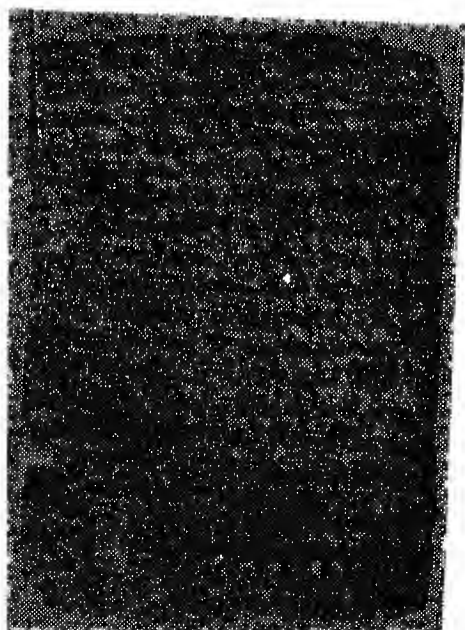
















- Adams, R. McC C., **Lard Behind Baghdad**. University of Chicago Press, 1965.
- Adams, R. McC. C., **The Evolution of Urban Society. Early Mesopotamia and Prehispanic Mexico**, Chicago, 1966.
- Adams, R. McC. C., **Hearti and of Cities : Surveys of Ancient Settlement and land use on the Central flood plain of the Euphrates**,
- Adams, R. McC., **Property rights and functional tenur in Mesopotamian rural communities**. In **Societies and language of the ancient Near East : Studies in honour of I.M. Diakanoff** edited by M.A. Dandamaver et al., pp. 1-14 London 1982.
- Adams, R. McC. C., Sanders, W. and Wright, H. **On the Evolution of Complex Societies**. Essays in Honour of Harry Hoijer Malibu 1984.
- Al-Rawi, F.N.H. **Studies in the Commercial Life of an Administrative Area of Eastern Assyria in the Fifteenth Century BC**, based on published and unpublished Cuneilorm Texts, unpublished Ph. D. Thesis, U.C.C., U.K. 1977.
- Chiera, E., **Legal and Administrative Documents from Nippur chiefly from the Dynasties of Isin and Larsa**, Publications of the Babylonian Section, Vol. VIII No. 1, Pennsylvania, 1914.
- Chiera, E., **Old Babylonian Contracts** Publications of the Babylonian Section Vol. VIII. No. 2., Pennsylvania, 1922.
- Chiera, E., **They Wrote or Clay**, University of Chicago Press, 1959.
- Diakanoff, I.M., **Ancient Mesopotamia**, Moscow 1969.
- Diakanoff I.M. **Socio - economic classes in Babylonin and the Babylonian concept of social stratification**. In *Gesellschaftsklassen in*

- Alten Zweistromland in den angrenzenden Gebieten - XVII. Rencontre assyriologique internationale. edited by D.O. Edzard, pp. 41 - 52, 1972.
- Diakanoff, I. M. **Slaves, helots and Serfs in early antiquity**, Academiae Scientiarum Hungaricae, Acta Antiqua 22 : 45-78, 1974.
- Dijk J. Van **Cuneiform Texts : Old Babylonian Judicial Texts**. Texts in the Iraq Museum 4. Wiesbaden : Otto Harrassowitz, 1967.
- Driver, G. R. and Miles, J.C. **The Babylonian Laws**, 2 volumes Oxford, 1968.
- Figulla, H. H., and W. J. Martin, **Ur Excavations, Texts : Letters and Documents of the old Babylonian Period**, Philadelphia, 1953.
- Foster, B. R., **Commercial activity in Sargonic Mesopotamia**, Iraq 23 : 31-43 1977.
- Gelb, I.J. **On the alleged temple and state economies in another Mesopotamia**. In Studi in Onore di Edoardo Volterra, Vol.6, pp. 137-154 Rome 1969.
- Gelb, I.J., **Prisoners of war in early Mesopotamia**. Journal of Near Eastern Studies 32 : 70-98 1973.
- Gelb, I.J. **Household and family in early Mesopotamia**. In State and temple economy in the ancient Near East, edited by E. Lipinski. Orientalia Louvasiensia Analecta 5 : 1-99, 1979.
- Gordon, E.I., **Sumerian Proverbs : Glimpses of everyday life in ancient Mesopotamia**. Philadelphia : Museum Monographs, 1959.
- Grayson, A. K. and Levine, L. D. **Bulletin 12**. The Society for Mesopotamian Studies, Canada, 1986.
- Hamblin, D. G., (ed.) **The First Cities, The Emergence of Man Time Life Books**, 1973.

- Harris, Rivkah, **Ancient Sippar**, Neder Lands Historisch - Archaeologisch Instutex te Istanbul, 1975.
- Johns, C.H.W., **Babylonian and Assyrian Laws, Contracts and Letters**, New York, 1904.
- Kramer, S.N., **The Sumerians; Their history, culture and character**, University of Chicago Press, 1963.
- Laessoe, J., **People of Ancient Assyria**, Routledge and Kegan, 1963.
- Larsen, M.T. **The Old Assyrian city.- state and its colonies. Mesopotamia 4.** Copenhagen : Akademisk Forlaq, 1976.
- Levey, M. **Chemistry and Chemico Technology in ancient Mesopotamia**, Lectwes, 1978, Oxford, 1979.
- Moorey, P.R.S. (ed) **The Origins of Civilization** Wolfson, College
- Müller, V., "Types of Mesopotamian Houses, **JAOS**, 60 pp. 151-180, 1940.
- Oppenheim, A. Leo, **Ancient Mesopotamia, U.S.A**" 1965.
- Poebel, A., **Babylonian Legal and Business Documents from the time of the First Dynasty of Babylon, chiefly from Nippur. The Babylonian Exp. of the Univ. of Pennsylvania, Series A: Cuneiform Texts, Vol. VI, part 2**, Philadelphia : University of Pennsylvania, 1909.
- Postgate, J. N., **The Role of the Temple in the Mesopotamian Secuals Community. In Man, Settlement and Urbanism**, Cambridge, 1972.
- Salonen, E., "Tithe - The Oldest known form of taxation", Baghdad, Archaeology Dept. 1984.
- Saggs, H. W. F., **The Greatness that was Babylon**, Sidgwick and Jackson, London, 1966.
- Saggs, H.W.F., **Everyday Life in Babylonia and Assyria**, B.T. Batsford Ltd., London, 1965.

- Starr, R. F. S., Nuzi; Report on the Excavations at yongan Tope Near Kirkuk, Iraq. Conducted by Harvard University in Conjunction with the American Schools of Oriental Research and the University Museum of philadelphia, 1927-31, with Appendixes by C.R. Shute, R.W. Ehrich, H.W. Elliott, R. J. Gellens and E.R. Lacheman, Vol 1, Text Harvard University Press, 1939, Vol. 2., Plates and Plans Harvard University Press, 1937.
- Stone, E.C., and Paul. E. Zimansky, Old Babylonian Contracts from Nippur I, Oriental Institute Microfiche Archives Vol. I. Chicago 1976.
- Stone, E.C., Economic Crisis and Social upheaval in Old Babylonian Nippur. In Mountains and Lowlands : essays in the archaeology of greater Mesopotamia edited by L.D. Levine and T.C. young, Jr., pp 267-289 Bibliotheca Mesopotamica 7, Malibu, 1977.
- Stone, E.C., The Social role of the naditu women in Old Babylonian Nippur, Journal of the Economic and Social History of the Orient 25 : 50 - 70, 1982.
- Sweet, R. F. G., On Prices, moneys and money uses in the Old Babylonian period Ph. D. dissertation, University of Chicago, 1958.
- Veenhof, K.R. Aspects of Old Assyrian trade and its terminology, Studia et Documenta ad Iura Orientis Antiqui Pertinentia 10, Leiden : Brill 1972.

الفصل الثامن

مدن القوافل والحاميات العسكرية

١ - الحضر

الدكتور واثق اسماعيل الصالحي
كلية الاداب - جامعة بغداد

تعتبر الحضرة من المدن الخالدة في تاريخ العراق القديم لانها تمتد في مظاهرها الحضارية الى مفردات العناصر العراقية الاقدم عهدا ، ومن المدن المهمة في تاريخ العرب قبل الاسلام لانها كانت مدينة محصنة منيعة استوطنت فيها القبائل العربية ولجأت اليها ودافعت عنها عند تعرضها للخطر الذي احدث بها بسبب موقعها الجغرافي المهم ولاهيتها السياسية ولازدهار اقتصادها .

يتميز موقع المدينة ، الذي يبعد ٦٠ كم غرب مدينة آشور العاصمة الاولى للآشوريين و١١٠ كم جنوب - غرب مدينة الموصل ، بصفات سوقية (استراتيجية) اهمها موقعها الجغرافي الذي يسيطر على الطرق والمسالك البرية التجارية والعسكرية المحاذية لنهري دجلة والفرات ووفرة المياه العذبة التي تنبع من عيون عديدة وحيث تتجمع مياه الامطار الغزيرة في المناطق القريبة منها ، وقد بنى الحضريون عددا كبيرا من الابار يتميز بعضها

يجودة مياهه الصالحة للسرب ، وقد عثر عليها في معظم مرافق المدينة التي امتدت اليها معاول المنقبين + ويمر مجرى وادى الثرثار على بعد ٣ كم الى الشرق منها حيث ترفده عيون وينابيع وجداول وتكثر فيه المياه طيلة فصول السنة وتقل ايام الصيف +

ومن المحتمل ان في أرض الحضر كانت تقوم زراعة ولكن بمدى محدود + كتب المؤرخون الكلاسيكيون عن الحضر واشادوا بتحصيناتها الدفاعية واستحكاماتها العسكرية المنيعة وانها المدينة الوحيدة التي تحدث عدوان جيوش الاباطرة الرومان بصمودها الرائع وبمسالة اهلها مما أثارت الحسرة في نفوسهم وكتب عنها المؤرخون العرب وعن ضخامة ابنتها وذكرها يحزن مصيرها +

زار الحضر عدد من الرحالة الاجانب خلال القرن الماضي ووصفوا باختصار معالمها الشاخصة آنذاك ضمن كتبهم عن بلاد ما بين النهرين وفي مطلع هذا القرن قام الالماني والترأندريه ، الذي كان ينقب في مدينة آشور ، بزيارات عديدة للمدينة ووضع كتابا عن ابنتها وأسوارها ومقابرها في عام ١٩١٣ بعد أن نشر وصفا مختصرا لها في كتيب صدر في عام ١٩٠٨ وأخذت المؤسسه العامة للآثار على عاتقها اجراء التنقيبات في المدينة منذ ربيع عام ١٩٥١ ضمن مواسم متعاقبة استمرت حتى الوقت الحاضر واستطاعت الكشف عن العديد من مبانيها وخاصة ابنية المعبد الكبير الذي يتوسط المدينة ومجموعة من المقابر ودور السكن وبوابتين من بوابات المدينة الاربعة اضافة الى ثلاثة عشر معبدا صغيرا او مزارا خارج المعبد الكبير كانت مخصصة لعبادة آلهة المدينة + وعثرت البعثات العراقية نتيجة اعمال التنقيب والصيانة التي صاحبته منذ عام ١٩٦٠ على كنوز من الاثار زينت متاحف القطر كافة وخاصة المتحف العراقي +

زودتنا التنقيبات بعلومات مهمة عن التحصينات والاستحكامات العسكرية للمدينة اثبتت بأن سورها الرئيسي الحالي شبه الدائري المتضمن

العديد من الابراج والقلاع قد تم تشييده خلال الفترة بين القرن الاول قبل الميلاد والنصف الاول من القرن الاول الميلادي ومن المحتمل ايضا ان حفر الخندق المحيط بها من كافة جوانبها قد تم في هذه الفترة ، مما يشير واستنادا الى دلائل اثرية الى أن الحضريين التجأوا الى المعبد الكبير ، داخل سور القديم المدعم بطلعات نصف دائرية اثناء فترات الخطر قبل احاطة مدينتهم بسورها الحالي ، وقد شيد هذا السور من اللبن المنتظم (شكل ١) وكان عرضه ثلاثة امتار يقوم على أسس من احجار مهندمة قد ترتفع مترين فوق مستوى الارض الطبيعية ، وزيادة في مناعته ومتانته فقد زود بالعديد من الابراج ، قد يزيد عددها عن ١٦٣ برجا ومجموعة من القلاع الحجرية الصلدة وظيفتها الاساسية دفاعية اضافة الى استخدام سقفها لوضع المدافع والمعدات الحربية المختلفة . ويحيط بالسور الداخلي خندق يتراوح عمقه بين ٥-٨ امتار ويعرض ٨ امتار وجانبه القريب من المدينة بني بشكل جدار من الحجر يقوم على الارض الصخرية البكر ومدعم بطلعات او ابراج صغيرة لاسناده وزيادة مناعته (شكل ٢) ، وفوق الخندق وفي منطقة البوابة الشمالية بنيت قنطرة بعرض ٥ امتار توصل الى أرض الحضر ، وللمدينة سور خارجي يبعد عن السور الرئيس بحوالي ٥٠٠ متر يحيط بها من كافة جوانبها وقد اثبتت التنقيبات الاثرية بأن هذا السور ترابي وأسس مرصوفة بأحجار صغيرة وبغير انتظام وقد أقامه الحضريون مانعا اوليا لاعاقبة الجيوش الغازية .

لمدينة الحضر اربع بوابات مزورة متشيدة على سورها الرئيسي بالاتجاهات الاربعة الطبيعية وهذا التصميم يساعد على ضبط الاتجاهات والرصد وصممت مداخل البوابات بشكل يتعذر على العدو المهاجم اقتحامها لمذاعة ابراجها العديدة وكانت بعرض ٨٠/٣م وتسد بواسطة ابواب خشبية ثقيلة تدور على صنارات حجرية وتغلق بمزلاج سميكة ويحيط بالمدخل من الجانبين برجان مرتفعان يبرزان على السور الرئيس ولكل مدخلي البوابتين الشمالية والشرقية باحة زينت بتماثيل آلهة لها علاقة بحياة

الجنود كتمثال هرقل - نرجال الذي اطلق عليه اسم (دحشفظا) والذي يعني (آمر الحرس) (شكل ٣) *

وللبوابة الشمالية (شكل ٤) مدخل آخر الى جنوب المدخل الرئيس يشابهه في التصميم والبناء والقياسات وله ايضا باب ختبي كان يسد بواسطة مزلاج ولكنه يختلف عنه في تاريخ البناء ، فقد بني في فترة لاحقه (حوالي ٢٣٠ ميلادية) ويمتد من جهتي المدخل الشرقية والغربية سور آخر واطيء عرضه ٣ أمتار على جانبيه سلاله يرقى عليها ويعتبر هذا السور خطا دفاعيا ثانيا وقد اثبتت تنقيبات البوابة الشرقية والصور الجوية للموقع بأن هذا السور يمتد بموازاة السور الرئيس في معظم الاحيان *

بنت ابنة الحضرة الرئيسة في وسطها تقريبا يحيط بها سور مستطيل الشكل ، وقد عرفت بالمعبد الكبير حيث اطلق الحضريون أنفسهم هذه التسمية على هذه المجموعة المنناثرة من الابنية حيث سوه (هيكلاوبا) أو (بيت الها) اي بيت الآلهة * اسور المعبد مداخل متعددة يتراوح عددها احد عشر مدخلا عدا مدخله الرئيس الذي يقع في ضلعه الشرقي ويقسم المعبد الى قسمين رئيسيين هما الحرم والصحن بواسطة جدار فاصل يستد باتجاه شمالي - جنوبي ويحتوي على اربعة مداخل اثنان منهما رئيسيان يتألف كل منهما من ثلاث فتحات اكبرها يقع في الوسط (شكل ٥) وأثبتت التحريات الاختبارية عن الادوار التعبيرية والبنائية لسور المعبد الحالي بأن له تاريخا أقدم وانه احتوى على طلعات نصف دائرية الشكل بينما ضم السور الحالي طلعات مستطيلة أو مربعة الشكل اضافة الى العديد من الغرف التي كانت تستعمل كمكاتب لمختلف الاعمال ومخازن وقد اوضحت التنقيبات التي اجريت في قسم منها وجود فندق للزوار واشتغل على مخازن اخرى يتم بها البيع والشراء ، فلهذا كان للمعبد الكبير وظيفة تشابه وظيفة « الاكورا » الاغريقية *

وفي حرم المعبد الكبير بنيت اهم معابد الحضرة بالحجر المهندم وهي
تتضمن على صف من اواوين منسقة تواجه السوف وتتألف من ثلاث وحدات
بنائية واذيف خلف الوحدة الجنوبية منها معبد مربع خصص لسميا وحلفه
معبد التثليث ، مرن ومرتن وبرمرين وفي الصحن شيد معبد كبير خصص
للآلهة العربية اللات ومعبد مرن او ما يعرف بالمعبد الهلنستي لطراز بنائه الغربي
الشكل *

يرقى الى الاواوين المتسقة بواسطة ست درجات من الساحة الامامية
وهي تتألف من ثلاث وحدات بنائية ، وحدتان منها تتشابهان في التصميم
والبناء ويتألف كل منهما من ايوان وسطي كبير على جانبيه ايوانان صغيران
وبطابقين وخلفهما غرف اخرى * وزينت أقواس فتحات الاواوين بالتحليات
والزخارف المتعددة اضافة الى منحوتات نصفية بارزة لآلهة الحضرة وملوكها
وامرائها والتي بدونها تبدو سطوحا بسيطة واشتملت زخرفة واجهة الاواوين
على اعمدة نصف دائرية مندمجة بمقدمة البناء تعلوها تيجان كورنثية الطراز
ورفوف مزينة في الاسفل بصورة مدروسة وجدران الايوان الوسطيين
مزخرفة بأقنعة مسرحية ووجوه الغرض منها طرد الارواح الشريرة ، ولكل
منها ايضا طنف (افريز) على جدرانها الطويلة وضعت فوقها تماثيل لعقبان *
وتشير الدلائل الكتابية ان وحدة الايوان الجنوبي كانت مخصصة لعبادة مرن
وان وحدة الايوان الشمالي ربما كانت مخصصة لبرمرين وفي داخل كل من
الايوانين مذبح من المرمر المعرق مطعم بأشكال صنعت من الذهب والفضة
والنحاس ومذبح الايوان الشمالي كان مسقفا بمظلة تتألف من اعمدة من
الحجر آثار تثبيتها في صدر الايوان لاتزال ماثلة للعيان * وكان للاواوين
الوسطية الكبيرة ابواب خشبية بنفس الحجم يستدل عليها من وجود تقوب
واسعة في دعائم الايوان لتثبيت اخشاب الابواب وحزوز الاقفال التحتانية
وكذلك حجارات صغيرة في ارضية الايوان لغرض منع الابواب من
الاصطدام بجدران الايوان ، اما عتبات الابواب فقد طعمت باحجار بألوان

مختلفة . وصلنا البعض منها وفقد القسم الآخر ولكن اماكنها لاتزال مرئية على العتبات *

والوحدة الثالثة تتألف من ايوانين متوسطي الحجم يفتحان من الخلف الى حجرة مستعرضة ، وقد اطلق المنقبون على هذه الوحدة اسم « معبد العجول » للعثور على مقدمة عجول بالنحت البارز العالي تزين الايوان الجنوبي منها لعلها ترمز الى بعلشمين اله الرعد والعواصف في الحضر وقد ورد ذكره في كتابات الحضر وعثر على منحوتات تمثله ويرمز اليه بالعجل * والايوان الآخر يرجح أنه مخصص لعبادة أترعنا حيث كانت مرافقة لبعلشمين لعلها تكون زوجته حيث خصص الحضريون لها احد المعابد الصغيرة وخصصوا المعبد المجاور لعبادة بعلتسين ، وتشير الدلائل الآتارية الى ان هذه الاواوين كانت في الاصل مشيدة من اللبن بدليل العثور على اربع طبقات بنائية اقدم منها تخرقها أسس الاواوين . ربما قد استعوض عن الابنية السابقة بأبنية تعسد الايوان في تخطيطها ومقبة بالحجر المهندم في حدود النصف الثاني من القرن الاول الميلادي وتستدل من ضخامة وسعة الاواوين المتسقة بان ثلاثة اجيال من حكام الحضر الذين لقبوا أنفسهم بريا (السيد) قد اشرفوا على بناء الوجدتين الجنوبية والشمالية وتركوا أسماهم منقوشة على اجزاء البناء التي تست تحت اشرافهم اضافة الى العثور على اسماء المعارين والنحاتين الذين ساهموا في تشييد البناء ونحت زخارفه وهم برني (المعمار) بن يهتشي واولاده الثلاثة ادى وزيدو ويهتشي وكفع - نني (المعمار) حيث يستدل من اسمائهم على انهم كانوا من ابناء جزيرة العراق او بالاحرى من الحضر *

وقد اضيفت بناية مربعة الشكل تقريبا (١١٧٥×٩٦م) خلف الايوان الجنوبي مباشرة بقع مدخلها في وسط صدر الايوان بعد ان اسنغض عن مدخل آخر لابقع على محور واحد من فتحة الايوان *

والبنية المربعة محاطة من جوانبها الاربعة بممرات ولها مدخل آخر يقع في ضلعها الغربي وقد سد بعدئذ من الخارج بمصطبة مسقفة او سقيفة ملتصقة بالجدار الغربي وقد عثر على دلائل كتابية وآثارية تشير الى أن سنلروق الملك بن نصرو مريا كان مسؤولا عن اقامة السقيفة وتزيين واجهة البنية من الخارج بشرفات تتألف من أعمده ذات تيجان كورنثية وقد ترك اسمه منقوشا على عدد من احجار البناء ، ومن المحتمل انه قد اكمل تشييد هذه البنية المهمة المخصصة لعبادة الاله شستس الذي يعتبر على رأس مجموعة الالهة الحضرية وقد كرست الحضرة لعبادته بدليل نقش العبارة « حطرا دي شستس » والتي تعني (الحضرة مدينة النسس) على النقود الحضرية . وعلى اسكفة المدخل الرئيس يظهر الاله شمش وحول رأسه هالة منسعة وعلى جانبيه نسور ومحاط بغرافين من الكائنات الخرافية ، واشتهر معبد شستس لدى بعض المؤرخين الكلاسيكيين باحتوائه على الذهب ، دليل ازدهار وانتعاش احوال المدينة الاقتصادية .

سقطت خلوة شمش بقبو بالحجر المهدم بارتفاع اعلى من الممرات المحيطة بها التي يعلوها سقف مختلف حيث هناك أقواس تربط بين كل جدارين متقابلين منها ثم رصفت باحجار كبيرة فوق المسافات التي بين الاقواس ليصبح سقفا مستويا وتعلوها شرفات لتكون بارتفاع الخلوة . وطريقة التسقيف هذه تعتمد على سلسلة من الاقواس لتحمل سقفا مستويا أصبحت صفة بارزة للعمارة الرومانية والعمارة المسيحية المبكرة في منطقة حوران وكذلك في البتراء ، حيث استعملت لتغطي بعض مجاري المياه ، فمن المحتمل ان المعمار قد لجأ الى العمل بنوعي التسقيف المعروفين لعدم درايته باستعمال الاقاييه المتقاطعة او القباب لتسقيف خلوة شمس المربعة الشكل . ومع ذلك فيبدو ايضا ان المعمار الحضري قد عرف استعمال القبة في فترات لاحقة بدليل العثور على مصغرين لمعابد او مزارات تعاونها قباب ولكنها ليست كافية للاسندلال الى ذلك ولكنها قد تشير سؤالا

مهما حول المدى الذي وصلت اليه معرفة التسقيف بالفئة ومدى تطبيقاته الانشائية ، ومهما يكن من أمر فان الحفائر الاثرية في مرافق المدينة المختلفة لابد وأن تكشف عن دلائل مهمة تؤدي الى مؤشرات قد تساعد في تقديم بعض الحلول لهذا السؤال *

ومن الابنية المهمة الاخرى في حرم المعبد الكبير ، معبد خصص لعبادة شحيرو نجمة الصبح ، يقع الى الشرق من الاواوين المتسقة ويواجه الجنوب . يتألف معبد شحيرو من خلوة يعلوها قبو وامامها سقيفة امامية مكونة من ستة اعمدة كورنتية ، اربعة منها في الواجهة وعمود واحد خلف كل من عسودي الركنين (شكل ٦) *

لقد مر هذا المعبد بأدوار تعبيرية متعددة فقد كان في ادواره الاولى يتألف من الخلوة المستطيلة الشكل ، والسقيفة الامامية يعلوها سقف سنامي الشكل ، وفي الدور الاخر حصل تبديل في طريقة التسقيف حيث استبدل السقف بقبو مشيد بالحجر المهندم وتبعنه ايضا بعض التغييرات الجانبية من الجهة الغربية كما اضيفت غرفتان الى جهة المعبد الشرقية لاحداها غرفة تحت الارض قد تكون قبرا *

يعتبر بعض الباحثين هذا المعبد من اقدم معابد الحضرة بعد مرز (الهلنستي) لانه يعتمد العمود في واجهته وباسلوب بناء بعض جدرانها الذي يعتمد على وضع احجار البناء بشكل عسودي متناوب . والى الجنوب من معبد شحيرو يقع معبد آخر ربما خصص لعبادة سميا استنادا الى دلائل آتارية ويتألف من ايوان وسطي كبير على جانبيه ايوانان صغيران وبطابقين وغرف اخرى خلفهما . واعتبر المنقبون هذا المعبد من اقدم الابنية في الحضرة التي تعتمد الايوان في مخططها لاسباب عديدة من أهمها ان الواجهة قد اتست ببساطة زخرفتها فقد جاءت خالية من انصاف الاعمدة التي تزين جانبي الايوان

ومن النحت البارز للرؤوس التي تغطي احجار الاقواس كما في اقواس الاواوين المنسقة ولهذا المعبد مذبج او دكة لوضع تمثال الاله الرئيس وفي داخل الجدار الخلفي توجد كوة صغيرة *

ومن الابنية التي شملتها الحفائر الاثرية في حرم المعبد الكبير معبد يقع الى الجنوب من معبد سميا ويعتمد الايوان في مخططة ايضا ويتألف من ايوان وسطي واسع وعلى جانبيه ايوانان صغيران بطابقين وقد خصص لعبادة آلهة التثليث الحضرية (مرن ومرتن وبرمرين) « سيدنا وسيلدتا وابن ساداتنا » بدليل العثور على الواح بالنحت البارز تمثلهم * قسمت واجهة المعبد الامامية زخرفيا بواسطة عدد من انصاف اعمدة دائرية مدمجة واقواس زينت احجارها وبخاصة احجار اقواس الايوان الكبير بالنحت البارز لآلهته مثل هرقل واللات والنسر وسميا بينما فحتت رؤوس لسادة وسدنة المدينة على احجار اقواس الاواوين الصغيرة من بينها رأسان يمثلان نصرو مريا الذي يرجح انه كان سيد المدينة في حدود الاعوام ١١٥ - ١٣٨ ميلادي * وقد صور في المرة الاولى بهيئة شاب وفي الثانية بهيئة رجل في مقتبل العمر * وفد عثر المنقبون في هذه البناية على كتابة مهمة تشير الى ان نصرو مريا بن نثريهب مريا كان مسؤولا عن تشييد هذه البناية * ويقع امام المعبد هذا منخفض اثبتت التحريات الاثرية انه احتوى على مدرجات من جهات ثلاث دعا بعض الباحثين الى اعتباره مكانا لاجتماع مجلس المدينة *

اما معبد مرن (الهلنستي) فيحتل موقع الصدارة في صحن المعبد الكبير وهو يتألف من صفين من الاعمدة تدور حول الخلوة التي بنيت فوق مصطبة طولها من الاسفل ١٣ر٨٣ م وعرضها ١ر٥٢ م وبارتفاع قدره ١ر٨٠ م عن الارضية (شكل ٧) والاعمدة الداخلية وهي ذات طراز آيوني تقوم على حافات المصطبة واما الاعمدة الخارجية فهي الاكبر حجما تقوم مباشرة على الارض وعددها ٢٥ عمودا من الطراز المركب * وللمعبد سقف غريب فمن جانبيه الشمالي والجنوبي اي بين الاعمدة الصغيرة والكبيرة شيد مستويا ثم

على تسكل جملون فوق الخلوة ، وعشر على بلاطات مربعة الشكل مزينة بمشاهد مختلفة ومطعمة بالحجار ملونة كانت تحلي بعض اجزاء السقف بعد وضعها في اطر ختسية . وقد تم تمييز فترتين رئيسيتين من تاريخ هذا المعبد ، كانت البناية في الفترة الاولى تتألف من الخلوة والاعمدة الايونية وفوق المسافة الوسطية بين العمودين اللذين امام باب الخلوة بنى قوسس . اما الاعمدة الخارجية مع القوصرتين الامامية والخلفية فقد اضيفتا في الفترة التعسيرية الثانية وتمدنا بعض الدلائل الاثرية والعمارية وبخاصة الزخارف بمؤشرات حول تشييد هذه البناية التي يرجح انها تعود بتاريخها الى القرن الثاني قبل الميلاد وعشر اثناء التنقيبات في المعبد على تسائل رومانية ترجع بأسلوبها الى أسلوب النحت الهلنستي من بينها تسال لابلو وبوسايدون وايروس وهرمز تعود الى حقبة متأخرة من تاريخ المدينة عندما تحالف الحضريون مع الرومان ضد الغزاة الساسانيين . وعشر المنقبون ايضا على تسائل كانت تزين اركان المعبد من الاعلى من بينها تسال برونزي لالهة النصر فايكه وتسال آخر لها صنع من الحجر .

وشملت اعمال التنقيبات الاثرية ايضا بناية اخرى من صحن المعبد وقد اتضح بانها تتألف من ايوان كبير وعلى جانبيه ايوانان صغيران وهي بذلك تنسب الطراز الحضري المألوف في الاواوين المتسقة ولكنها تختلف عنها من حيث السعة والضخامة وبالتفاصيل الزخرفية العمارية المختلفة التي كانت تزين الواجهة ، وتشير الكتابات الارامية الى ان الملك سنطروق الاول قد بنى هذا المعبد وخصصه لعبادة الآلهة العربية « اللات » بعد أن زينة بسجوسة رائعة وبنحت بارز لعازفين على مختلف الالات الموسيقية سواء الات النفخ منها او القرع يصاحبهم آخرون يصفقون ويغردون فرحين بقدوم الهتهم المفضلة والمنحوتة صورتها وهي راكبة على ناقه (شكل ٨) .

وامتدت اعمال الحفائر الاثرية لتشمل عددا من بيوت الاصنام او المعابد الصغيرة في اماكن متفرقة من المدينة وقد عثر فيها على تسائل ومنحوتات

كثيرة تستل الهمة واشحاصا كانوا مسؤولين عن تشييدها كما عثر على منحوتات مسائلة لكهننتها وهذه المعابد متشابهة في تخطيطها وتتبع اسلوب تخطيط المعابد البابلية القديمة ، فكل منها يتألف من قاعة مستعرضة الشكل هي المحسى وخلوة مربعة الشكل في احد الاضلاع الطويلة تقع بسواجهة المدخل الرئيس والحقت بها ، في بعض المعابد ، غرفتان على كل جانب استعملتا لوضع القرايين والنذور المقدمة لاله المعبد الرئيسي * وقد امدتنا الكتابات التي عثر عليها محفورة باسكفة المدخل او على ارضية وجدران المبنى بمعلومات عن عائدة هذه المعابد ، فمن المحتمل ان ياتي الاصلان الاول والثامن كانا مخصصين لعبادة نرجول اله العالم الاسفل والعاشر لهرقل - نرجول ، والثالث لبعلثسين والرابع لآترعنا والخامس لتقدیس اشربل - ايننا والسابع لهرقل والثاني عشر لعبادة نابو والثالث عشر لجندا وسققت معظم هذه المعابد بطريقة متشابهة لبعضها ، فسقف كل منها تألف من ثلاثة اقبية تقوم على الجدارين العرضيين وعلى قوسين يرتكزان من جهة على دعامتين واققتين على جانبي الخلوة ومن جهة على الضلع الذي يحوي مدخل المعبد ورصفت أرضية المعابد بالحجار من مرمر اخضر اللون والتي بنيت بها ايضا درجات السلالم التي تؤدي الى سطوح المعابد * وبنيت المعابد الصغيرة من اللبن على أسس من حجر مهندم تصل الى ارتفاعات مختلفة قد ترتقي الى ثلاثة أمتار ، وغطيت جدران اللبن والحجر بطبقة او بطبقتين من الجص وبنى السقف من كسر حجر وبشلاته اقبية *

وتقع امام هذه المعابد فناءات واسعة مكتسوفة تطل عليها من جوانبها المخاضفة دور خاصة اسكنى المواطنين وفي بعض الاحيان الاواوين او أروقة ومخازن دات علاقة بالمعبد * وشيدت دور السكن في الحضر باسلوب تخطيطي واحد تقريبا ، فهي تتألف من فناء او ساحة مكتسوفة بطل عليها من جهة الجنوب ايوان وعلى جانبيه غرفتان وتحيط بالساحة غرف من جوانبها الاخرى ، اما الدخول الى البيت فكان يتم بسدخل ينفذ الى مجاز طويل يصل

الى الساحة ووجد المنقبون بيتا واسعا ملاصقا للمعبد الاول ، سمي بيت معنو ، اساسا لادلة كتابية وهو يتألف من ساحة على جانبيها ايوانان متقابلان وعلى الجانب الاخر اروقة والجانب الرابع يحتوي على منفذين يؤديان الى وحدتين بنائيتين متجاورتين يتألف كل منهما من غرف واواوين تحيط بساحة مستطيلة الشكل .

اما مقابر المدينة فيقع معظمها في الجهة الشرقية منها وقسم منها داخل المعبد الكبير ، ومدفن الحضر بنيت من الحجر المهندم على اشكال متعددة اسطوانات طابق واحد مربع الشكل يتألف من غرفتين يربط بينهما مسر ومدنل منحدر من الخارج الى الداخل . من الابنية التي شملتها الحفائر الاثرية مدفن لقبيلتي تيمو وبلعقب يتألف من طابقين ، الطابق الارضي يتكون من ثلاث غرف ومسرى يوصل اليه من خلال مدخل ينحدر نحو الداخل بدرجات قليلة وفي احدى الغرف سائلم تؤدي الى الطابق الثاني الذي يتألف من غرفتين . وبعض الابنية تأخذ الشكل المربع وتحتوي على غرفة مربعة واحدة جدرانها على رفوف او قواعد ربما لوضع تسائيل الاموات الذين دفنوا في الابنية المجاورة . سقطت الغرف بالاقبية وكانت تضاء عن طريق نوافذ ضيقة ترتفع عاليا في الجدران ومداخلها سدت بأبواب حجرية ثقيلة تدور على سنارات حفرت في العتبات السفلى للمداخل .

يتضح من هذا الاستعراض لابرز المظاهر العمرانية في الحضر ان البناء بالايوان ، وهو الابتكار الاصيل للبناء العراقي قد استعمل في تشييد المعابد الفخمة الواسعة والمهمة وفي بناء دور السكنى البسيطة . فالايوان في الحضر دخل في كل ابنتها ، في معابدها وقصورها وبيوتها واصبح الصفة البارزة بالتسائعة العمارة الحضرية لقد طور المعمار الحضري عناصر مختلفة متناقضة ، في بعض الاحيان ، للعمارة المعاصرة والعمرارة العراقية القديمة واساليب العمارة الهلنستية وبعض عناصر العمارة الشرقية - الرومانية ووضعها في مايتسبة بودقة انصهار وحصل على اسلوب جديد متميز ، فهو مثالا قسم وبني

الاعمدة الحضرية بنوعها الحر والمندمج من الحجر المهندم بالطريقة الاغريقية التقليدية حيث اقامها بواسطة اساطين الواحدة فوق الاخرى وجعل قياسات ثلثها العلوي تتناقص حسب مبادئ العمارة الاغريقية في خداع النظر . واما الزخرفة والتي تشمل الجمع بين اوراق الاكانتوس والحبل المبروم والبيضة ورأس الرمح اضافة الى اشكال حيوانية وهندسية فهي من ابتكاره وكان قد ورث بعض عناصر العمارة الآشورية المتشابهة التي كانت تزين قاعات ومعابد الآشوريين ومزجها بعناصر العمارة الهلنستية .

اما عن تاريخ المدينة ، فلا زالت حقبة مهمة منه غامضة وخاصة الفترات الاولى من حياة المدينة ، ولم تزودنا التنقيبات بمعلومات وافية قد تميظ اللثام عن نشأة المدينة وحكامها .

والمعلومات القليلة التي بين ايدينا بخصوص تاريخ المدينة استقيناها مما كتبه المؤرخون الكلاسيكيون والعرب ، اضافة الى ما أمدتنا به الكتابات التي وجدت منقوشة على جدران الابنية وتباليطها او مدونة على التماثيل وقد زاد عددها عن خمسمائة ، ومعظم النصوص الحضرية قصيرة كتبت للذكرى او للدعاء ، وباللغة الآرامية باستثناء نص واحد بالاغريقية وثلاثة نصوص باللاتينية ، تعود بتاريخها الى السنين الاخيرة من تاريخ المدينة . ويحمل بعض من كتابات الحضر تواريخ حسبت استنادا الى التقويم السلوقي الذي بدأ في عام ٣١٢/٣١١ ق م .

والحضر عاصمة لمملكة عربية تسيطر على موقع مهم بين النهرين وقد اثبتت بانها كانت مصدر قلق لكل طامع اراد نهب مدن العراق وكانت احدى الدويلات التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي كاخواتها تدمر والبصرة ودورايوروس (الصالحية) ازدهرت في عصر اطلق عليه المؤرخون العرب «عصر ملوك الطوائف» حيث ادارت الحضر شؤونها الداخلية وتمتعت بالحرية الكاملة في ممارسة عقائدها الدينية والقومية وضربت النقود الخاصة بها . واعتبرها

المؤرخون الكلاسيكيون مدينة عربية • ويعتقد معظم الباحثين ان غالبيتها سكانها كانوا عربا كما تؤكد ذلك النصوص الكتابية اضافة الى انها تفسر بان ملوك الحضر سسوا انفسهم « ملوك العرب » وانهم سيطروا على مناطق واسعة حيث امتد نفوذهم في المنطقة التي عرفت باسم عربايا والتي تستد حدودها الى ماوراء سنجار شمالا والخابور غربا والمدائن جنوبا •

اما عن تأسيس ونشأة المدينة فهناك اعتقاد بانها كانت قرية في زمن الاشوريين ، وهذا الافتراض يبدو ضعيفا لعدم العثور على ادلة مادية تسنده، ولكن في الفترة السلوقية ، وفي حدود القرن الثاني ق.م ، اشارت الدلائل العمارية واللقى الاثرية المختلفة بوضوح الى استيطان الموقع وتشييد ابنية من حجر واخرى من اللبن في اطراف مختلفة من الموقع وازدادت اهمية المدينة العسكرية عند اندلاع الحروب الطويلة بين الرومان في الغرب والفرثيين من الشرق وخاصة في الاعوام بين ٦٩-٣٦ ق.م حيث برزت اهمية القبائل العربية التي تسكن البادية الغربية والتي انخذت من مدنة الحضر مركزا مهما لها ، فالحضر كانت عاصمة لمملكة عربية وردت في كتابات الحضر الآرامية باسم عربايا (اي بلاد العرب) وحكستها سلالة عربية لقب ملوكها انفسهم ملوك العرب المنتصرين • ومن المحتل ان سور المدينة الرئيس تم تشييده واحيطت بخندق عميق خلال هذه الفترة التي اتسمت بالصراعات العسكرية ، مما ادى الى تزايد اهتمام القبائل العربية بالمدينة واتخذتها مركزا مهما لها من جوانب عديدة وبخاصة الدينية منها ، حيث شيدت معابد صغيرة ومزارات خصصت لعبادة الهتها المفضلة وساهمت في تشييد معابدها الضخمة ايضا عن طريق تقديم الاموال اللازمة واثم تكريسها لعبادة آلهتها الوطنية واقامت تلك القبائل مقابرها الخاصة في الطرف الشرقي من المدينة وازدهرت المدينة خلال القرون الثلاثة لليلاد بسبب تدفق الاموال عليها نتيجة ازدياد اهميتها التجارية نظرا لوقوعها على الطرق البرية التجارية التي انشغلت في نقل البضائع والسلع الشرقية

من الهند والجزيرة العربية عبر مواني رأس الخليج العربي الى مواني*
سواحل الشام تمهيدا لنقلها الى الاسواق الغربية في روما حيث لقيت رواجا كبيرا.
نشير خرائط (بويتسكرتابل) الرومانية القديمة الى طريقين كانا يقودان الى
المدينة ، الطريق الاول يربط بين الخابور والحضر مارا بسنجار ، اما الثاني
فيبدأ من نصيبين الى سنجار سائرا بمحاذاة دجلة ثم ينعطف الى الحضر .

ويستدل من الكتابات ان الزعامة السياسية والدينية في بداية نشوء
المدينة كانت بيد الشيوخ فمنهم الزعيم (ربا) والسادن (رب - بيتا) ورئيس
الكهنة (افكلاربا) والكاهن (كمرا) والكاهنة (كمرتا) ثم انتقلت بعد نحو
المدينة وازدهارها في فترة السلم بين الرومان والفرتيين في السنوات بين
٦٥-٨١م الى زعماء او رؤساء عوائل لقبوا بمريا وتعني السيد . ويبدو ان
نشريه مريا هو اول من حمل هذا اللقب ، ويعتبر مؤسس السلالة التي
حكمت في مدينة الحضر . وهو والد نصرومريا ، الذي تعزى اليه اعمال
عمرانية كثيرة في المدينة . ولا يعرف الكثير عن نشريه مريا ويظن انه شيد
الايوان الشمالي من الاواوين المتسقة والذي يمثل اقدم جزء من تلك
الابنية ، وفدر لحكمة السنوات من ٨٥-١٠٥م واعقبه ورود مريا ، الذي
نقش اسمه على احجار الاواوين المتسقة في مرحلتها البنائية الثانية والتي تضم
الايوان الجنوبي والاجزاء الخلفية من الايوان الشمالي . ولم توضح
الكتابات الصلة بينه وبين نشريه ويعتقد ، استنادا الى دلائل آثرية
وعسارية ، انه كان اخا او ابنا اكبر لنشريه مريا ومن المحتمل انه حكم في
الحضر خلال السنوات ١٠٥-١١٥م . جاء بعده نصرومريا ابن نشريه مريا
الذي تشير اليه بعض الكتابات وان سيادته امتدت الى سنة ١٣٨م قام خلالها
بالعديد من الاعمال العمرانية من اهمها تشييده معبدا كبيرا خصص لعبادة
آلهة الثلاث الحضرية حيث ترك لنا صورته منقوشة على أحجار اقواس
مداخل المعبد اضافة الى العثور على كتابات عديدة تذكر اسمه واسم والده
وقد اطلق عليه لقب (الكاهن الاعظم) .

وقد شيد المعبد اخامس وخصصه للالهة اشربل العذراء ، كما تدلنا على ذلك أسكفة مدخل المعبد حيث نقش اسمه ونحت صورته وهو مضطجع ومتكئ على وسائد ويده كأس وبجواره تمثال للاله الخاص بحراسته وامامه شاب اسمه ولجس لعله ابنه الاكبر ويظهر نقشان للالهة النصر ، كما انه قام بتشبيد اجزاء مهمة من الاواوين المتسقة حيث عثر على اسمه منقوشا على احد أحجار القوس الصغير من الايوان الشمالي . وامتدت اعماله العمرانية لتشمل بناء المعبد العاشر والمخصص لعبادة نرجول ، اله العالم الاسفل وكذلك السور الشمالي والبوابة من المعبد الكبير والاواوين المحاذية للسور استنادا الى كتابة مهمة نقشها حفيده عبدالاه الذي جدد تلك الاجزاء من سور المعبد الكبير في سنة ١٣٨ م . كما ويستنتج من أدلة آثرية ومعمارية وكتابية انه قام بالتجديدان والترميمات في البوابة الشمالية ويحتل انه ترك صورته وهو مضطجع فوق مدخلها الرئيس ، وانه قاد صمود الحضرة التاريخي عندما هاجمها الرومان بقيادة تراجان في أواخر نيسان او بداية حزيران من عام ١١٦/١١٧م حيث انها قد اعلنت الثورة والعصيان على تراجان مع مدن الرها وسلوقية ونصيبين ، فبعد ان سيطر على المدن الثلاث توجه نحو الحضر ويسرد المؤرخ الروماني ديوكاسيوس حملة تراجان وحصاره لمدينة الحضر ويقول .

» بعد ذلك وصل الى عرابيا وبدأ عملياته الحربية ضد الحضريين لانهم ايضا ثاروا . والمدينة ليست واسعة وليست غنية وحولها منطقة صحراوية ، الماء الذي بهارديء وقليل جدا وليس بها خشب ولا عشب ، لهذه الاسباب اصبح حصار المدينة بجيش كبير مستحيلا . وكانت المدينة محصنة ولم يستطع السيطرة عليها تراجان ، كما فشل سفيروس من بعده ، على الرغم من انه نجح في الاطاحة ببعض اجزاء من سور المدينة . أرسل تراجان خياله للسور ولكنه فشل تراجعوا متقهقرين الى المعسكر وكاد الحضريون ان يجرحوه لما كان ممطيا جواده على الرغم من انه نزع لباسه الملكي حتى لا يعرفه احد ولكن الحضريين

تجاهدوا شعره الاشيب الوقور وشكله المحترم ، شكوا في أمره ورموا سهامهم عليه وقتلوا أحد الخيالة المرافقين له . وحدثت في هذه الاثناء عواصف ورعد وفهر قوس قزح وهطلت امطار رعدية مصحوبة ببرد ونزلت صواعق على الرومان عندما حاولوا الهجوم ، وكلما بدأوا بالاكل تجمع الذباب على اطعمتهم وشرابهم مسببا لهم عدم الراحة لذلك قرر تراجان الانسحاب وبعدها أخذت صحته بالتدهور » وذاع صيت الحضرة واشتهرت بكونها المدينة الوحيدة التي ثارت على الرومان وتحدث قوتهم وصمدت امام جيوشهم مما جعل الاموال تندفق عليها من القبائل العربية لقدسيتهما ولمناعة تحصيناتها وادى بالتالي الى ازدهارها واثرائها . وقد قدر حكم نصروميا الاعوام من ١١٥-١٣٨م استنادا الى دلائل عديدة منها الآثارية والكتابية والعسارية . ومن المحتل ان معنومريا ، الذي ورد اسمه منقوشا في كتابة على نصب للبخور قد تولى السيدة بعد نصروميا ولكننا لانستطيع تحديد قرابته بالآخرين الذين لقبوا أنفسهم مريا ثم أعقبه ولجش مريا ، الذي يعتقد انه الشخص الواقف امام نصرو على نحت اسكفة مدخل المعبد الخامس وبهذا الاسم ايضا ورد بهيئة ولجش الملك الذي وجد تمثاله في موقعه الاصلي في الايوان الجنوبي وعلى قاعدته الكتابة التالية .

تمثال ولجش ملك العرب الذي اقامه له جرم - اللا بن حبي ووطن
انه اول من نصب نفسه ملكا على الحضرة واطلق على نفسه لقب ملك العرب
وان الحضرة قد اصبحت مملكة عربية تدير شؤونها بنفسها .

تتميز فترة الحكم المحصورة بين الاعوام ١٣٨-١٦٥م بعدم وضوحها لاننا نعتقد ان الادلة الكتابية المؤرخة والتي قد تساعدنا في تحديد مكانة سنطروق بن نصرو مريا ، الذي لعب دورا في تصعيد اهمية المدينة السياسية والاقتصادية ، فتشير الكتابة المدونة على نصب للبخور انه لقب نفسه « مريا » في بادىء الامر واستمر لمدة عامين ثم اتخذ لقب (ملك)

وامتد حكمه اكثر من عشرين سنة * ويعتبر سنطروق بن نصروريا ،
او الاول لتمييزه عن حفيده بنفس الاسم ، من أشهر ملوك الحضر واكثرهم
نشاطا وفعالية في مجال العمران والبناء ، فقد كان مسؤولا عن اتمام بناء
المعبد المربع ، وهو المخصص لعبادة الاله شش وربما انه شيد المعبد بكاملة
حيث تذكر كتابة عثر عليها في المعبد الكبير انه « بسنة ٤٨٨ (١٧٧/١٧٨ م)
(المعبد الذي بناه) سنطروق ملك (العرب . المظفر ، عابد) شمش الاله
الاكبر ، ابن نصروريا ، لمرن ومرتن وبرمرين واللات وسميتا » *

ويتضح من تفسيرها انه من المحتمل شيد معبد شمش المربع بكاملة بعد
ان زينه بشرفات خارجية قوامها أعمدة من الحجر والواح منقوشة بشستي
الزخارف ، اضافة الى اقامته سقيفة في ظهر المعبد وضع فيه تمثاله وتمثالي.
ولديه عبد سمي (شكل ٩) ونهرا * وكذلك تشييده لمعبد ضخم في مقدمة
الاولوين المتسقة وخصصه لعبادة اللات ، الالهة العربية التي تميزت ، في هذا
المعبد بصفات معينة اهمها العدل والانتقام ، متطابقة مع نظيرتها الالهة
الاغريقية ينميسيس * لقد زين سنطروق هذا المعبد بزخارف واشكال
متنوعة اهمها مشهد موسيقي حيث يبدو فيه عدد من العازفين على الآلات
الموسيقية في حضرة الالهة الراكبة فوق جمل وتظهر امامها حورية البحر وهي
تسك ميزانا يعتبر احد رموزها * ووضع سنطروق الملك فيه تمثاله وتمثال
ابنه عبدسميا في رف في الجدار الغربي من الايوان الجنوبي وكذلك في الايوان
الشمالي وقد اكمل المراحل البنائية الاخيرة من هذا المعبد ابنه عبدسميا *
وشيد ايضا بوابة او مدخلا في الجدار الفاصل الملاصق لمعبد اللات ، كما
وكان لسنطروق نشاطا في زيادة تحصينات المدينة حيث اقام عددا من القلاع
الصلدة ، احداها قرب البوابة الشمالية ، ووضع فيها عددا من تماثيله وتماثيل
ابنه عبدسميا ويظهر في احدها وهو يحمل لقب قائد الجيش « زقطا » *

تشير كتابة مهمة مؤرخة ١٩٣/١٩٤ م ان الملك في الحضر كان عبدسميا،
وهي اشارة واضحة الى أنه قد اعقب والده على عرش الحضر ولقب نفسه

ايضا « ملك العرب » بذكر ديوكاسيوس ان ملك الحضرة في هذه الفترة كان اسمه برسميا وقد ساعد بسينيوس نيجر في سورية في صراعه مع سبتيوس سيفيروس ولكن اسم برسميا لم يرد في كتابات الحضرة ويعتقد بانه محرف عن عبدسسيا . اما السبب الذي دعى ملك الحضرة الى ارسال فرق من رماة السهام الى نيجر فيمكن في الاحداث التي وقعت في روما بعد اغتيال (هلفيوس برتنكس) حيث عت القوضى فيها وكان هناك ثلاثة قواد متنافسين على التاج الامبراطوري وهم : كلود يوس البانيوس وكان في بريطانيا وتحت امرته ثلاث فرق ، وبسنيوس نيجر في سورية وكانت تحت قيادة تسع فرق وسبتيوس سيفيروس في بانونيا وكان يقود اثني عشرة فرقة . استغل سيفيروس الفرصة وبسرعة ودهاء فاد حيتته ودخل روما واعلن نفسه امبراطورا بمساعدة مجلس النيوخ ومعلنا الحرب على منافسيه وخاصة نيجر في سورية ، يذكر ديوكاسيوس ان ملك الحضرة (عبدسسيا) قد اوفد في عام ١٩٣/١٩٤م فرقة من رماة السهام الى نيجر في منطقة انطاكية الا ان تلك النجدة قفلت راجعة الى الحضرة قبل ان يلتحم الجينان الرومانيان المتنازعان، وفي ربيع عام ١٩٤م تغلب سيفيروس على جبوش خصمه نيجر ووعد بمعاقة كافة الحكام والملوك الذين ساعدوه . وفي عام ١٩٤/١٩٥م سيطر على اديسا (الرها) ونصيبين وعلى اعالي وادي الرافدين ، لكنه اضطر الى العودة الى روما لوصول اخبار قلقة عن تحركات البانيس الذي اعلن نفسه امبراطورا ، وبدأ يبحث عن مساعدة بعد أن انشأ له مركزا قويا في لكدنوم (ليون الحالية) وبعدها استطاع سيفيروس أن يتغلب عليه في بداية عام ١٩٧م . وجه سيفيروس جهده بعد أن أخضع خصومه الى الشرق لمعاقة الملوك والحكام الذين قدموا المساعدة لخصمه ومن بينهم (عبدسسيا) الحضري . وحدث الهجوم على الحضرة ، حسب رواية ديوكاسيوس ، بعد سقوط طيسفون بيد سيفيروس ويقول انه قام بمحاولتين لاختضاعها ، المحاولة الاولى في سنة ١٩٨م والثانية في نهاية السنة نفسها ، اما هيروديان فيذكر ان حصار الحضرة قد حدث بعد

سقوط طيسفون وان سفيروس هاجم الحضر وحاصرها مرة واحدة فقط .
لقد قاتل الحضريون الجيوش الرومانية المهاجمة ببسالة متناهية متحصنين
داخل اسوارهم واستحكما ماتهم العسكرية الجيدة وقد استعملوا وسائل دفاع
متقدمة من بينها قذائف النار الحضرية المشهورة المستخرجة من منتجات النفط
واعداد كبيرة من المنجنوقات التي ترمي الحجارة بأحجام مختلفة واخرى ترمي
سهام متعددة في آن واحد وكان على الاسوار ، كما يذكر ديوكاسيوس
وهيروديان ، عدد هائل من المدافعين عن المدينة وخاصة الفرسان العرب الذين
هاجموا الجيش الروماني من كل اتجاه بدقة وبشدة .

وتيجة لذلك احترقت وتحطمت معظم معدات وآليات الجيش الروماني
ولكن الجنود الرومان وبهجمات متلاحقة تكبدوا فيها خسائر جسيمة
استطاعوا ان يفتحوا ثغرة في السور وكانوا مصممين على مواصلة هجومهم
والدخول الى الحضر من تلك الثغرة ولكن سفيروس لم يسمح له بذلك
واعطى اشارة التراجع حيث أراد ان يستولي بنفسه على كنوز المدينة لانها
اشتهرت بوجود كميات كبيرة من الذهب فيها وخاصة تلك التي قدمت
للالة ششش وكان يتوقع ايضا ان العرب سوف يجبرون على الاستسلام وعقد
معاهدة . ولكن آماله باءت بالفشل عندما رفض الحضريون شروط وعقد
معاهدة معه وأصلحوا ثغرة السور خلال الليل واستطاعوا صد كل هجمات
الجنود الرومان المتعاقبة وادى هذا الحادث الى خلق جو من البلبلة بين الجنود
وساد شعور بالتامر وعدم اطاعة أوامر القادة بعد أن رفض الجنود الاورييون
القيام بهجوم على المدينة ، وعندما ازدادت خسائر الجنود السوريين ، أوقف
سفيروس عملياته الحربية وانسحب من أرض الحضر بعد أن قضى عشرين
يوما تحت وطأة مناخ قاس .

فاد الدفاع عن المدينة عبدسميا الملك الذي لقب نفسه ايضا ملك العرب،
ومن اعساله العمرانية المعروفة في الوقت الحاضر تكملة معبد اللات الذي بدأ

به والده سنطرون الاول * ويظهر عبدسميا واقفا امام الالهة مرتن في لوحة
عثر عليها في الخندق قرب البوابة الشمالية ، تدل على أنه قام بالترميمات
والتصليحات اللازمة في الاسوار والاستحكامات الدفاعية* وفي زمن عبدسميا
تولى سدانة المدينة شخص اسمه أفرهط ، حيث اقيم له تمثال عثر عليه في
المعبد الكبير وتمثال آخر وجد في معبد اللات وعلى قاعدته كتابة تصفه
بسادن العرب ايضا *

دام حكم الملك عبدسميا حوالي خمسة عشر عاما خلفه ابنه الملك سنطرون
الذي حكم فترة طويلة حتى عام ٢٤٠/٢٤١ م * ويستدل من الادلة الكتابية
انه كان حيا في عام ٢٣٨ م كما نصت بذلك الكتابة المنقوشة على قاعدة تمثال
ابنته الاميرة دوسقري التي تذكر أن ابنه عبدسميا كان وليا على العرش * وقد
قام الملك سنطرون الثاني بتشديد بعض المباني منها المدخل الثاني للبوابة
الشمالية واجراء بعض التحصينات المهمة في الاسوار وكانت له شهرة واسعة
حتى أن المؤرخين العرب اطلقوا اسم « الساطرون » على ملوك الحضرة وهي
تسمية تنسب اليه * وعثر على تمثال له في الممر الذي يحيط بالمعبد المربع وعليه
الكتابة التالية : تمثال سنطرون الملك بن عبدسميا ملك العرب الذي اقامه
له نشرهب سان مرن بن زيد اللات لحياة عبدسميا ولي العهد ابنه ويظهر
حافي القدمين ممسكا بصنم لالهة الحامي ووردت صفة الورع او التقى في
كتابة تعود اليه عثر عليها منقوشة على اسكفة المدخل الثاني للبوابة الشمالية،
تشير الى انه في اواخر ايامه ترك تصريف امور الدولة الى ابنه عبدسميا
وانصرف الى العبادة والزهد ، ولكنه اطلق على نفسه لقب الملك المظفر او
المنتصر ويعتقد بانها دلالة واضحة على نجاحه في كسب ود القبائل العربية
التي حالفته في القيام بهجمات على معسكر للساسانيين في موقعة شهرزور
التي من المحتمل انها وقعت في حدود عام ٢٢٨ م بعد أن سيطر أردشير بن
بابك ، المعتصب الساساني لحكم الفرثيين ، على طيسفون العاصمة في حدود
عام ٢٢٦ م بعد مؤامرة دبرها في بلاد فارس * وقد حاول أردشير السيطرة على

الحضر ولكنه فشل على الرغم من انه احدث فجوة في سورها . كما ذكر ديوكاسيوس . بعد هذا الحادث ، تحالف الحصريون مع الرومان واستقبلوا حامية رومانية في زمن كورديان الثالث ٢٣٨-٢٤٣ م . كما تشير بذلك تسائيل رومانية في غاية الروعة والاهمية عثر عليها في المعبد الهلنسي وعبرت الحامية الرومانية عن طاعتها وولائها للاله نيسس وللاله هرقل بتقديم تمثالين يمثلهما وعلى فواعدهما كتابات باللغة اللاتينية .

بيد ان الحصريين والقبائل العربية لم تستطع وقف زحف شابور بن أردشير على المدينة ومحاصرتها لفترة طويلة ، اضطرت بعدها الى الاستسلام في عام ٢٤٠/٢٤١ م كما ورد في وثيقة اكتشفت في مصر . وتذكر المراجع العربية ان الضيزن كان اخر ملوك الحضر ولقي نهايته ، ويحملون ابلنتسه النظرية مسؤولية اقتناء سرفتح المدينة ولكن اسما واسم والدها لم يردا في كتابات الحضر ، وقد هجرت المدينة بعدئذ ولم تعد صالحه للسكنى وقد مربها اميانوس مرسيلايوس في عام ٣٦٣ م وكتب :

« وصلنا الان الى الحضر . المدينة القديمة الواقعة في وسط الصحراء وقد هجرت منذ أمد بعيد . وقد حاول الاباطرة تراجان وسفيروس في اوقات مغللة الاستيلاء عليها ولكنهم تقريبا لقوا حتفهم مع جيوشهم . واذكر افعالهم كما اذكر نجاحاتهم » .

لا بد ان وراء ازدهار مدينة الحضر وراثتها في ظروف سياسية صعبة حوافز ودوافع لعل في مقدمتها اهتمام القبائل العربية بها لانها اتخذتها مركزا لنشاطاتها الدينية والتجارية والى حسن تنظيمها لامورها الحياتية الداخلية وديموها في حقبة تاريخية تتصف بالنزاعات المسلحة . ولكن المصادر المدونه لاتلقي ضوءا على هذا الجانب المهم وان الكتابات ذات العلاقة المكتشفة خلال التنقيبات الاثرية قليلة ايضا ، لذلك نعتمد في استعراضنا لهذا الجانب على دلائل واستنتاجات مستقاة من مصادر مختلفة اهمها على ما وصل الينا من

الكتابات واعني تلك التي ساهمت في تنظيم حياة الحضريين الداخلية ، وهي بعض النصوص المتعلقة بجانب من جوانب القانون في الحضرة وهو السرقة .
فقد كشفت التنقيبات الاثرية عن لوحة النسر المعروفة في مدخل البوابة الشمالية والمنقوش عليها كتابة مهمة (شكل ١٠) ، تذكر .

« بشهر كانون من سنة ٤٦٣/١٥٢-١٥١ م » ، بمنية الاله اختيار (انتخب) تمشرك سادنا للحضريين (أويين الحضريين) شيبا وشبانا وللعرب كلهم ولكل من مر بالحضر ولكل من سكن (استوطن) بالحضر ومن اجل ذلك قرروا أن كل من يسرق ٠٠٠٠ وهناك تلف في النص تكملة كتابة اخرى مشابهة وجدت في مدخل البوابة الشرقية وتذكر ٠٠٠ « من داخل هذا المخزن ومن داخل السور الخارجي ، ان كان (هذا) رجلا من المجتمع (الحضري) فانه سيقتل بالموت الذي يسلطه الاله وان كان اجنيا (غريبا) فانه سوف يرحم » .

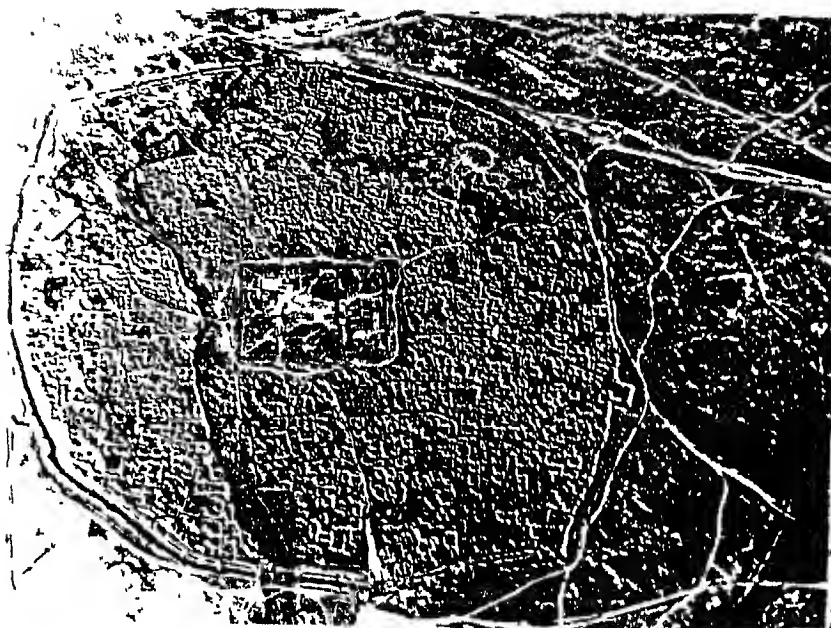
ان موقع هاتين اللوحتين في مداخل البوابات الرئيسة في المدينة يشير الى انهما قد وضعتا لغرض تنبيه الشخص الداخل للمدينة اذا كان من اهله او اجنيا بقانون المدينة في السرقة والعقوبة المترتبة عليها ، وبهذا لا تختلف مدينة الحضرة عن اخواتها مدن وادي الرافدين الاقدم مثل بابل ونيوى وغيرها في هذا المضمار حيث جرت العادة على تعريف الشخص الداخل للمدينة بقوانين البلاد بوضعها في بواباتها الرئيسة .

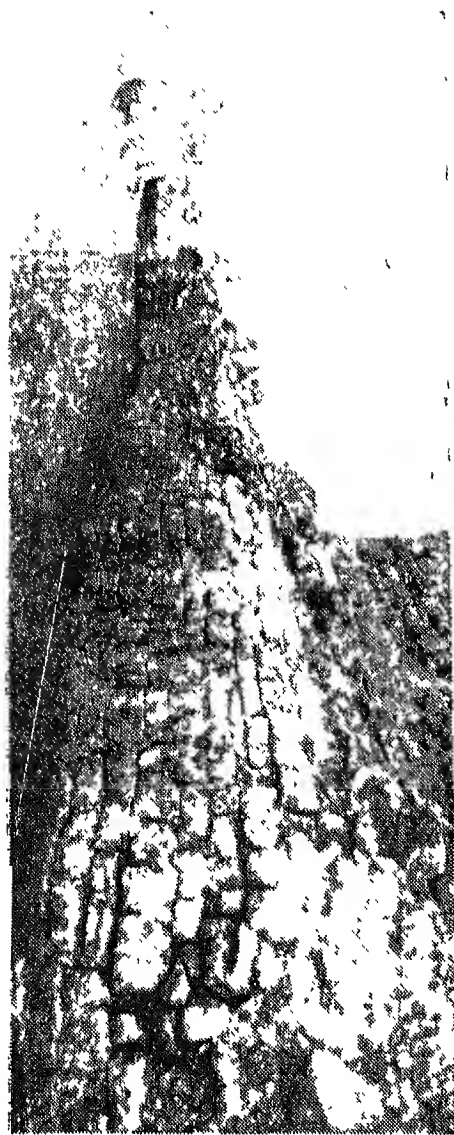
وقد أشار بعض الكتاب السريان منهم برد يسان الراهب من مدينة (اديسا) في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي في كتابه « شرائع البلدان » ان سرقة شيء مهما كان بسيطا في مدينة الحضرة ستكون عقوبته الموت وعلى الرغم من صرامة هذه القوانين ، وهي الوحيدة التي وصلتنا ، فانها قد ساعدت الحضريين كثيرا على تنظيم مجتمعهم وعلى ازدهاره وجاءتنا اشارة اخرى ذات العلاقة بالموضوع

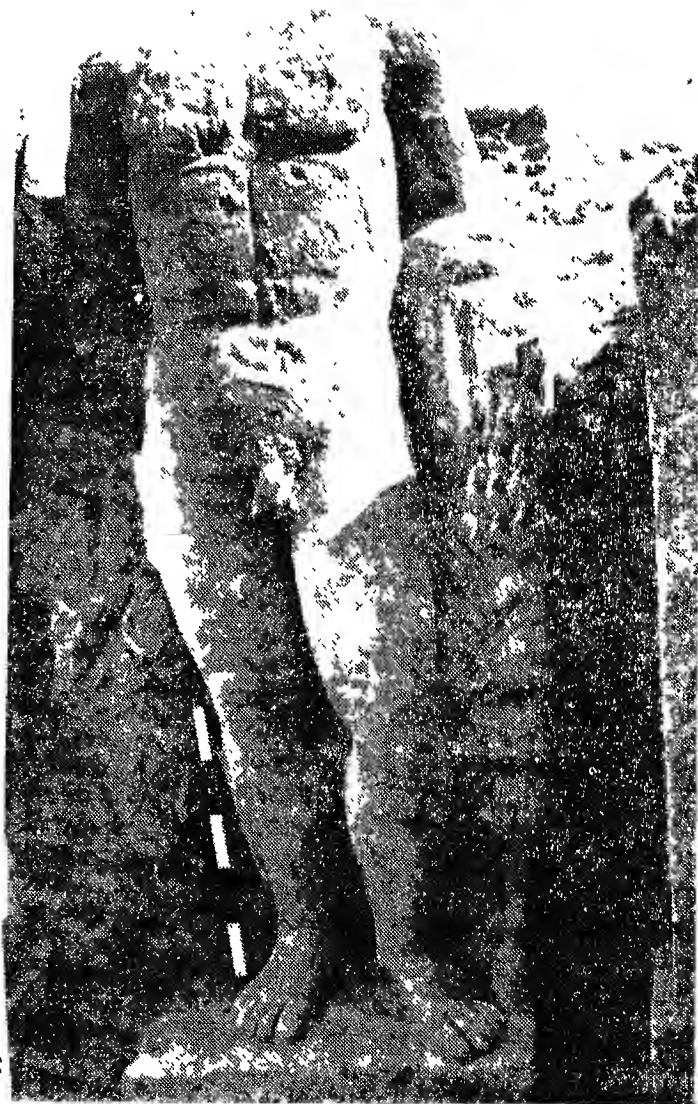
في كتابة منقوشة على حجرة بناء عثر عليها حديثا في معبد جندا تقضي بأن
على الشخص الذي يستعمل بعض اواوين ذلك المعبد ان يجري الترميمات
الضرورية عليها في حالة تعرضها للتصدع . وبذلك الطريقة حافظ سسدة
المعبد على نظافة وصلاحية غرف المعبد للسكنى دائما . لا بد ان هذه الطريقة
وغيرها قد اتبعت للمحافظة على معابد المدينة ومرافقها العامة وتعتبر اشارة
واضحة الى أن الحضريين قد وضعوا قوانين وتعليمات تنظم حياة مجتمعهم
وان الكشف عن دار حفظ الوثائق الرسمية في المدينة او مكتبة خاصة كانت
ام عامة سوف يلقي الضوء على حياة المدينة الاجتماعية والتنظيمية .

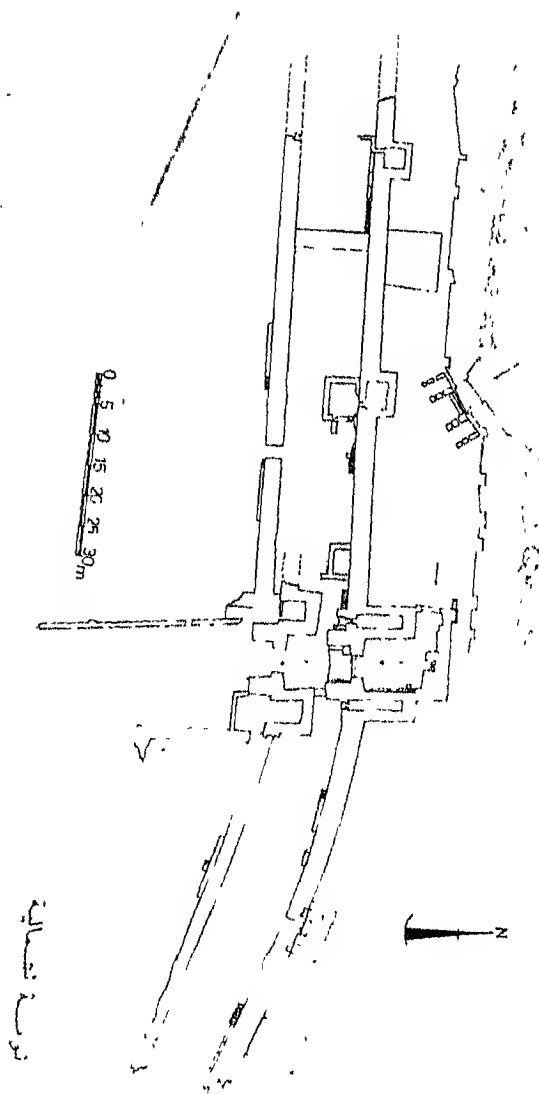
مصادر مختارة

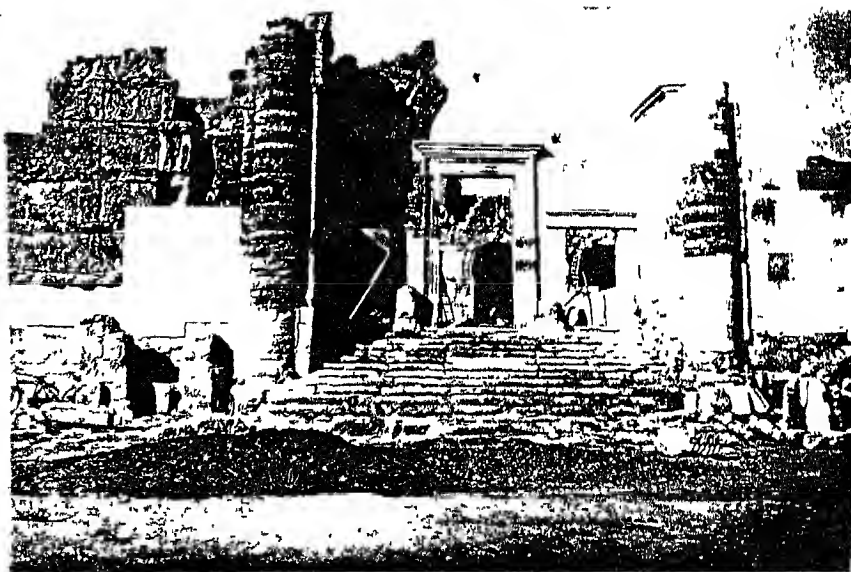
- ١ - فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى - **الحضر مدينة الشمس** ، بغداد ١٩٧٤ .
- ٢ - د . وائيق الصالحى « الحضر - التنقيب في البوابة الشمالية » سومر ٣٦ (١٩٨٠) ص ١٥٨ - ١٨٩ .
- ٣ - د . وائيق الصالحى « الحضر - التنقيب فى مجموعة من المقابر » سومر ٢٨ (١٩٧٢) ص ١٩ - ٣٠ .
- ٤ - د . جابر خليل ابراهيم « نسان قانونيان » سومر ٣٨ (١٩٨٢) ص ١٢٠ - ١٢٥ .
- ٥ - د . وائيق الصالحى « كتابات الحضر » سومر ٣٤ (١٩٧٨) ص ٦٩-٧٤ .
- ٦ - حازم النجفي « كتابات الحضر » سومر ٣٩ (١٩٨٣) ص ١٧٥-١٩٩ .
- ٧ - د . وائيق الصالحى « القانون فى الحضر فى ضوء الشرائع العرفية القديمة » **المؤرخ العربي** ، ٣٩ (١٩٨٨) .
- ٨ - المسعودي - مروج الذهب ومعادن الجوهر
- ٩ - الطبري - تاريخ الرسل والملوك .
- ١٠ - ياقوت الحموي - معجم البلدان .
- ١١ - Dio Cassios, 68, 31; 65, 10, 1.
- ١٢ - Herodian, III, 1-9.

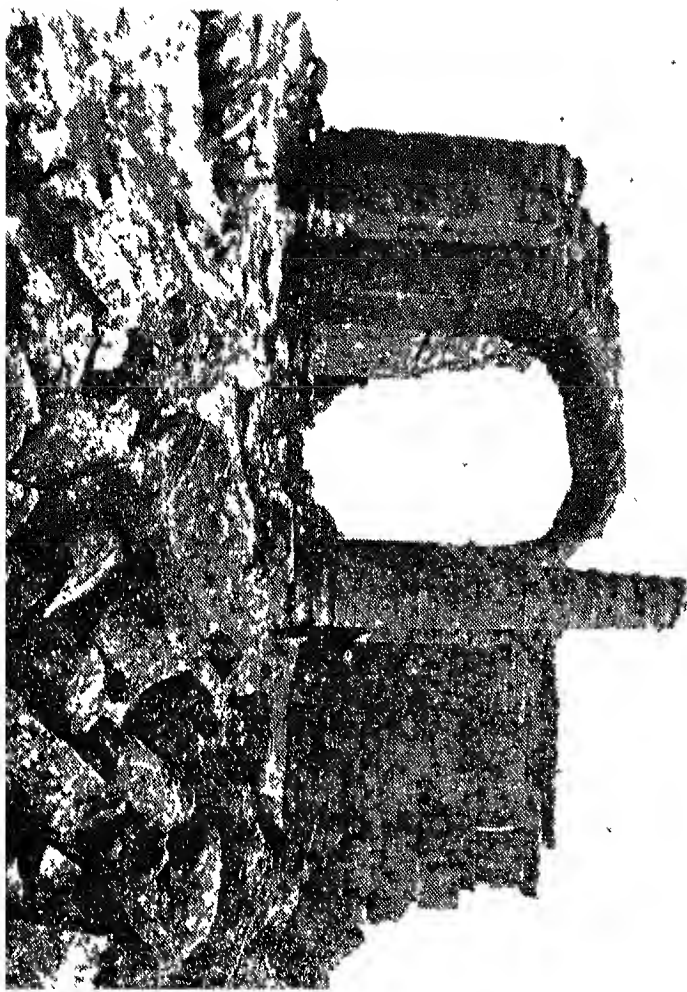


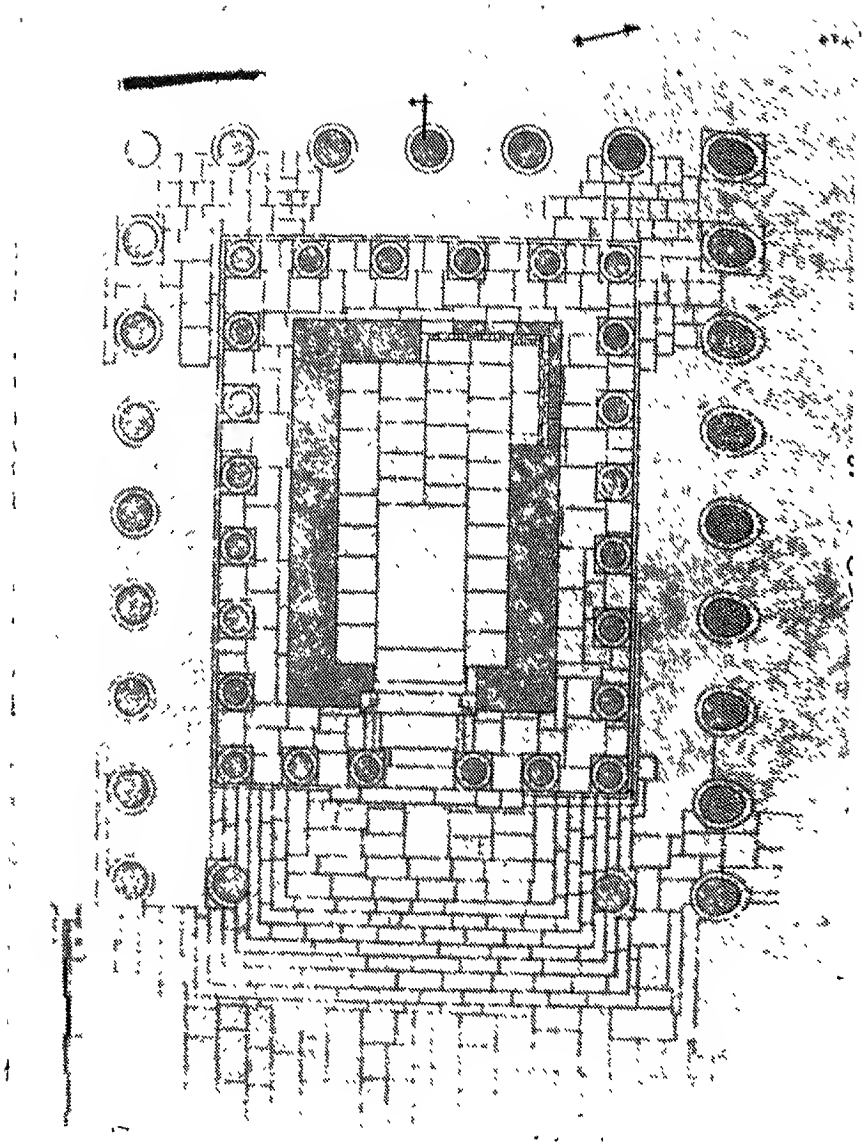






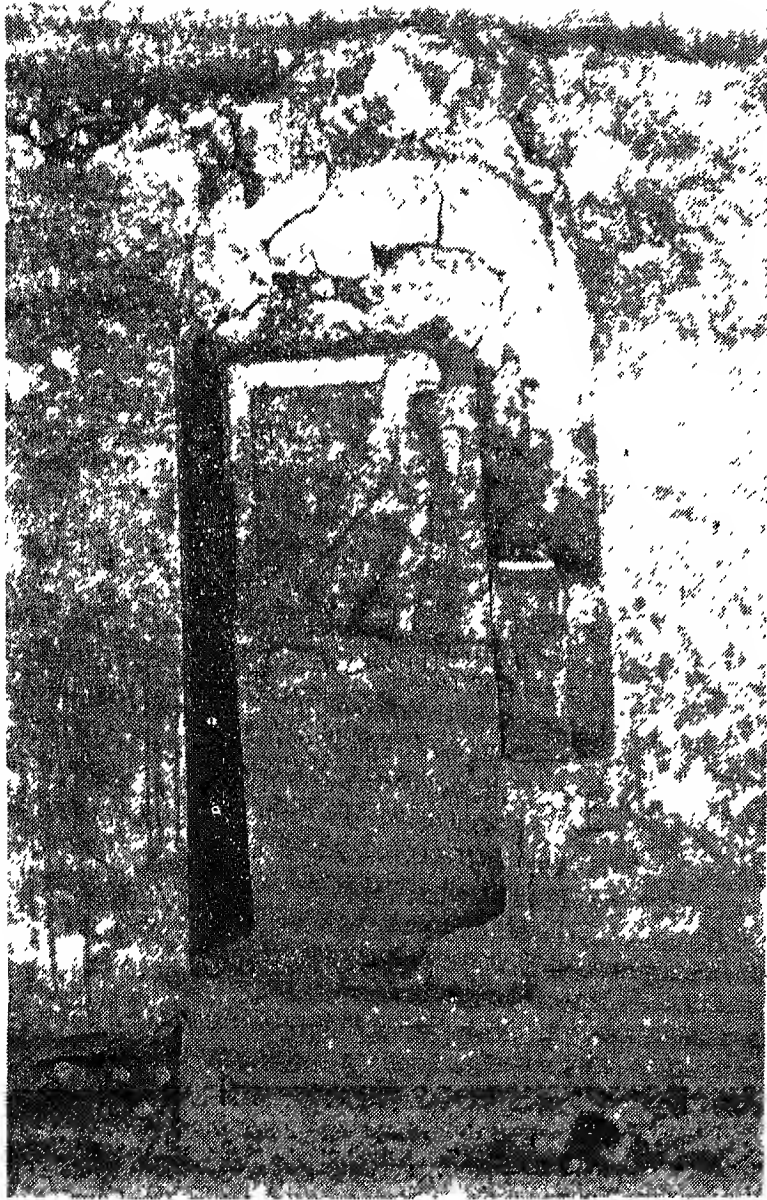












٢ - الاخضر

الدكتور عبدالعزيز حميد صالح
الاستاذ في كلية الاداب - جامعة بغداد

عندما يتردد على اسماعنا اسم الاخضر ينصرف الذهن اول ما ينصرف الى ذلك البناء الشامخ الذي يقف متحديا الزمن على حافة بادية السماوة في طرفها الشرقي وعلى بعد خمسة وخمسين كيلو مترا جنوب غرب كربلاء والقريب جدا من وادي الابيض .

لقد مضى على اكتشاف الاخضر اكثر من ثلاثة قرون ، حيث وردت اول اشارة واضحة اليه في كتابات الرحالة الايطالي بترو ديلا فيلا Petro Della Vella سنة ١٦٢٥ . ثم تلاه تافرنه سنة ١٦٣٨ اعقبه دبلينو فيوز سنة ١٧٤٥ ، ثم مر به جي روبرتس في سنة ١٧٤٨ ، تلاه الميجر تايلر سنة ١٧٩٠ ، ومنذ اكثر من قرن وعلماء الآثار مقبلون على دراسته فكتب عنه عدد لا يستهان به من كتب وبحوث تناولت هذا الاثر الشاخص من جوانبه التاريخية والفنية والعمارية . ومع كل ذلك فلا يزال الاخضر يعد لغزا غامضا محيرا ، والسبب في ذلك يعود بشكل اساس الى امرين ، الاول انه غفل من اية كتابة تاريخية عمارة مثل الشواهد التي تعلو في العادة واجهات الكثير من المباني الاثرية او بعض اقسامها الداخلية . والامر الثاني

يعزى الى سكوت المدونات التاريخية العربية والقديمة والبلدانية عنه بشكل يدعو الى الحيرة والتفكير العميق ، خاصة وقد تميز بضخامة ملفقة للنظر الى درجة ان عبر عنها بعض المستشرقين بان من ينظر الى الاخير ليظن انه ليس مما بناه اناس من البشر بل ان الجن هي التي اقامت صرحه^(١) . ويكتب الانثري البريطاني كرسويل الذي اولى هذا القصر اهتماما خاصا في دراساته للعمارة الاسلامية ، ان الاخير هو اروع ما شاهد في حياته من المباني الاثرية الساخنة المثيرة للاعجاب سواء كان ذلك في شرق العالم او في غربه^(٢)

ولاشك ان من الاسباب الرئيسة التي حملت العلماء على الاهتمام بالاخير يرجع ايضا الى انه من اكثر القصور الاثرية في العالم التي بقيت محافظة على هيئتها العامة ، فلم يصب هذا القصر من الخراب الا القليل .
الطفيف .

ان قصر الاخير هو بلا ريب ليس بناء وحيدا معزولا عن العاقر من الارض في طرف الصحراء كما ذهب الى ذلك العديد من المختصين في علم الاثار والتاريخ او غيرهم . فهو لا يبعد عن مدينة عين التمر العباسية الا بتسعة عشر كيلو مترا ، وقد شيد على حافة وادي الابيض الذي ربما كان فرعا من الفرات اصابه الجفاف في فترة ما من العصر العباسي ، ولا يزال بالامكان الحصول على الماء من قعر هذا الوادي في جميع فصول السنة بمجرد القيام بحفر بسيط . ولاشك ان لموقع الاخير اهمية بالغة فهو يقع على الطريق الرئيس الذي يربط العراق بالعالم الخارجي من جهة الغربية والجنوبية والشمالية الغربية حيث الجادة التي تربط البصرة بحلب . كذلك الطريق الذي يوصل النام والبحر الابيض المتوسط بالخليج العربي والبحر العربي ايضا . وقد بات من المؤكد الان وذلك من الخرائط الجوية والتحريرات الاثرية ان الكشبان التي تمتد بين القصر ووادي الابيض تؤلف مدينة كاملة

تنتشر مساكنها شمال القصر وشرقه واجزاء من جبهته الغربية وهكذا فقد بات من المعروف اليوم ان الاخضر يقوم وسط بلدة صغيرة * كما انه صار يعرف اليوم ان هناك اثار قصر قديم مندرس يقابله تقريبا ويقع على يسار وادي الابيض ويبدو انه يسبق الاخضر في الزمن^(٣) * كما اظهرت الحفائر الانرية التي قامت بها المديرية العامة للآثار والتراث في الاونة الاخيره عن اكتشاف مبان جديدة قريبة من حصن الاخضر سوف تتطرق اليها لاحقا في هذا البحث * وهكذا يتبين لنا بشكل قاطع ان قصر الاخضر لم يكن بناء منفردا ومنعزلا بل كان وسط مجموعة كبيرة من الدور والمساكن والحوائث وغير ذلك من مبان عامة *

ومن الواضح الان ان للاخضر سوران دفاعيان *

السور الاول * وهو السور الخارجي منحرف الشكل ، ابعاده على التوالي : ٦١٠ مترا و ٦٣٥ مترا و ٣١١ مترا و اخيرا ٥٤٠ مترا *

وقد شيد هذا السور الخارجي باللبن على قاعدة حجرية ومدعوم بعدد كبير من الابراج نصف الاسطوانية *

والسور الثاني وهو السور الرئيس مشيد كله بالحجارة والجص * وابعاده ١٧٥ مترا من الشمال الى الجنوب و ١٦٩ مترا من الشرق الى الغرب وهو يرتفع في الهواء اكثر قليلا من ٢١ مترا * ان هذا السور الذي تتجه جدرانه نحو الجهات الاربع تماما مدعوم بثمانية واربعين برجا نصف اسطوانية * وهو متين البناء غاية في الاحكام والكمال والروعة في التخطيط العماري * وقد حرص مصممه على جعله منيعا حصينا الى حد الكمال *

وانه لمن المتفق عليه اليوم ان سور الاخضر هذا يتميز بخصائص دفاعية لم يعرف ما يشابهه قبل زمن تشييد الاخضر * ان الشيء الجديد في تلك التحصينات امران :

الامر الاول ان السور وعلى ارتفاع عشرة امتار ونصف ينقسم الى جدران يحصران بينهما ممرا او رواقا عرضه متران مسقف بقبو نصف اسطواني يطوف باعلى السور من جهاته الاربع ويؤدي الى غرف صغيرة نصف دائرية داخل القسم العلوي من كل برج من الابراج الثمانية والاربعة. ان الرواق المسقف يوفر الحماية التامة للجنود المدافعين عن الحصن حيث يكون بميسورهم وهم بمأمن تام من قذائف العدو ان يرشقوا المهاجمين بسهامهم عن طريق المزاغل الشاقولية من داخل غرف الابراج من المزاغل الواقعة في اعلى السور بين الابراج والتي يبلغ مجموعها الكلي (٣٤٠) مزغلا شاقوليا *

ويتميز الرواق الدفاعي ايضا بوجود مزاغل افقية في ارضيته وهي فتحات طويلة ضيقة يستطيع عن طريقها المدافعون ان يسكبوا الزيت المغلي او الرصاص الذائب على المهاجمين من الاعداء الذين ينجحون في الوصول الى قاعدة السور والالتصاق به في محاولة لثقبه او احداث ثغرة فيه ، وهو ابتكار عربي اسلامي صرف لم نجد ما يشبهه في الحصون والاسوار الدفاعية التي تعود الى ما قبل عصر الاخضر *

الامر الثاني يتعلق بالبوابات الاربعة لسور الاخضر ، حيث نجد ان لكل مدخل ولاول مرة عدد من الابواب المنزقة وهي سقاطات ضخمة تتحرك من الاعلى الى الاسفل ، مما يجعل امر فتحها اي رفعها الى الاعلى من خارج السور ضعبا الى ابعد الحدود ان لم يكن مستحيلا * خاصة وانه كان على كل مدخل اكثر من باب واحد *

ان هذه التقنية الرفيعة في الاستحكامات الدفاعية ابتكار عربي اسلامي خالص لم يعرف ما يشابهه قبل الاسلام او في العصر الاموي * وهو في نفس الوقت لم يعرف في بلاد الغرب الا بعد ما لا يقل عن اربعمائة سنة على تشييد حصن الاخضر *

اما القصر فهو مستطيل الشكل طوله نحو ١٣٣ مترا وعرضه نحو ٨٢ مترا * وقد شيد ملاصقا للسور من جهته الشمالية * جدرانه الثلاثة السائبة مدعومة بابرّاج نصف اسطوانية الغرض منها ان تكون ركائز لتقوية البناء وثباته (شكل ١) *

ان مخطط القصر يدل على وجود خمسة اقسام رئيسة فيه :

القسم الاول وهو الشمالي يتألف من ثلاثة وحدات بنائية * الوحدة الاولى وهي الواقعة الى اقصى اليمين بالنسبة للداخل وقوامها فناء وسطي مكشوف تحيط به مجموعة من الغرف والحجرات والقاعات موزعة على ثلاثة طوابق ، والتي يبدو انها كانت معدة للضيوف الوافدين على صاحب القصر اي دار ضيافة * وليس من المستبعد * انه كان يشغل بعض غرفها كمكاتب خاصة بموظفي القصر (شكل ٢) *

الوحدة الوسطية هي دهليز القصر والتي تتصل بالبوابة الشمالية ، وهي البوابة الرئيسية في القصر عن طريق ساحة مربعة نعلوها قبة (شكل ٣) * ان هذا الدهليز ، الذي يعرف بالبهو الكبير اكبر قاعات القصر مساحة (١٥٥ × ٩٨ م) واعلاها بناءً حيث يبلغ ارتفاع قبتها نصف الاسطوانية حوالي عشرة امتار (شكل ٤) * وليس هذا الامر غريبا فنحن نعلم ان العراقيين قد اولوا الدهليز في قصورهم ومساكنهم اهمية خاصة وذلك منذ العصر الاموي على الاقل (٤) * لقد اتخذ الدهليز دائما موقعا قريبا من المدخل * فالزائر يدخل اولاً الى هناك لحين وصول الاذن له بدخول الدار ، ولذلك فقد انصرفت عناية العراقيين في العصر الاسلامي الى الاهتمام بالدهليز من حيث السعة والنظافة او الزخرفة * فالدهليز كان يعطي للزوار الصورة الحسنة عن اصحاب

الدار * ولا بأس من ان نستشهد في ذلك بآيات نشاعر عباسي في دهليز
بعض دور بغداد :

ودهليز دار فيه للعين بهجة وللنفس فيه للناذة اوطار
اذا داخل لم يختبر ما وراءه توهمه من حسنه انه الدار (٥)

ومما يدل على الاهمية الكبيرة التي كان يوليها الاثرياء من العراقيين
لدهليز ما يخبرنا به القاضي المحسن بن علي التنوخي المتوفى سنة ٣٨٤
هجرية ان احمد بن الخصيب استعمل في دهليز داره التي شيلها في سامراء
سبعين فارية ساج * والقارية هي الساجة العظيمة الكاملة غير المقطعة (٦) .

اما الوحدة الثالثة والواقعة الى اقصى اليسار من القسم الشمالي فقد
شيد فيها مسجد القصر وطوله ٢٤ مترا من الشرق الى الغرب وعرضه نحو
١٥٠ مترا من الشمال الى الجنوب ، تحيط به اروقة من جهاته الجنوبية
والشرقية والغربية * وعمق رواق القبة فيه اربعة امتار وعرضها كل من مجنبيه
الشرقية والغربية ثلاثة امتار (شكل ٥) والاروقة مستقيمة بقنوات تطل على صحن
المسجد بواسطة عقود محمولة على دعائم اسطوانية (٤) * وللمسجد محراب
مجوف يتوسط جدار القبلة فيه والذي يعتبر اقدم المحاريب المجوفة التي
وصلتنا من العراق (٧) * غير ان قصر الاخضر هو بالتأكيد ليس اقدم القصور
الاسلامية التي تضم ضمن مشتملاتها مسجدا * ان اقدم القصور الاسلامية
التي لها مسجد هو قصر المنية في فلسطين الواقع قرب ساحل طبرية الشمالية
الشرقي والمنسوب الى الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ
٧٠٥-٧١٥ م) حيث نجد ان المسجد يقع في الجانب الايسر من القسم
الشمالي في ذلك القصر * في موقع مشابه لموقعه في قصر الاخضر ، ثم
في قصر المشتى اشهر القصور الاموية على الاطلاق وذو التأثيرات العراقية
التي لا تقبل الجدل ، وهو القصر الواقع على بعد عشرين ميلا جنوب

عمان والذي يعتقد ان الخليفة الاموي الوليد الثاني (١٢٥ - ١٢٦ هـ ٧٤٣-٧٤٤ م) هو الذي امر بشييده^(٨) وهنا ايضا يقع المسجد في موضع مناسبه تماما لموقعه في قصر الاخضر .

القسم الثاني هو القسم المركزي الذي يعتبر اهم اجزاء قصر الاخضر . ويحيط بهذا القسم من جهاته الاربعة رواق كبير مسقف بقبو نصف اسطواني يفصله عن باقي اقسام القصر ويتقدم هذا القسم فناء مكشوف مبلط يعرف بين المختصين بالرحبة الكبرى . ان طول هذا الفناء ٣٣ مترا وعرضه ٢٧ مترا وتزين جدرانه الداخلية الاربعة سلسلة من التجاويف المتجاورة يبلغ عددها اثنان وثلاثون . يزين الجزء العلوي منها زخارف حصرية منضدة بالآجر تعتبر اقدم ما وصلنا منها في العمارة الاسلامية او في غيرها . فلا بد من القول هنا ان مثل هذه الزخرفة في الاجر لم تكن معروفة لاقبل الاسلام ولا في العصر الاموي ، حيث ان الاراء متفقة ان اقدم ظهور لها هو في الاخضر .

يتوسط الضلع الجنوبي المثل على الرحبة الكبرى الايوان الرئيس . وعرضه حوالي ستة امتار وعمقه اكثر قليلا من عنرة امتار تعلوه قبة نصف اسطوانية . ويلاحظ ان على جانبي الايوان وخلفه مجموعة من القاعات والغرف ، اهمها قاعة مربعة ذات اربعة مداخل . يفضي المدخل الشمالي منها الى الايوان مباشرة في حين يؤدي المدخلان الشرقي والغربي الى قاعتين مستطيلتين . اما المدخل الجنوبي فيفضي الى قاعة كبيرة يقوم سقفها على بائكة ذات اربعة عقود . ان من الامور المسلم بها ان الايوان والقاعة ذات الاربعة مداخل وما يحيط بها من مشتملات هي اهم اجزاء القصر حيث تشكل بمجموعها المجلس الرسمي لصاحب الاخضر (شكل ٥) ، ومما لاشك فيه ايضا ان القاعة ذات الاربعة مداخل التي يتقدمها الايوان هي دالة اكيدة وخصوصية من خصائص القصور العراقية التي شيدت في ظل الاسلام ومنذ بداية العصر العباسي على الاقل . فهي موجودة في جميع قصور سامراء

المعروفه اليوم . اقدمها في دار الخلافة (دار العامة) القصر او المقر الرسمي لخلفاء بني العباس الذي أمر بتشيدته المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ - ٨٤٢ م) عند تمصيره سامراء سنة ٢٢١ هـ (٨٣٥ م)^(٩) . كذلك نجد مثل هذه القاعة في قصر (الجص) وهو الذي شيده المعتصم في الجانب الغربي من سامراء ، حيث تتوسط هذه القاعة القصر تماما . كذلك نجد ما يماثلها في قصر (بلكوارا) جنوب مدينة سامراء الحالية وهو القصر الذي شيده المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) لابنه المعتز (٢٥١ - ٢٥٥ هـ / ٨٦٦ - ٨٦٩ م) وهو القصر الذي تبلغ مساحته ثلاثة اضعاف مدينة سامراء الحديثة . ونجد التصميم نفسه تقريبا في قصر المعشوق الذي بناه المعتصم على الله (٣٥٦ - ٣٧٩ هـ / ٨٧٠ - ٨٩٢ م) وهو آخر القصور العباسية التي شيدت في سامراء وذلك في السنتين او الثلاثة الاخيرة قبل ان يعود المعتصم بمقر الخلافة الى بغداد في سنة ٢٧٩ هجرية .

اما القسمان الثالث والرابع فيقعان على يمين ويسار القسم المركزي من القصر وهي اربعة بيوت شبه مستقلة يقع كل اثنين منها في جانب . وتكاد هذه البيوت الاربعة ان تكون متشابهة تماما من حيث التخطيط ، حيث ان لكل منها فناء وسطي مكشوف ، اقيم في كل من طرفيه الشمالي والجنوبي ايوان على كل جانب من جانبيه غرفه . وتعرف هذه البيوت الاربعة بقسم الحريم .

القسم الخامس والاخير من اقسام قصر الاخضر هو القسم الواقع الى الجنوب من القسم المركزي ويضم المطبخ وغرف الخدم والحمام الذي اكتشف حديثا (شكل ٦) واطافة الى هذه الاقسام الخمسة هناك ملحقان للقصر ، الاول يقع ضمن السور في الفضاء الواقع بين الجدار الشرقية له والقصر . وقوامه ايوان كبير على جانبيه مجموعة من الغرف . كما ان هناك ملحقا آخر يقع خارج سور القصر قريبا من زاويته الشمالية الغربية وهو بناء مستطيل

التشكل طوله حوالي ٧٦ مترا وعرضه حوالي ١٢ مترا يستعمل على سلسلة من الغرف المعقودة وايوان كبير . ولاشك ان هذين الملحقين من هتمات. الابنية الخاصة بالقصر (١٠) .

هذا وقد كشفت الحفائر الاثرية الاخيرة في منطقة الاخضر وعلى مسافة ٢٠٠ متر تقريبا شمال غرب الملحق الخارجي هذا بناء مستطيلا طوله ٦٨.٥ متر وعرضه حوالي ٥٧ مترا يحيط به سور عرضه يزيد قليلا على المتر الواحد مشيد باللبن وهو يطل على وادي الابيض مباشرة . والسور مدعوم بابرّاج نصف اسطوانية يبلغ عددها سبعة وعشرون برجا (شكل ٧) . ويضم البناء في الاصل مجموعة من الغرف يتقدمها فناء واسع . يذكر السيد داخل مجهول الذي له الفضل في الحفر والكشف عن هذا البناء الجديد انه قد قسم في وقت لاحق الى مجموعة من المباني المستقلة يفصل بينها دروب ضيقة ، قوام كل منها ساحة مكشوفة تحيط بها مجموعة من الغرف ، كما ان لواحد من هذه المباني ايوانان متقابلان عبر الفناء المكشوف على جانبي كل ايوان مجموعة من الغرف وهو يشبه في تصميمه البيوت الاربعة في داخل قصر الاخضر . ويضيف السيد داخل مجهول الذي قدم لي مشكورا تقريراً له لم ينشر بعد ان الفاصل الزمني بين هذه المباني وقصر الاخضر ضيق جدا ان لم يكونا من زمن واحد وذلك نتيجة لدراسته لللقى الاثرية المكتشفة في الموقع .

والان متى شيد قصر الاخضر ؟ انه لمن دواعي الاسف ان لم يعثر ضمن مشتملات هذا القصر او في المباني المحيطة او القرية منه على كتابات تشير ولو ضمنا الى تاريخ البناء سواء كان ذلك على الاجزاء الشاخصة منه او عن طريق الحفائر الاثرية . كذلك لا نجد في المدونات التاريخية العربية او الاسلامية ما يميّط اللثام عن هذا اللغز فهي غفل من اية اشارة واضحة للاخضر .

كل هذا سبب بالتالي اختلاف الباحثين على تقدير تاريخ معقول يمكن ان يكون القصر وما يحيط به من مباني قد شيد فيه .

ان هناك من المختصين من ذهب الى ان البناء يرجع الى عصر يسبق الاسلام . منهم المستشرق ديولافوا الذي كتب في بحثين له ، الاول سنة ١٦٠٩ والثاني سنة ١٩١٣ ان القصر يرجع الى عصر قبيل الاسلام وايده في ذلك الاستاذ ماسنيون الذي اضاف بان القصر ربما كان قصر السدير الشهير ، ذلك القصر الذي اطنب الشعراء العرب في وصفه^(١١) . ومن المؤرخين الذين نحو هذا المنحى محمود شكري الالوسي^(١٢) والدكتور مصطفى جواد^(١٣) . وكذلك الدكتور زكي محمد حسن الذي رجح الفكرة التي تقول بانه شيد لبعض امراء الحيرة بقصد صد غارات الروم والغساسنة كذلك الغارات التي كان مصدرها شبه جزيرة العرب ، غير انه ذكر ان رأيه هذا ليس نهائيا ، وانه سوف يتراجع عنه اذا ثبت عن طريق الحفائر الاثرية ان مسجد القصر هو جزء اصلي من القصر ولم يضاف في وقت لاحق^(١٤) . ويرى استاذنا الدكتور صالح احمد العلي ان الاخضر ربما هو الصرح الذي كان معروفا بقصر مقاتل او ان قصر مقاتل كان قريبا منه^(١٥) . ويذكر البلاذري وغيره من المؤرخين العرب ان ذلك القصر ينسب الى مقاتل بن حسان بن ثعلبه بن امرئ القيس بن زيد مناة^(١٦) . وهو الذي نزل به سيد الشهداء الحسين بن علي (رض) بعد ان تحرك من القادسية متجها الى كربلاء^(١٧) . لقد كان هذا القصر قرب (عين التمر) ويذكر ياقوت الحموي انه كان بين عين التمر والشام^(١٨) ويقال ان القصر صار لعيسى بن علي فيما بعد^(١٩) .

غير ان الغالبية العظمى من المختصين في الآثار اليوم متفقون في ان قصر الاخضر اسلامي صرف ولا علاقة له بما قبل الاسلام . غير انهم اختلفوا بعض الاختلاف في الفترة الزمنية التي شيد فيها . فمنهم من يرى انه شيد في

العصر الاموي^(٢٠) . ومنهم من يرى انه يرجع للفترة الزمنية المحصورة بين قيام الدولة العباسية وعصر هارون الرشيد .

ويعتقد اخرون ان اخر زمن يمكن ان يكون قد شيد فيه هو بداية عصر سامراء في القرن الثالث الهجري ، كما يميل آخرون الى انه شيد في مطلع القرن الرابع على يد القرامطة وليس من المستبعد حسب رأي هؤلاء ان يكون (دار الهجرة) التي احتضت بها القرامطة في مطلع القرن الرابع . ومن اكثر المختصين الذين اولوا تاريخ الاخير اهتمامهم هو البريطاني كرسويل الذي يرى ان القصر من الناحية العمارية يمكن ان يؤرخ بين سنتي ١٠٢ هجرية (٧٢٠ م) وسنة ١٨٤ هجرية (٨٠٠ م) وذلك على اساس عمارية صرفه^(٢١) . غير انه يضيف ان هذا القصر لا يمكن ان يكون قد بنى على يد خلفاء بني امية لان الخلفاء الامويين سكنوا جميعا في الناحية الغربية من بادية الشام . ثم يذكر ان خلفاء بني العباس لم يكونوا يحنون كثيرا الى عيشة البادية كالامويين وانما استقروا في المدن ولا سيما بعد تشييد بغداد في سنة ١٤٧ هجرية (٧٦٤ م) . وينتهي في ذلك الى ان قصر الاخير لا يمكن ان يكون قد شيده اي خليفة عباسي . ثم ينسبه كرسويل الى الامير عيسى بن موسى ابن اخ السفاح (١٣٢-١٣٦ هـ / ٧٥٠-٧٥٤ م) والذي ولاه الكوفة وجعله وليا للعهد بعد عمه ابي جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨ هـ / ٧٥٤-٧٧٥ م) . وصار يعرف منذ ذلك الحين بـ (شيخ الدولة)^(٢٢) . ويرى كرسويل ان القصة التي يذكرها الطبري تجعله الشخصية القوية الغنية التي يتلائم عصرها وظروفها على بناء ذلك القصر .

وخلاصة الامر انه لما تولى ابو جعفر المنصور الخلافة عمل جاهدا على ان يجعل ولاية وان يخلع منها عيسى بن موسى ، وقد اتبع في ذلك مختلف الاساليب . وتنازل اخيرا الاخير عن ولاية العهد لمصلحة المهدي وعلى ان يكون وليا للعهد بعد ان امتد به العمر . ولما خلف المهدي اباه المنصور سنة

١٥٨ هجرية حاول بعد ثلاث سنوات ان يفعل الامر نفسه وذلك لمصلحة ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد ، وفعلنا ينجح في ذلك ويتنازل عيسى بن موسى وللسرة الثانية عن ولاية العهد في سنة ١٦١ هجرية (٧٧٨ م) ، ثم اعتزل في ضياعة في الكوفة فعاش بعيدا عن الناس لا يذهب الى الكوفة الا لاداء صلاة الجمعة وانه كان يركب حتى باب المسجد الجامع ثم يصلي وينصرف بعدها راجعا الى ضياعه .

ويرى كرسويل ان هذه القصة تلائم تماما بناء الاخضر لان هذا القصر ، كما ذكرنا ، لابد ان يكون قد بني على يد امير غني مثل عيسى بن موسى الذي كان المنصور قد وصله عن تنازله عن الخلافة بثلاثة عشر مليون درهم ووصله المهدي عن تنازله للمرة الثانية بعشرة ملايين درهم وقطائع كثيرة (٢٣) . وان هذا هو الامير العباسي الوحيد الذي عرف بانه عاش منعزلا عن الناس وان بعد الاخضر عن الكوفة نحو خمسين ميلا يمكن قطعه على مرحلتين اذا غيرت الجبل في منتصف الطريق . ويضيف اننا نجد في منتصف الطريق بين الاخضر والكوفة (خان عطشان) الذي يرجع الى عصر بناء الاخضر يمكن ان يستخدم كدار استراحة لعيسى بن موسى اثناء ذهابه وايابه من الكوفة (شكل ٧) . وهكذا ينتهي كرسويل الى ان قصر الاخضر لابد ان يكون قد بني في سنة ١٦١ هجرية اي السنة التي اعتزل فيها عيسى بن موسى عن ولاية العهد للمرة الثانية والاخيرة (٢٤) .

غير ان كل المختصين تقريبا لم يوافقوا كرسويل على اقتراحه هذا لاسباب مختلفة . منها ان عيسى بن موسى لم يكن مرضيا عنه تماما من ابي جعفر المنصور ثم المهدي ، وانه لم يكن يستطيع ان يشيد قصر الاخضر بمثل هذا التحصين لان الدولة لم تكن تتركه يفعل ذلك اذ انه لم يكن بحاجة لمثل هذا التحصين الا اذا كان يبني شيئا ضد المهدي . وما كان والي الكوفة ليسكت عن ابلاغ هذا الامر الى الخليفة . ثم ان الاخضر واقع على حافة البادية

فلا يسكن ان يكون في وسط ضياع عيسى بن موسى الذي اعتزل الحياة العامة فيها . وانما الراجح ان تكون ضياعه من بين الاراضي المزروعة القريبة من الكوفة . هذا ويفيدنا الطبري في حوادث سنة ١١٤٥ هجرية ان دار عيسى بن موسى كانت الى جانب دار اسحق بن يوسف الازرق الذي كان قد خرج مع العلوي ابراهيم بن عبدالله^(٢٥) ، ثم ان الاخضر يبعد عن الكوفة باكثر من سبعين كيلو مترا فليس من المعقول ان يكون باستطاعته ان ياتي الكوفة صباح كل يوم جمعة لتأدية فريضة صلاة الجمعة ثم العودة الى قصره في الاخضر في نفس اليوم ، خاصة وانه كان قد تجاوز الستين من عمره انذاك .

ومما قد يساعدنا في نسبة هذا القصر الى عصر المنصور انه عثر في حفائر سنة ١٩٦٨ فوق تبايط بعض غرفه على فلس نحاسي مضروب بمدينة السلام مؤرخ من سنة ١٥٧ هجرية وبامر ابي جعفر المنصور^(٢٦) . كما عثر السيد داخل مجهول في حفائر بعض الدور المكتشفة شمال شرق الاخضر، وهي الحفائر التي سبقت الاشارة اليها على مجموعة من المسكوكات واحدة منها درهم فضي مؤرخ في سنة ١٥٦ هجرية والذي يقع ضمن سنوات خلافة ابي جعفر المنصور ايضا .

واذا كان قصر الاخضر يرجع الى ما قبل عصر المهدي فان هذا لا يعني باي حالة من الاحوال انه يرجع الى ما قبل الاسلام ولا حتى الى العصر الاموي . والسبب في ذلك يعود الى دلائل لا يمكن الطعن فيها . ربما من اهمها ان المديرية العامة للآثار والتراث قد اثبتت عن طريق الحفائر الاثرية ان المسجد في القسم الشمالي من القصر قد شيد في نفس الزمن الذي شيد فيه الاخضر . كذلك وجود عدة عناصر عمارية لم تكن معروفة في العمائر السابقة للإسلام كما ان اغلبها لم تكن قد ظهرت في عمائر العصر الاموي . فمن العناصر العمارية التي ظهرت بعد سنة ٩٠ هجرية المساجد ذات المحاريب المجوفة ، فنحن نعلم ان اول محراب مجوف في الاسلام قد استحدث عندما جدد بناء

مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة وذلك عندما كان عمر بن عبد العزيز واليا عليها من قبل الوليد بن عبد الملك في سنة ٩٢ هجرية (٧١٠ م) ومنها ايضا العقود المدبية والتي كان اول ظهور لها في قصر عمره الواقع على بعد خمسين ميلا شرقي عمان * وهو من القصور الصغيرة التي كان خلفاء بني امية يقيمونها في الجانب الغربي من بادية الشام ، والراجح ان الوليد بن عبد الملك هو الذي شيده في نحو سنة ٩٤ هجرية (٧١٢ م) (٢٧) *

ومن العناصر العمارية في الاخضر والتي لم تظهر الا في العصر العباسي القبو المتقاطع المتصالب ، وهو ضرب من ضروب التسقيف . كذلك القبة ذات القنوت التي يوجد نموذج منها فوق الساحة المربعة الواقعة بين المخل الرئيس والدهليز (شكل ٨) * ثم الحنايا او التجاويف المحارية الشكل التي لانجد ابدا ما يشبهها في عمارات قبل الاسلام او في العصر الاموي * كذلك الزخارف الآجرية الناتجة عن التلاعب بوضعيات الآجر في البناء وذلك برصفها بشكل زخرفي بحث والذي يعرف بين المختصين في العمارة الاسلامية بالزخارف الحصرية تشبها لها بنسج الحصر *

وهكذا فيمكننا القول ان قصر او حصن الاخضر قد شيد في اوائل العصر العباسي * واذا لم يكن كريسويل موفقا في اختيار التاريخ الدقيق المناسب للاخضر فان اختياره لسنة ١٦٢ هجرية هي بلاشك سنة قريبة من السنة التي شيد فيها ذلك القصر او الحصن * وفي رأينا ان افضل السنوات التي يمكن ان يكون الاخضر قد شيد فيها هي الفترة الزمنية المحصورة بين اواخر سنة ١٤٥ هجرية واولئ سنة ١٥٥ هجرية (٧٦٢-٧٧١ م) * والسبب في اختيارنا لتلك السنوات العشر هو ان المنصور في بدايتها قد احس بنذير الخطر الشديد الذي يمكن ان يأتيه من الحجاز ويهدد كيان الدولة العباسية الفتية تهديدا خطيرا وذلك بعد خروج محمد بن عبدالله بن حسن العلوي المعروف بمحمد ذي النفس الزكية في الحجاز ، وخروج اخيه ابراهيم بن عبدالله في

البصرة في سنة ١٤٥ هجرية • فنحن نعلم ان المنصور اوقف البناء في بغداد وبرك الموقع ليعود الى الكوفة حيث ارسل الجيوش من هناك الى الحجاز ثم الى البصرة • والواقع ان خروج محمد واخيه ابراهيم قد اربك الدولة العباسية الى درجة كبيرة ، فنحن نعلم ان الحجاز قد تبعت الاول وان الثاني اخضع البصرة والاهوار وفارس ثم واسط (٢٨) • وربما انه لولا حسن القيادة العسكرية لعيسى بن موسى الذي وجهه المنصور على رأس الجيش العباسي لحرب محمد ذي النفس الزكية في الحجاز ثم الى البصرة لمحاربة ابراهيم ، كذلك سوء التنسيق بين الاخوين العلويين لكان هناك اليوم قول اخر • ويكفي ان نشير الى ما يذكره الطبري نقلا عن السندي : « كنت وصيفا ايام حرب محمد ، اقوم على رأس المنصور بالمذبة ، فرايته لما كشف امر ابراهيم وغلظ ، اقام على مصلى نبأ وخمسين ليلة ، ينام عليه ويجلس عليه ، وعليه جبة ملونة قد اتسخ جيبها وما تحت لحيته منها ، فما غير الجبة ولا هجر المصلى حتى فتح الله عليه (٢٩) وكان ان هجر نساءه • وعندما جلب البعض اتباهه الى ذلك روي عنه قوله : « ليست هذه ايام من ايام النساء... حتى اعلم اراس ابراهيم لي ام رأسي لابراهيم » • (٣٠)

وهكذا فانه من المعقول جدا ان يشعر المنصور بعد ان الحق الهزيمة بصعوبة بابراهيم بن عبدالله انه لا بد من ان يؤمن الجادة القادمة من الحجاز او الشام الى الكوفة ثم الى بغداد وسواد العراق وذلك عن طريق اقامة بعض الحصون المنيعة جدا عند نقاط حساسة على تلك الجادة لها اهميتها السوقية ووضع اعداد كبيرة من الجند فيها عند شعور الدولة بالخطر وذلك لايقاف زحف الجيش القادم عن ذلك الطريق • وان لم تستطع تلك القوة العسكرية ان تبدد شملهم فانها على الاقل تعمل على اعاقتهم بعض الوقت • وحتى اذا ما تجاوز العدو تلك الحصون فان القوة العسكرية التي فيها تشكل وبشكل مستمر شوكة مؤلمة في ظهورهم • اذ ان بإمكان تلك المسالحة القوية ان ترصد العدو

وتقطع طرق تموينهم وتأخذ مددهم القادمين عن ذلك الطريق * كمة
ان بإمكان اصحاب تلك الحصون الهجوم من الخلف على العدو كقوة
مساعدة للجيش العباسي * وفي حالة هزيمة العدو فان باستطاعة تلك المسالحي
ان تأخذ من يحاول ان يهرب منهم الى الحجاز او الشام *

وعلى ذلك فان العمل في تشييد حصن الاخيضر ربما بدأ في اواخر سنة ١٤٥
هجريّة عندما كان عيسى بن موسى عاملاً على الكوفة من قبل ابي جعفر
المنصور * وليس من المستبعد ايضاً ان يكون الحصن قد بديء بتشبيده او
اكمل اثناء ولاية محمد بن سليمان * فمن المعروف ان محمد بن سليمان كان
قد خلف عيسى بن موسى على ولاية الكوفة سنة ١٤٧ هجريّة واستمر عاملاً
عليها لابي جعفر المنصور ولمدة تسع سنوات متواصلة ولم تنته ولايته على
الكوفة الا في سنة ١٥٥ هجريّة حين عزله المنصور واستبدله بعمر بن زهير^(٣١)
والواقع ان امكانية تشييد حصن الاخيضر ضمن هذه الحقبة الزمنية الضيقة
تتماشى ايضاً مع اقدم المسكوكات التي وجدت هناك من جهة ، كما تتماشى مع
الخصائص العمارية له من جهة اخرى *

اما بالنسبة الى المصادر التاريخية العربية فانه ، كما ذكرنا ، لمن الغريب
حقاً ان لا نجد فيها اشارات صريحة الى مثل هذا البناء الشامخ العظيم اللهم الا
اذا كان السبب في سكوت المؤرخين والبلدانيين القدامى عنه انه لم يكن يعرف
باسم واحد في جميع الحقب لازمنية التي كان شاخصاً قائماً فيها * فلا شك
انه قد سمي باسماء مختلفة او اقترن اسمه احياناً باسماء بعض الامراء او
القبائل التي نزلته او استفادت منه * ومما يدعم هذا الاقتراح ما كتبه الرحالة
الايطالي بترو ديلا فيلا الذي اجتاز به في النصف الاول من القرن السابع
عشر بانه كان يسمى بين اهل المنطقة بقصر (خفاجي) * ومن الصدف ان
عشر بانه كان يسمى بين اهل المنطقة بقصر (خفاجي) * ومن الصدف ان المديرية
العامة للآثار والتراث قد كشفت في السنوات الاخيرة على بعض جدار الحصن

الداخلية نصا كتابيا بخط النسخ قوامه سبعة اسطر يمكن ان نقرأ
الواضح منها النحو التالي :

حفظ الله احمر ابن

ابي المولى الخفاجي

العيهلي (؟) المحسن الى جاره

كتبه ناصر المعلم غفر الله له ولوالديه

ولجميع المسلمين ولمن دعا له بالمغفرة *

وليس من المستبعد ان احمر بن ابي المولى الخفاجي كان رئيساً
من رؤساء قبيلة خفاجية * فنحن نعلم ان الاشارات التاريخية الى قبيلة خفاجية
البدوية قد كثرت منذ مطلع القرن الخامس الهجري ، حيث ذكر ان اميرهم
منيع بن حسان سار بخفاجة في سنة ٤١٧ هجرية (١٠٢٦ م) الى مدينة
(الجامعين) وهي مدينة الحلة الحالية والتي كانت آنذاك لنور الدين ديس
فنهبا * ثم الى الانبار وهي في ذلك الوقت للامير قراوش بن مقلد فنهبا
واحرق اسواقها (٣٣) * ومن دراسة النصوص التاريخية يتبين لنا ان قبيلة
خفاجة كانت تلجأ الى المفازة كلما داهما الخطر * المفازة هنا هي ذلك الجزء
من بادية السماوة الذي يقع ضمن الرقعة الممتدة من شمال القادسية الى
الجنوب الغربي من كربلاء * فلا شك والحالة هذه ان الاخضر يقع ضمن
المنطقة التي كانت تلجأ اليها خفاجة عندما تدعو الحاجة الى ذلك (٣٣) ومما
يؤيد ذلك ايضا ما يذكره لنا ابن الجوزي في معرض حوادث سنة ٤٤٨ هجرية
عن « ورود محمود بن الاخرم الخفاجي من مصر ومعه مال فخطب بشفاتا
وعين التمر وبالكوفة للمصري * * » (٣٤) ونحن نعلم ان الاخضر لا يبعد عن
(عين التمر) الا بضع كيلو مترات *

واذا تركنا خفاجة وشأنها ورجعنا قليلا الى الوراق نجد ان الهيمنة على المنطقة في اواسط القرن الرابع الهجري كانت لبعض قطاعي الطرق من البدو ، منهم ضبة بن محمد الاسدي هذا كان قد استولى على عين التمر وما جاورها فملكها نيفا وثلاثين عاماً * وذكر عنه انه كان « يسفك الدماء ويخيف السبل وينهب القرى ويبيع الاموال » * (٣٥) كما ذكر انه في بعض غاراته التي كان يقوم بها من حين الى حين اغار على كربلاء ونهب مشهد الحسين رضي الله عنه (٣٦) ولم تفلح الخلافة العباسية في القضاء على تسرده الا في سنة ٣٦٩ هجرية (٩٧٩ م) عن طريق جيش تعداده عشرة آلاف فارس فهاجم هذا الجيش عين التمر وحاصر القلعة * ويذكر لنا ابن مسكويه ان ضبة لم يشعر الا وعساكر بغداد توشك ان تحيط به فترك اهله وهرب بحاشيته الى البادية * (٣٧)

ومن الصدف الحميدة ان نكتشف نصا كتابيا منقوشا على الصخر على حافة الوادي الصخري المعروف بحفنة الابيض الواقع على بعد ثلاثين كيلومترا غرب الاخضر * والنقش مكتوب بخط كوفي بسيط غير منقوط في اربعة اسطر تقرأ على النحو التالي :

حصن (حضر ؟) ضبة بن محمد بن يزيد
الاسدي السعدي سنت (هكذا) ست و
خمسین وثلثمائة وله اذاك ثلثین (هكذا) سنة
وكتب بخطه

ويتبين لنا من قراءة النص ان ضبة بن محمد الاسدي قد اجتاز ذلك الموضع القريب من الاخضر سنة ٣٥٦ هجرية (٩٦٦ م) ايام خلافة المطيع (٣٣٤-٣٦٣ هـ / ٩٤٦-٩٧٤ م) وحز هذا النص بنفسه في صخر ذلك الوادي . وليس من المستبعد انه كان انذاك في طريقه الى بعض غاراته او فارا من الجيوش العباسية التي ربما كانت تطارده . وصحيح ان الكلمة الاولى في النص يمكن ان تقرأ على جهتين غير ان القراءة الاولى اي (حصن) هي الانسب لقرب الموقع من حصن الاخضر الذي كان يتخذ ملجأ له .

ويبدو ان الشاعر المعروف المتنبي قد شارك مرة جيشا حاصر ضبة في هذا . فقد ذكرت الروايات التاريخية ان المتنبي في رحلته الاخيرة الى العراق « اجتاز بالطف فنزل باصدقاء له كانوا عازمين على السيد الى ضبة لمعاقبته فسار في صحبتهم . وتذكر تلك الروايات ان ضبة دخل الحصن » وامتنع به وقاموا عليه اياما لا سلاح له الا شتمهم من وراء الحصن اقبح شتم . . . فنظم المتنبي قصيدته الهجائية المشهورة التي يعتبرها النقاد من اردأ ما قال المتنبي من شعر والتي منها :

ما انصف القوم ضبة	وامه الطرطبة
وانما قلت ما قل	ت رحمة لا محبة
وما عليك من القت	ل انما هي ضربة
وما يشق على الكلب	ان يكون ابن كلبة
يلوم ضبة قوم	ولا يلومون قلبه

الى اخر القصيدة التي تعتبر سقطة من سقطات المتنبي * وعن الامور المثقة عليها ان هذه القصيدة بالذات ربما كانت السبب الرئيس في قتل المتنبي ، فقد تعرض له فانك بن ابي جهل الاسدي قرب مدينة النعمانية فقتله في سنة ٣٥٤ هجرية (٩٦٥ م) * وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الاسدي صاحب الحصن او القلعة *

فاية قلعة هذه في عين التمر او قربها التي تحصن بها ضبيعة نيفا وثلاثين عاما ؟ نحن نعلم ان حصن الاخضر لا يبعد عن عين التمر سوى بضعة كيلو مترات * فان اغلب الاحتمال ان تكون تلك القلعة هي الاخضر نفسه *

واذا تجاوزنا ضبة الاسدي نجد ان الهيمنة على تلك المنطقة قبل ذلك التاريخ كانت في بعض الفترات للقرامطة ، حيث يروى ان اول ظهور خطير لهم كان في ايام خلافة المعتضد بالله (٢٧٩-٢٨٩هـ / ٨٩٢-٩٠١م) وذلك في سنة ٢٨٦ هجرية * فقد استطاع رجل في القطيف يدعى ابا سعيد القرمطي ان يتغلب على (هجر) فملكها * (٣٨) والذي يهمننا هنا هو انه تمركز لفترة طويلة في منطقة الكوفة * وقد تجمعت طائفة من اصحابه في عين التمر ونواحيها تحت لواء قائد من قوادهم يدعى عيسى بن موسى * وروي انهم شيدوا في تلك الاصقاع حصنا ضخما لهم اطلقوا عليه اسم (دار الهجرة) وذلك في حدود سنة ٣١٦ هجرية (٩٢٨م) (٣٩) * وانا في الوقت الذي نستبعد فيه تماما ان يكون حصن الاخضر من المباني التي شيدها القرامطة وذلك لاسباب عمارية صرفة وهي ان الطراز العماري العربي كان في العصر الذي ظهر فيه القرامطة قد تطور وقطع خطوات عظيمة في التقدم وفي تحقيق طراز عماري

عربي اسلامي متميز بعيدا كل البعد عن الطراز الاموي وحتى عن الطراز الذي كان سائدا في مطلع العصر العباسي اضافة الى الاسباب الاخرى التي سبق وتطرقت اليها في هذا البحث . ولكن من المعقول والمنطق ان يكون القرامطة قد افادوا فائدة كبيرة من وجود هذا الحصن الدفاعي العظيم ، خاصة وانه ليس ثمة شك في انه كان قائما في الحقبة الزمنية التي ظهوروا فيها على مسرح الاحداث . كما انه ليس من المستبعد ابدا ان تكون هناك علاقة بين اسم الحصن واسم احد فادة القرامطة في منطقة القرامطة والمدعو اسماعيل بن يوسف الاخضر فيما لو صح ما ذكر عن وجود مثل هذا القائد القرمطي والذي يذكر المستشرق موزيل انه كانت له عمالة الكوفة لفترة من الزمن في اوائل القرن الرابع الهجري غير اننا لم نجد اشارة لهذا الاسم في المصادر التاريخية الرئيسية في العصر العباسي مثل القرطبي وابن الاثير والمسعودي ومسكوية وابن الجوزي وغيرهم . كما اننا لا نرى ان هناك علاقة بين هذا الاسم والعلوي اسماعيل بن يوسف بن ابراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب الذي خرج بمكة في سنة ٢٥١ هجرية .

هذا ويرى باحث حديث ان (قصر بن اخضر) الذي وردت اشارة اليه عند ابن الاثير في معرض حوادث سنة ٤٤٨ هجرية (١٠٥٦ م) ، وهو القصر الذي حاول ان يلجأ اليه ابن فسانجس عندما لاذ بالفرار من واسط والقي القبض عليه قرب النيل ، ربما هو نفسه قصر الاخضر للتنابيه في الاسمين من جهة ولوقوع قصر بن اخضر ، كما يبدو ، في نفس المنطقة التي فيها قصر الاخضر (٤٠) .

واذا تعمقنا في التاريخ العربي ووصلنا الى عصر الرسالة النبوية الشريفة تكثر الاشارات التاريخية الى (دومة الجندل) وصاحبها اكيدر بن عبد الملك الكندي . ففي اخبار السنة التاسعة للهجرة ذكر ان النبي الكريم (ص) بعث بخالد بن الوليد (رض) عندما كان النبي (ص) في تبوك في غزوة خاصة

الى (دومة الجندل) • وتذكر لنا المدونات التاريخية العربية ان خالدا استطاع ان يأسر اكيدر ويأتي به الى رسول الله فصالحه على دفع الجزية • ويذكر الطبري ايضا بان اكيدر هذا امتنع عن دفع الجزية بعد وفاة رسول الله (ص) ابان السنوات الاولى من الفتوحات العربية الكبرى • وهنا تختلف الروايات التاريخية ، فيكتب لنا الطبري : « لما فرغ خالد من عين التمر خلف بها عويم بن الكاهل الاسلمي وخرج في تعييته التي دخل بها العين • ولما بلغ اهل دومة مسيرة خالد اليهم بعثوا الى احزابهم من كلب وغسان تنوخ • » (٤١) وتم فتح الحصن على يد خالد في سنة ١٢ هجرية (٦٣٣ م) وقتل اكيدر • ويذكر البلاذري في ذلك روايتين : الاولى ان خالدا اتى دومة من عين التمر ففتحها ثم اقبل الى الحيرة ومنها مضى الى الشام • والثانية انه مضى من عين التمر من دون ان يمر بالحيرة (٤٢) ويؤيد الرواية الاخيرة الطبري • (٤٣) وقد ذكر ايضا انه لما نقض اكيدر الصلح مع النبي (ص) اجلاه عمر بن الخطاب (رض) عن (دومة الجندل) الى الحيرة : فنزل في موضع قريب من عين التمر وبنى منازل سماها (دومة) باسم حصه بوادي القرى ، ويذكر ياقوت الحموي المتوفي في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) انه كان قائما في ايامه الا انه خراب (٤٤) • غير ان ياقوت نفسه الذي اورد هذه الرواية قد شكك فيها لتناقضها مع ما اجمع عليه كتاب الفتوح الاسلامية من ان خالدا قد قتل اكيدر في سنة ١٢ هجرية ايام خلافة ابي بكر الصديق (رض) • ويميل ياقوت الى ما ذكره البلاذري وهو انه « لما مات رسول الله (ص) منع اكيدر الصدقة وخرج من (دومة الجندل) ولحق بنواحي الحيرة وابتنى قرب عين التمر بناء سماه دومة • • • • • وقيل ان خالدا لما انصرف من العراق الى الشام مر بدومة الجندل التي غزاها اولا بعينها وفتحها وقتل اكيدر • وقد روي ان اكيدر كان منزله اولا بدومة الحيرة هي كانت منازلهم ، وكان يزورون اخوالهم من كلب وانه لمعهم وقد خرجوا للصياد اذ رفعت لهم مدينة متهدمة لم يبق الا حيطانها

وهي مبنية بالجندل (نوع من الحجارة) فاعادوا بناءها وغرسوا فيها الزيتون وغيره وسموها (دومة الجندل) تفرقة بينها وبين (دومة الحيرة) وكان اكيدر يتردد بينها وبين دومة الحيرة ، فهذا يزيل الاختلاف» (٤٥) .

ومهما يكن من امر فيبدو لنا بوضوح ان هناك (دومتين) : واحدة قرب عين التمر في العراق وهي (دومة الحيرة) ، والاخرى قرب تبوك وهي (دومة الجندل) ، ولا خلاف في ان كليهما قد شيّدتا على يد شخص واحد هو اكيدر بن عبد الملك . وينحصر الخلاف فقط في ايتهما شيّدت قبل الاخرى .

ومن المهم جدا في هذا الخصوص ان ننقل ما كتبه الرحالة ابراهيم بن عبدالرحمن البخاري المدني المتوفى سنة ١٠٨٣ هجرية (١٦٧٢ م) في رحلته من المدينة المنورة الى الديار الشامية فوله : « استمرنا نسير لائألو جهدا ولا نميل عن التوجه قصدا ... ونحن تراءى فلعة الاخضر وتنهاوى في السير لذلك المنزل النظر لما ملأ الاسماع من صفاته وشاقنا ما قابلناه من عذب نسماته فنزلنا منه منزلا لين الموطأ عذب الهواء ، متسع الجوانب ، فاذا ماؤه احلى ماء ذقناه بعد ماء المدينة ورأينا قلعة عالية حصينة مربعة الوضع والاركان عالية البناء كأنها من قصور عبد المدان . مبنية بالحجارة المحكمة الالصاق والبناء الناعمة المس فكانها اعكان حسناء . دخلتها للاحاطة فاذا هي مشتملة على اوضاع متعددة في اركانها وغيرها وبها ايوان مرتفع في مقابل بابها به محراب اعده اهل القلعة لصلاتهم وعباداتهم ، وهو متسع الوضع حسنه ، وبالقلعة زادهم وما يحتاجون اليه من قوتهم في عامهم ... ترد عليهم الاعراب بالغنم والسمن والحشيش وما يحتاجون اليه فيلخرونه داخل القلعة وخارجها فان خارجها ابنية كثيرة على صورة الدكاكين ...» (٤٦)

ويمضي البخاري المدني في القول انه في فجر اليوم التالي سار الركب بهم الى ان وصلوا بعد العصر (مغاير شعيب) ، ثم ساروا منها الى ان وصلوا

(نبوك) بعد طلوع شمس اليوم التالي • فمن الواضح من السرد ان قلعة الاخضر هذه لا تبعد الا مسيرة يوم واحد عن (تبوك) • وقد ذكر موزيل في كتابه (شمال الحجاز) بان المنزل القديم المعروف بـ (الاخضر) الواقع بين العظم وتبوك لازال يعرف بذلك الاسم^(٤٧) •

ان من دراسة ما يخبرنا به الرحالة المدني ويؤكد المستشرق موزيل يجعلنا نرجح ان قلعة الاخضر الشامية هي في الاصل قلعة (المارد) في (دومة الجندل) • وما اسمها الا تحريف عن اسم الامير الذي قام بتعمير (دومة الجندل) وهو اكيدر بن عبد الملك • وليس من المستبعد ان القلعة التي امضى بها الخياري ليلة وهو في طريقه الى دمشق سنة ١٠٨٠ هجرية (١٦٦٩ م) قد شيدت على انقاض تلك القلعة التي بناها اكيدر او بالقرب منها فاكسبت نفس الاسم القديم •

واذا عدنا مرة اخرى الى حصن الاخضر الواقع قرب عين التمر في الجانب العراقي من بادية السماوة فاننا لنجد من الغريب حقا ان يحمل نفس الاسم الذي كان يعرف به الحصن الذي يقع في الجانب الغربي من بادية السماوة قرب (تبوك) • غير اننا اذا تذكرنا ان شخصا واحدا شيد (دومة الحيرة) قرب عين التمر و (ودومة الجندل) قرب تبوك لربما يمكننا القول من غير جزم بان حصن الاخضر قرب عين التمر قد شيد على انقاض (دومة الحيرة) التي مصرها الامير العربي اكيدر بن عبد الملك • ونحن نميل الى التسليم ايضا بان اسم الاخضر ماهو الاتحريف عن اسم ذلك الامير • غير ان الامر لا يتعدى الاسم فقط وانما البناء قد شيد ايام خلافة ابي جعفر المنصور كما سبق وناقشنا ذلك في هذا البحث • كما انه ليس من المستبعد ان يكون البناء الكبير المتهدم الذي كشفت عنه التصاوير الجوية قبالة الاخضر والذي يقع الى يسار وادي الابيض هو القصر او البناء الذي شيده اكيدر بن عبد الملك عند بزوغ نور الاسلام • غير ان هذا الاقتراح طبعا منوط بالحفائر الاثرية التي قد تجري هناك في المستقبل •

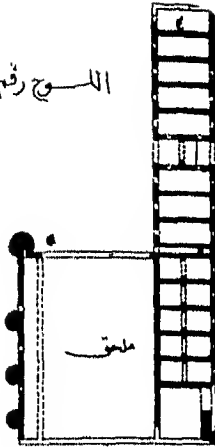
الهوامش ومصادر البحث

- ١ - Bell, G.L., Palace and Mosque at Okhaidir, P. 4.
- ٢ - Creswell, K.A.C, Ashort Account of Early Muslim Archit-
ecture, p. 192
- ٣ - سلمان ، عيسى ، وآخرون ، العمارات العربية الاسلامية في العراق ،
بغداد ، ١٩٨٢ ، ٢ / ١٧
- ٤ - نفس المصدر والجزء ، مخطط رقم (١)
- ٥ - الاصبهاني ، حسين بن محمد الراغب ، محاضرات الادباء ومحاورات
الشعراء ، بيروت ، ١٩٦١ ، ٤ / ٥٩٤
- ٦ - التنوخي ، المحسن بن علي ، نشوار الحاضرة واخبار المذاكرة ، بيروت ،
١٩٧١-١٩٧٣ ، ٨ / ٤٩
- ٧ - ان اقدم المحاريب المجوفة التي وصلتنا هو محراب مسجد قصر المنية
في فلسطين والذي يرجع الى العصر الاموي .
- ٨ - Creswell, Op. Cit. p. 82. Fig. 16.
- ٩ - يوسف ، شريف ، فن العماره العراقية في مختلف العصور ، بغداد ،
١٩٨٢ ، مخطط رقم ٦٤
- ١٠ - مهدي ، علي محمد ، الاخضر ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٤١
- ١١ - ماسنيون ، الاخضر ، في دائرة المعارف الاسلامية ، ١٩٣٣ ، ١ / ٥٣٠
- ١٢ - الالوسي ، محمود شكري ، لغة العرب ، ١٩١٢ ج ٢
- ١٣ - جواد ، مصطفى ، العمارات الاسلامية العتيقة القائمة في بغداد ، سومر
المجلد ٣ ، العدد الاول ١٩٤٧ ، ص ١٨٣
- ١٤ - حسن ، زكي محمد ، محاضرات مطبوعة بالرونو القيت على طلبه قسم
الاثار في كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ص ٨٠
- ١٥ - العلي ، صالح احمد ، منطقة الكوفة ، سومر ، مجلد ٢ ، ١٩٦٠ ،
ص ٢٤٦

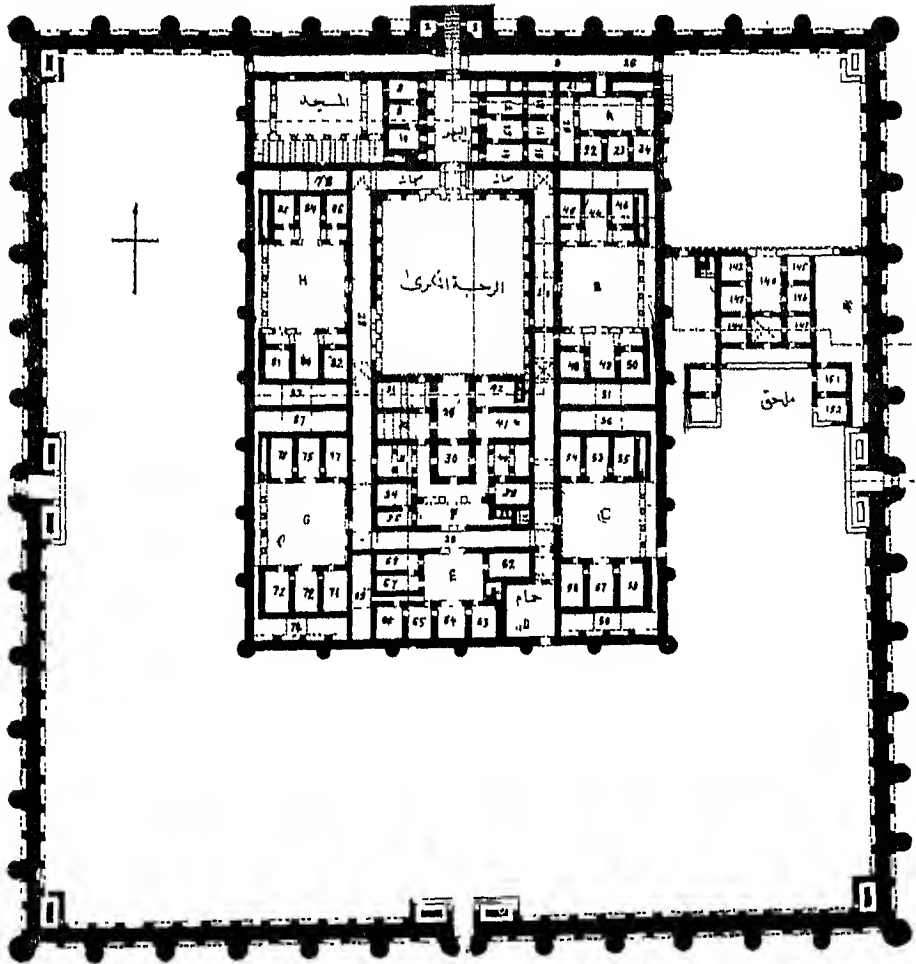
- ١٦- البلاذري ، فتوح البلدان ، دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٧ ، ص ٢٤٨
- ١٧- الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دار المعارف ، ١٠٧/٥
- ١٨- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، مادة (دومة الجندل)
- ١٩- البلاذري ، انساب الاشراف ، ٢٩١/٥
- ٢٠- Bell, op. Cit., P. 18.
- ٢١- Creswell, op. Cit., P.201
- ٢٢- الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٤ ، ١١٠/٥
- ٢٣- الطبري ، ٢٥/٨
- ٢٤- Creswell, Op. Cit., P. 203
- ٢٥- الطبري ، ٦٣٢/٧
- ٢٦- الشيخ قادر ، مظفر ، مسكوكات من الاخضر ، مجلة المسكوكات ، العدد الاول ، ١٩٦٩ ، ص ٢٠
- ٢٧- Creswell, Op. Cit. P. 91
- ٢٨- الطبري ، ٦٣٠/٧
- ٢٩- المصدر السابق ، ٦٣٩/٧
- ٣٠- المصدر السابق ، ٦٤٠/٧
- ٣١- المصدر السابق ، ٤٨/٨
- ٣٢- ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت ، ٦٧/٨
- ٣٣- المصدر السابق ، ١٦٥/٨
- ٣٤- ابن الجوزي ، عبدالرحمن ، المنتظم ، طبعة حيدر اباد ، ١٣٥٧ هـ ، ١٧٣/٨
- ٣٥- المصدر السابق ، ١٠١-١٠٠/٧
- ٣٦- مسكوية ، تجارب الامم ، طبعة مصر ، ١٩١٤ ، ٤١٤/٢
- ٣٧- ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ١٠١/٧
- ٣٨- المصدر السابق ، ١٨/٦
- ٣٩- المصدر السابق ، ١٧/٦

- ٤٠- نجم . علاء الدين احمد ، اضواء جديدة على حصن الاخير ، مجلة آفاق عربية ، ٢ / شباط ١٩٨٥ ، ص ١٠٣ .
ابن الانير ، المصدر السابق ، ٦٢٥/٩ .
- ٤١- الطبري ، ٢٢/٤ - ٢٣ .
- ٤٢- البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٥١ .
- ٤٣- الطبري ، ٢٣/٤ .
- ٤٤- ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، مادة (دومة الجندل) .
- ٤٥- نفس المصدر والجزء والصفحة .
- ٤٦- الخياري ، المدني ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، بغداد ، ١٩٦٩ ، ص ٥٠/١ - ٥١ .
- ٤٧- موزيل شمال الحجاز ، ترجمة عبدالمحسن الحسين ، مصر ، ١٩٥٢ ، ص ١٥٦ .

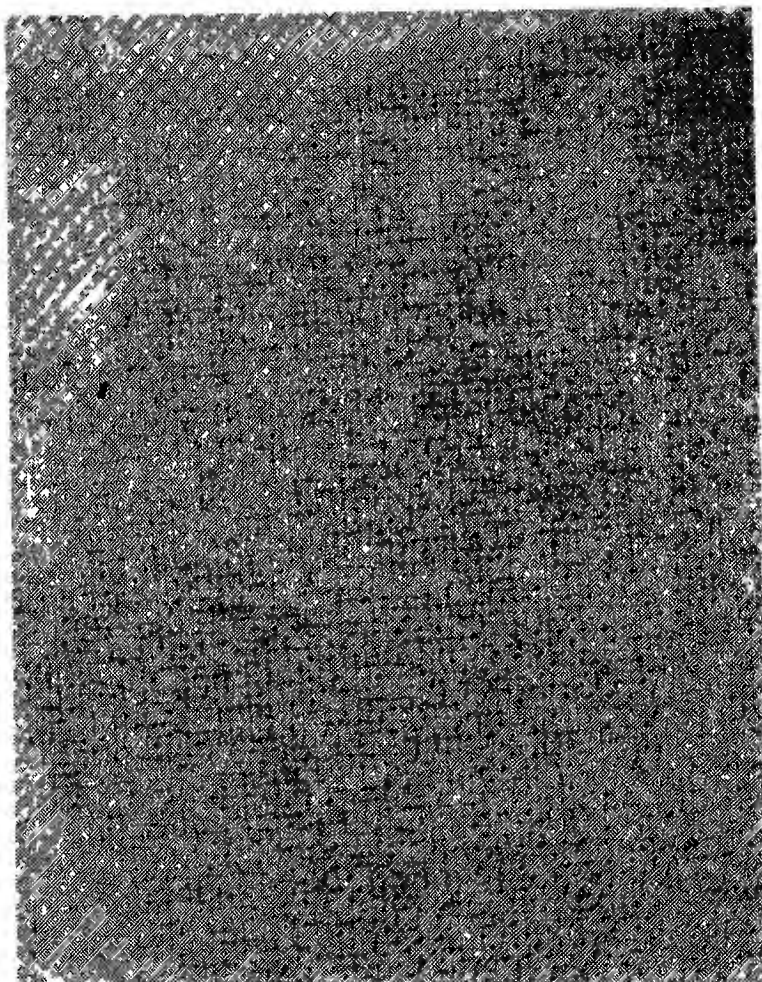
اللوحة رقم (١)

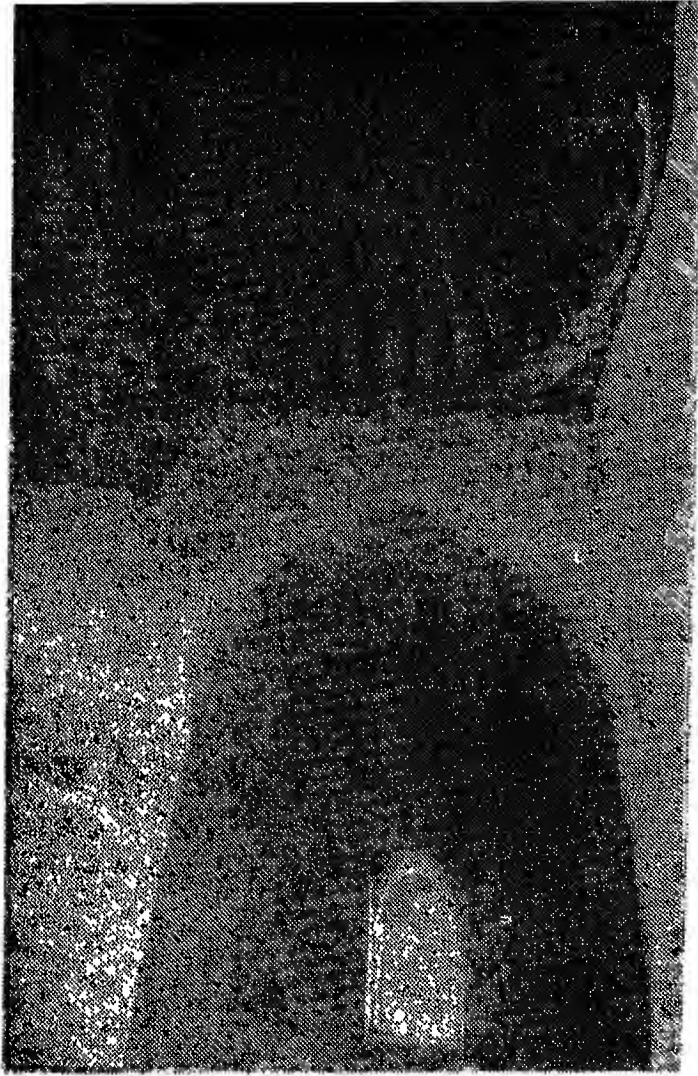


- (A) قسم الحرس والمدينة
- (B) البيت الشمالي الشرقي
- (C, H, G) دور السكنى
- (E) قسم الخدم
- (٢٩) الايوان الكبير
- (٣٠) القاعة الرئيسية

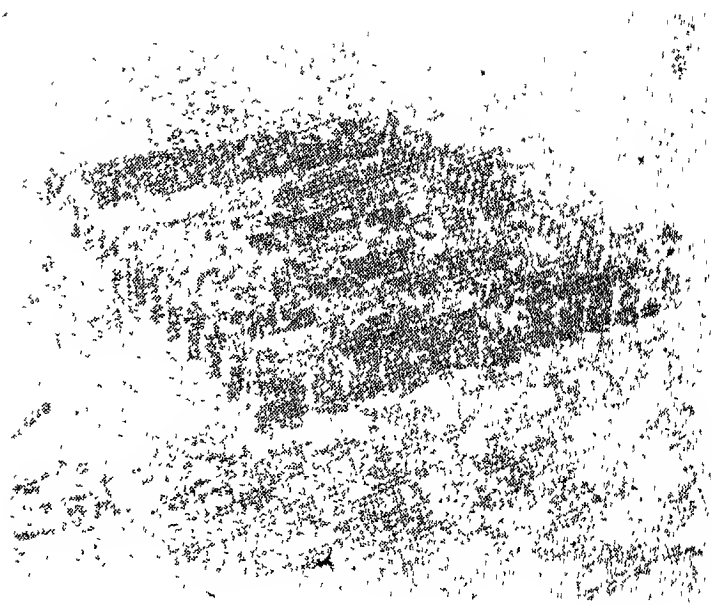


شكل (١) مخطط قصر الاخضر

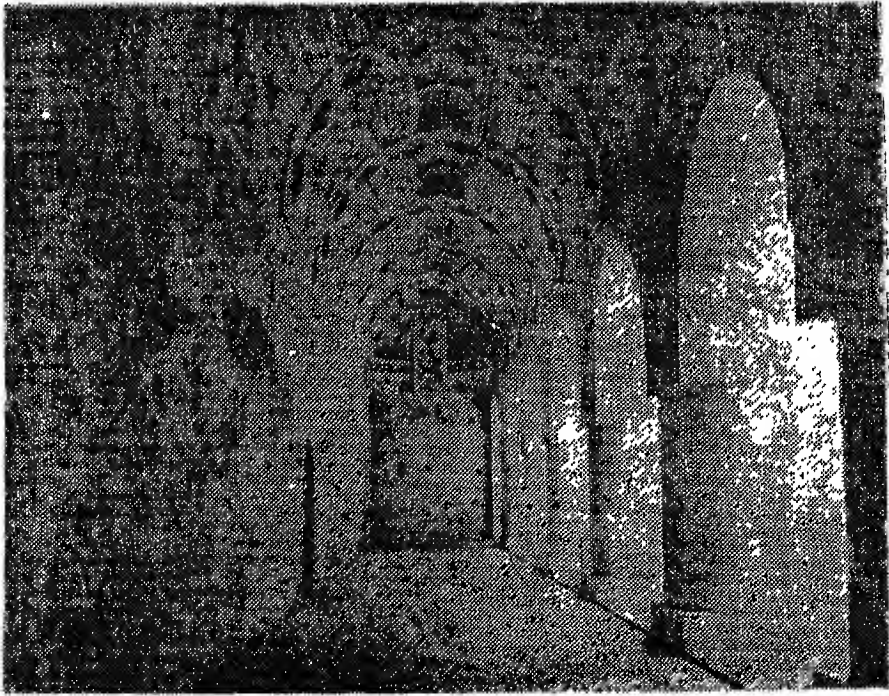




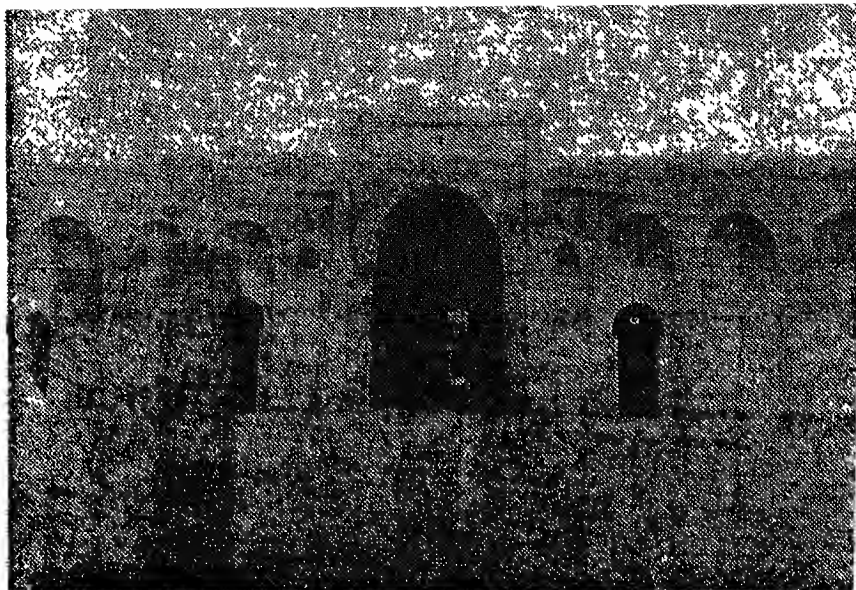
شكل (٣) القبة المقناة التي تعلو الشمالي الجزء الوسطي في
الممر الذي يصل السور الخارجي بالنصر



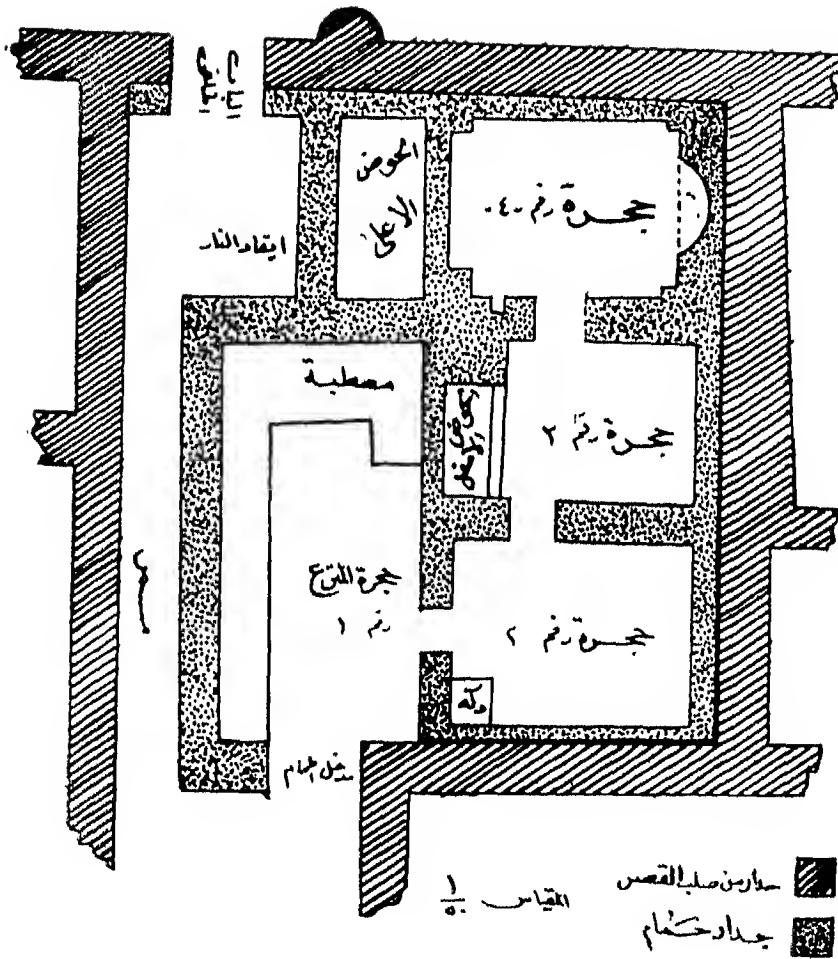
شكل (٤) دهليز القصر



شكل (٥) المسجد



شكل (٦) القسم الرئيس



شكل (٧) الحمام



شكل (٨) البناء الجديد

٣ - الحيرة

خالد صالح العسلي
كلية الاداب / جامعة بغداد

تقع الحيرة على بعد ثلاثة اميال عن الكوفة في موضع يقال له النجف و يرويها نهر كافر ، وهو يسمى نهر الحيرة ، في الاطراف الغربية من العراق وهي مفتوحة على جزيرة العرب لذا كانت قبائل العرب تستطيع التوغل فيه دون ان تصادف حاجزا جغرافيا ، ولم يكن يعيق تحرك القبائل الا نهر الفرات ، الذي يفصل الصحراء عن المناطق الخصبة في العراق . وقد استوطنت قبائل عربية في غرب الفرات ، واخذت تكون دولة تتمتع باستقلال كبير . ولما كانت الطرق التجارية المارة بين سوريا والعراق عبر وادي الفرات تمر بمنطقتها ، لذا اضطر التدمريون والتجار واصحاب القوافل ان يسترضوا هذه القبائل فيدفعوا لرجالها مبالغ كبيرة لقاء حمايتهم للقوافل . كما ان سكان الحيرة انفسهم استفادوا من التجارة ، وبذلك استفادت من وقوعها في منطقة سهلة منبسطة قريبة من الصحراء .

لقد كان لموقع الحيرة وقربها من الصحراء اثر في مناخها ، فهوؤها جاف عذب صحي ، ويجري بالقرب منها نهر الفرات الذي يتفرع في اطرافها الى عدة فروع وتأخذ منه جداول وترع تروي تلك المنطقة ، فتجعلها من اخصب مناطق العراق واكثرها انتاجاً^(١) .

لا يعرف بالضبط مؤسس مدينة الحيرة ، فنسب بناؤها الى نبوخذ نصر ولكن اكثر الروايات صحة هي ان التتوخييين هم اول من بنى المدينة .

ان اسم الحيرة فهو عربي مبنى ومعنى ويذكر الهمداني بأنه مشتق من الحيرة لان تبعا لما اقبل بجيوشه ضل دليله فتحير في هذا الموضع ، ويروي ياقوت الحموي ان الحيرة بمعنى الحمى والملجأ او مشتق من فعل حار الماء أي تردد لا يدري كيف يجري بالنظر الى ركود مياه بحر النجف .

ويذهب يوسف غنيمه ان الكلمة ارامية (حرثا) ومنها اشتق العرب اسم الحيرة ، وعندنا ان الحيرة الارامية والخير العربي من اصل سامي واحد اذ ان المضرب والمعسكر والحمى الفاظ يدل اصلها على معنى واحد^(٢) .

الاهمية العسكرية :

شغلت الحيرة مكانة خاصة في التاريخ العربي قبل الاسلام فقد اثبتت هذه الدولة العربية التي كانت تقوم بدور العازل بين الدولتين الكبيرتين اهميتها وقوتها . وتصف المصادر المعتمدة ، وكذلك النقوش الكتابية التي تم الكشف عنها منذ امد ليس بالبعيد ، دولة الحيرة بانها دولة قوية ذات شأن لها مصالحها الخاصة سواء على الحدود مع بيزنطة بأرض الجزيرة الفراتية وسورية او بمناطق الجزيرة العربية نفسها كالحجاز « مهد الاسلام » ، وفجد ، او على طريق التجارة التي تعبر شبه الجزيرة من اقاصها الى ادناها صوب بلاد العرب الجنوبية .

كانت دولة الحيرة على رأسها ملك هو القائد العسكري لهذه القبائل ،
قد اكتسبت أهمية كبيرة ذلك ان وجود رأس واحد يتولى القيادة العسكرية
من شأنه ان يؤدي الى الكثير من التنسيق ووحدة الكلمة ، ويؤثر في التنظيم
وبصورة خاصة التخطيط العسكري والحملات العسكرية ، كان هذا من
الميزات التي تمتع بها اللخميون .

كان ملوك الحيرة يفرضون طاعتهم على القبائل اما يمنح امتيازات
للرؤساء او بالقوة . وقد استبد الملوك في قوتهم على جيوشهم التي لم تكن
مقصورة على قبيلة معينة بالذات لان الحيرة لم تكن فيها قبيلة حاكمة ، بل
الحكم من اسرة ، لذلك اعتمد ملوك الحيرة على قبائل عربية او جيوش
مرتزقة ، ومن وقت لآخر يستخدمون قوات القبائل المؤيدة لهم ضد اخرى
معادية لهم .

ويروي ابو البقاء تفاصيل عن جيوش الحيرة فيقول ان امرئ القيس
بن البداء هو الذي قسم الجيش وبقي ذلك الى نهاية حكم الحيرة وهم
فيما روي اهل بيته الاقربون اليه فهذا الاسم كانوا يعرفون اهل بيت الملك
والعرش والعراقي وهم الذين كانوا يكونون على المقدمة في الحروب
والمغازي وهم عرفاء الجند وزعمائهم وقوادهم وازمتهم^(٣) .
ويتكون جيش دولة الحيرة من :

«الصنائع : وهم قوم من شذاذ الاحياء وخلفائهم كانوا يصيبون الدماء ويجنون
الجنايات على قومهم فيخلعونهم ، فيلجأون الى الحيرة فيصطنعهم الملك
ويجيرهم ويأمنون عنده ويشهدون معه حروبه ومغازيه»^(٤) .

ويروي ابو البقاء رواية اخرى ان الصنائع ايضا كانوا من بكر بن
وائل^(٥) ومن لخم ومن عبد القيس وتيم اللات بني ثعلبة بن عكابة .

ويرجح ابو البقاء الرواية الاولى ويرى روشتين بأن الصنائع فيما يظهر انها حاشية الملك وهذا يتفق مع شرح النقائص + فيروي احمد ابن عبيد « صنائع قوم يصطنعهم الملك فيلتزمون خدمته » وفي روايه اخرى « صنائع الملك يعني انصار الملك الذين يغزون معه يستعين بهم » ويمكن القول بأن الصنائع كانوا من الخلاء يستميلهم ملك الحيرة ويجعلهم في حمايته ، فيكونون حلفاءه ويشاركون معه حروبه (٦) +

٢ - الوضائع : يذكر ابو البقاء بانها - فرقة اجنبية استخدمها الى ملوك الحيرة لتعزيز مركزهم ، وعددهم الفا فارس وهذه القوة في الحقيقة وضعت لتقوية ملوك الحيرة وبها يستطيعون تعزيز سلطاتهم على سكان الحيرة والقبائل البدوية + ويرى روشتين ان الوضائع ان تدل على جيش معين ويقترح بأن الوضائع ربما تشير الى جيوش الحامية وبصورة خاصة حاميات الحدود ومن المحتمل كما يقول روشتين ان الدوسر والشهباء هما جيوش حاميات الحيرة +

اما احمد بن عبيد فيقول : « الوضائع يضع الملك على كل قوم مائة او اكثر او اقل على قدر قلتهم وكثرتهم يغزون معه اذا اراد الغزو » وهو يعطي تعريفا آخر للوضائع « والوضائع سائر اهل المملكة وجماعتهم ممن لا يعرف » +

وقد استند پيفان على هذا التعريف فقال في قاموسه « ان الوضائع جند يجمعهم الملك اللخمي » « ووصفهم ابن الاثير على انهم شبه المشايخ » +

وبهذا فأن الوضائع تطلق على الجند المرتزقة وعلى الجند العرب الذين يجمعهم الملك اللخمي وهم من اشراف القبائل « شبه المشايخ » •

٣ - وكانت في الجيش الحيري قوة خاصة تجند من لخم تدعى الجمرات او الجسار • وقد ذكر ان ارش بن ايراش بن جزيله^(٧) كانوا عماد هذه الفرقة • وفي رواية اخرى ان هذه الفرقة كانت تجند من لخم ومن قبائل اخرى ذكر منها بنو سلسلة من غفار وبنو معاوية من كلب وجماعة من بني سلمة بن ثعل من طيء^(٨) •

٤ - اما الرهائن : وهم « غلمان كان الملك بالحيرة يأخذهم رهائن من احياء العرب على الطاعة ، وعلى ان لا يفسدوا • ولا يغيروا على بلاده وعلى ما كان يجري بينه وبينهم من صلح او ميثاق على امر من الامور ، فيكونون عنده ويصبحون في سراياه ومغازيه ••

وقيل ان عدد الرهائن كانت ربما بلغت مائة غلام ، وكانت نوبتهم ستة اشهر ثم يرهن غيرهم ، وينصرف الذين قضوا نوبتهم الى اهلهم »^(٩) •

٥ - وكانت في الحيرة ثلاث فرق هي الدوسر (او دوسرة) ، وكانت تجمع فرسانهم وشجعانهم وذوي النجدة المنتخبين منهم^(١٠) • وقد ظلت الى عهد ابي قابوس حيث كانت تعتبر اخشن الكتائب واشدها بطشا ، وكانت تجمع من مختلف القبائل وخاصة من قبيلة بكر •

٦ - اما الشهباء : وهي التي كان يكون فيها اهل بيت الملك ، وسميت بذلك لانهم كانوا يسمون الاشاهب لجمالهم وصباحتهم ، وقيل بل هي كتيبة اجنبية الذين كانوا يسمون الوضائع ، سميت بذلك لبياض الوانها^(١١) • وكافت هذه الكتيبة في زمن ابي قابوس مكونة من اخوته وبني عه واتباعهم واعوانهم^(١٢) •

٧ - أما الملحاء : فقد سميت بهذا بسبب لون دروعها و « لكثرة لبوس الحديد فيها والاملاح ما اشبه لونه الرماد من بياض يشوبه سواد او سواد يشوبه بياض » (١٣) .

ويشكل هذا الجيش المكون من اهل الحيرة قوة يعتد عليها ملوك الحيرة . وهم جندهم الذين بهم امتناعهم وعزتهم . وكان هذا الجيش يحارب حفظا لبيضتهم واهلهم ومنازلهم وحماية لانفسهم واموالهم ولا يمكن خذلانهم ولا التخلف عنهم .

وعندما يقوم الملك الحيري مع جيوشه بحملة عسكرية كان اهل الحيرة يختون من غزو الاعراب لهم ، فكانوا يبقون في حصونهم حتى يعود الملك مع جيوشه . ويعقد الملك في بعض الاحيان اتفاقيات مع القبائل المجاورة وخاصة بكر بن وائل على ان لا يقوموا بغزو الحيرة عند غيابه .

حاز عرب الحيرة تفوقا في القتال وخاصة على تخوم الروم ولذلك قال بروكوبس ان المنذر بن ماء السماء قد « اذل الروم » خلال خمسين سنة وبرهن على قوة دولة الحيرة والقدرات التي كانت تحت تصرفه . فالعرب هم الذين وضعوا خطة الهجوم عبر الفراتية على انطاكية وهي خطة تم تنفيذها بنجاح (٥٣١م) وكذلك امن العرب تحركات القوات الساسانية كما ان الفضل في انتصار الفرس في واقعة قلينبة يعود الى الهجوم الناجح الذي قام به عرب الحيرة على الجناح الجنوبي لجيش الروم .

وامتاز عرب الحيرة بصورة خاصة باستكمالهم لنوع السلاح الذي استعملوه فقد بلغ عرب الحيرة شأنا بعيدا في صناعة السيوف وتطويرها مما اكسبها مرونة خاصة وحدة ، كذلك تجدر الإشارة الى اهمية الدروع اي حلق الزرد التي تحمي المقاتل من وقع السلاح . وبهذا اصبح للكمي امكانيات

كبيرة في القتال بنجاح من فوق صهوة جواده وهو محتم بدرعه الحديدي *
وكان فرسانهم مسلحين بالسلاح الخفيف في محاربتهم الروم كما كانت لديهم
الخيالة المدرعة *

وكان السلاح العربي ميزاته ولعله فاق بكثير اسلحة الفرس ، ولا
يخلو من مغزى في هذا الصدد ما نسب الى بهرام جور من مهارة استعمال
القوس والرمي والشاب ، واذا ما اخذنا في الاعتبار انه أمضى سني
شبابه الاولى بالحيرة فلعل التحسينات التي ادخلها بهرام جور قد ارتبطت
بنفس استعمال القوس الذي تمرس باستعماله اثناء اقامته بين عرب الحيرة *

اما الاسلحة التي استعملها عرب الحيرة فمن الممكن التعرف عليها من
اشعارهم * ففي معلقة عمرو بن كلثوم يصف فرسان العرب مدججين بالسيوف
والرماح وعلى رؤوسهم الخوذات ودروعهم تلمع في وهج الشمس * كذلك يرد
ذكر الدروع في معلقة الحارث بن حلزة * اما الرماح فكانت تعمل من القنا
الذي يحدد ويسن رأسه فيصبح فتاكا * اما الدروع فيقصد بها حلق الحديد
الذي يلبس كالقميص والذي كان الفارس يربطه بحزام حول جسمه * على
انه لا ينبغي ان يفهم من هذا ان فرسان العرب كانوا يرتدون لباسا من
الحديد (اسوة بفرسان اوربا في العصور الوسطى) ذلك ان الحصان
العربي الخفيف وان كان بمقدوره حمل الفارس المسلح جيدا الا انه كان فوق
طاقته حمل لباس الحديد الذي يغطي الفرس بالمثل *

وليس هناك ثمة شك في ان الحاجة واضحة الى صنع الاسلحة
وتحضيرها في اعداد كبيرة * وقد عرف العرب صناعة الاسلحة الخاصة بهم ،
وانها فاقت من حيث الكيف ما عرفه الفرس والروم
وكان النعمان اللخمي عندما مات اربعمائة او ثمانمائة درع كانت
للنعمان * ولا بد من الافتراض بان هذا الطلب كانت له صلة بالجودة التي
اتصفت بها تلك الدروع *

السكان :

تذكر المصادر العربية انه كانت في الحيرة قبائل عربية منها مذحج وحبيبر، وطيء، وكلب، وتميم . ومع ان بعض هذه القبائل سكنت الحيرة قديما ، الا ان بعضها استوطنت الحيرة بعد التحرير الاسلامي او ازدادوا فيها بعد تحرير العراق وذكر النسابون من القبائل التي استوطنت الحيرة بنو عوف بن ابي سلمى وبنو عمار بن عبد المسيح بن قيس بن حرملة اصحاب قصر العدسيين وهما من كلب وجفنة وهم بطن من بني عوف بن عمرة بن ربيعة بن حارثة الخزاعيين وبنو مازن بن تميم الله بن جعال وبنو سنيد ومرة اولاد زيد بن سعد بن عدي بن تمر ويقال لهم بنو مطر ، ومنهم بقبيلة صاحب قصر بني بقبيلة ، وبنو هند من بني زيد الله بن عمرو بن مازن ، وهم من الازد ، وبنو الساطع . وهم عدي بن عمرة بن كنانة ، وبنو عدي بني اراش بن حرملة بن لخم ، وبنو سميئة الطائيين ، وبنو المحلق بن بكر بن وائل ، وسلسلة من بني ملك بن هريمة الجعفي ، وبنو عبد الخيار ، وبنو مالك من اياد ، ومن اسماء القبائل الكثيرة المذكورة اعلاه نجد ان سكان الحيرة اغلبهم من الاعراب نتيجة سكنهم في منطقة واحدة ، فقد قسم المؤرخون سكان الحيرة الى ثلاثة اقسام وهم :

عرب الضاحية : وهم من القبائل العربية التي استقرت في الحيرة او اطرافها وكانت تسكن اما بيوت الشعر والخيام وتمتحن الرعي ، او تستقر وتبني البيوت ويطلق عليهم النسابون تنوخ ، انها مجموعة قبائل تجمعت وتنوخت وكونت وحدة وعلى مر الايام ظن النسابون انها قبيلة تربط افرادها رابطة الدم . ومن المحتمل ان يكونوا من مختلف القبائل المجاورة كطيء وتميم واسد وافراد من القبائل الاخرى .

اما العباد : وهم معظم اهل الحيرة وجلهم واشرافهم ، واهل البيوتات والعز منهم ، وهم اصحاب الحيرة يقال لهم الحيرة الاولى ، ومن كان بها من غيرهم فانما كان ضميمة اليهم واسمهم هذا غالب على اسم من سواهم من اهل الحيرة من اصحاب الاسماء المذكورة وغيرها ، فاهل الحيرة باسراهم يعرفون بالعباد ، غلب هذا الاسم عليهم حتى صار كالنسب لهم واقتنعوا به عن الانتساب الى عشائريهم ، وعرفت به اعقابهم من بعدهم في الاسلام .

واختلف في معنى هذا الاسم وسببه ، فقليل انما سموا به لانهم كانوا اهل الوضاعة من النصارى الذين للغةم فضل على غيرهم من السريان ، كفضل لغة العربي البادي على لغة من يسكن المدن ، وبهم كن يقتدي من سواهم من اهل نحتهم ، وقيل بل سموا بذلك لان شعارهم كان نحن عباد الله وانشد لبعضهم :

نحن العباد وربنا الرحمن وله علينا الطوع والاذعان
وقيل بل نسبوا ذلك الى ان لهم وليس هذا الوجه بشيء لانهم من قبائل شتى من عدنان وقحطان .

وقيل بل كانوا يعبدون صنما لهم يقال له سبد فقليل لهم عباد سبد ولزمهم هذا الاسم .

وقيل انهم انما سموا بهذا الاسم لانهم اول من سكن الحيرة مع عمرو بن عدي واختطوا بها المنازل وبنوا بها الجدر ، فسموا بذلك العباد ، وصارت لهم ، وكل من جاء من بعدهم ، فانه انما لجأ اليهم .

وقد ذكر الطبري هذا الوجه^(١٤) ، ويقويه ايضا انه روي ان عمرو بن امريء القيس لما ملك ، ادخل في العباد اهل بيوتات من ربيعة واياهم لم يكونوا منهم من قبل وهذا مما يدل على ان اسمهم العباد انما وقع على من كان بالحيرة اولاً^(١٥) .

اما الاحلاف : وهم قوم لحقوا بالعباد بعد نزولهم الحيرة فحالوهم وانضموا اليهم ودخلوا معهم في امرهم ، وهم من احياء كثيرة تسمى منهم بنو لحيان من بني الحارث بن كعب ، وقوم من غسان وبنو مرينا وهم من اشrafهم ، ونسبهم من جعفي منهم عدي بن اوس بن مرينا الذي كان عدي بن زيد العبادي عند النعمان الاصغر حتى قتله ، ومنهم قوم من عبدالقيس بن افضى ، ومن الاوس بن عمرو بن عامر وبنو حية من طي ، وهم رهط اياس بن قبيصة الذي استعمله كسرى بالحيرة بعد النعمان الاصغر ، ومن حنيفة بن لخم ، ومن نمير بن عامر ، واهل بيت من اسيد بن خزيمة ، ويقال لهم بنو شجرة وقيل انه دخل فيهم قوم من بني فريش من ولد عبدالله الاعرج بن عبدشمس بن عبدمناف ، يقال لهم بنو العميني ، وقريش تنكر ذلك ويقولون ان عبدالله الاعرج لم يعقب *

وقيل ان اسم الاحلاف بالحيرة كان يجتمع قوما من اربعة عشر حيا ثم جعل اهل الحيرة كلهم ثلاث كتائب تجمع هذه الاسماء كلها ، وسمى كل كتيبة اسما لم تزل تعرف به الى اخر ملوك الحيرة^(١٦) *

والراجح انه في اواخر ايام المناذرة كان اهم الاحلاف قبيلة تغلب التي هاجرت بعد حرب البسوس ايام عمرو بن هند واستقرت على ضفاف الفرات شمال الحيرة ، وكذلك بكر وخاصة بني وشيان^(١٦) *

وصف ابو البقاء العلاقات بين حكام الحيرة واصدقائهم شيوخ القبائل بقوله « كان لهم عمال على اطراف البلاد من العراق الى البحرين حكم كل واحد منهم من بازائه من الاعراب من حمايته مثل هذا الحكم ، والحقيقة ان الاعراب لم يخضعوا لسيطرة ملوك الحيرة بل خضعت فقط القبائل والبطون التي كانت تسكن المناطق التي تحت سيطرة حكام الحيرة ، ودفعت الاتاوة لانها سكنت اراضيهم وكانت القبائل في الواقع تخاف ان تندحر امام قوتهم العسكرية ، وعندما ترحل القبائل وترك اراضيهم وتصبح بعيدة عن

وهو يظهر الحيرة ويرجع بناؤه الى عهد المناذرة . وقد اكثر العرب من ذكر الخورنق في ظلم اشعارهم ومضرب امثالهم ولم يتصدوا لوصفه وصفا مسهبا (٢٠) . ومما كان يزيد من بهاء هذا القصر موقعه الطبيعي الفتان ، فكان يشرف على النجف وما يليه من البساتين والنخيل والجنان والانهار وكان البحر تجاهه وفيه الملاحون والغواصون والحوت وخلفه البر فيه الضب ويقابل الفرات فيدور عليه على عاقول كالخندق . وقد بقي القصر عامرا بعد حروب التحرير العربية وتخطيط الكوفة زمنا ، وان كل من ولاية الكوفة احدث فيه شيئا من الابنية ومنهم الضحاك بن قيس . وقد سكنه العباسيون واصبح في القرن الرابع عشر للميلاد خرابا . ولا يعرف اليوم موقعه .

اما قصر السدير فكان في وسط البرية التي بين الحيرة وبين الشام أي انه في الشمال الغربي من الحيرة .

ويأتي اسم السدير غالبا مقرونا بالخورنق في قصائد الشعراء وروايات الاخباريين وينسب بناؤه الى النعمان الاعور (٢١) .

كما اشتهر قصر ابي الخصيب بظاهر الكوفة وهو قريب من السدير ثم هناك قصر سندان وقصر العذيب والصنبر وقصر الفرس وقصر بني بقليلة وقصر مقاتل والقصر الاحمر (٢٢) .

وهذا يظهر ان ملوك المناذرة كانوا مولعين ببناء القصور الفخمة والصروح العظيمة وتابعهم ابناء بلادهم في هذا المضمار .

الصناعة :

ذكرنا ان مدينة الحيرة اشتهرت بقصورها وعمارتها ، ويقصدها المترفون والاغنياء ولذا كانت تلبى ما يحتاج اليه المجتمع من الصناعات الزاهرة .

لذلك ارتقت في الحيرة الصناعة رقيا كبيرا فازدهرت فيها صناعة
الانسجة • فالنساج ينسجون القز والكتان والصوف وهذا عمرو بن كلثوم
يذكر النساجين :

اذ لاترجى سليم ان يكون لها

من الخورق من قين ونساج

وكان القماش احيانا موشى بالقصب او مطرزا بخيوط الذهب • فقد
ذكر البكري ان النعمان وركبه عند خروجهم في كل عيد « وعليهم حلل الديباج
المذهبة » وكانت الاميرات في بيوت المناذرة يلبسن الدمقس والحريز •
ومن البسة الحيريين الساج والطيلسان واليلمق والشرعية والسيراء •
كما لبس الملوك التيجان في رؤوسهم • ولبس الحيريون العمائم •
ومن البستهم « اثواب الرضا » وهي جباب اطواقها الذهب في قضب
الزمرد •

وقد اشتهر الثوب الحاري كل السهرة حتى شبهوا ابنتهم به ، والحاري
ايضا انماط تعمل بالحيرة يزين بها الرجال •

وكان الحدادون يصنعون لوازم العبارة من الحديد كالباب الحديدي
التي كان موضوعا على دير الاسكون ، يصنعون شكات السلاح والسيوف
الحارية الشهيرة والسهام ونصال الرماح وغيرها مما كان يتخذ اسلحة لكتائب
الجيش والجيش الحيري معروف بقوته وهكذا اشتهرت صناعة الاسلحة
واكتسبت السيوف الحيرية سمعة بين العرب •

ولان الصياغة ازدهرت لتموين بلاط المناذرة بحاجاته من
الحلي والزينة والادوات وكذلك لتموين الناس بما يحتاجونه •

وهكذا نرى الصاغة يصوغون الذهب والفضة ويرصعونها بالجواهر
وقد وصف البكري موكب النعمان بقوله « كان النعمان يركب في كل عيد

سيطرة حكام الحيرة ، يمتنعون عن الخضوع لهم • ويؤكد ابو البقاء بان طاعة القبائل لم تكن اكثر من الكف عن غزو السواد وحدود المقاطعات •

ويمكن تقسيم القبائل حسب تصنيف ابي البقاء الى ثلاث مجموعات . واما حد عزهم من العرب الذين كانوا في تقدير رعاياهم لهم اسم الملوك عليهم فقد ذكر كونهم معهم على طبقات ثلاث : اللقاح : الذين كانوا يغزونها • واهل الهدنة الذين كانوا يعاهدونهم ويواثقونهم وهذه مماثلتهم من اهل هاتين المنزلتين للملوك وهم واياهم على سواء •

واما الطبقة الثالثة فهم الذين كانوا يدينون لهم فكانوا في اكثر زمانهم ايضا يصانعون اهل هذه المنزلة استملاقا لهم وتقويا بهم على من سواهم حتى ان الملك كان يكون معهم كالمولى عليه • وكان اقرب العرب منهم دارا ربيعة وتميم » • ويوضح ابو البقاء معنى اللقاح بذكر ابيات لعمر بن حوط الرياحي ، وقول ابو زمعة الاسود بن المطلب بن اسد عندما عارض تنويع عثمان بن الحويرث كملك على مكة من قبل حاكم البيزنطيين^(١٧) • . وكان اسد ابن خزيمة وغطفان لقاح ، فكانوا مستقلين في علاقتهم مع ملوك الحيرة وتضم المجموعة الثانية سليم وهوازن • « وكانت سليم وهوازن تواثقهم ولا تدين لهم ، ويأخذون لهم التجائر فيبيعون لهم بعكاظ وغيرها فيصيبون معهم الارباح . وربما اتى الملك منهم الرجل والنفر فيشهدون معهم مغازيهم ويصيبون معهم من الغنائم وينصرفون ، ولم تكن لطائم الملوك وتجارتهم تدخل نجد فما وراءها الا بخفر من القبائل »^(١٨) •

البناء :

بلغ فن الرياسة من الاتقان في الحيرة فييوتهما كانت مخططة تخطيطا رفها ومتناسبة الاجزاء بنسب دقيقة • والطرز البنائي الحيري مشهور عند العرب ، فيذكر المسعودي : « احدث المتوكل في ايامه بناء لم يكن الناس يعرفونه وهو المعروف بالحيري ذو الكمين والاروقة •

وذلك ان بعض سماره حدثه في بعض الليالي ان بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر احدث بنيانا في دار قراره، وهي الحيرة على صورة الحرب وهيئتها للهجة بها وميله نحوها لثلا يغيب عنه ذكرها في سائر احواله ، فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر ، والكمان ، ميمنة وميسرة ، ويكون في البيتين اللذين هما الكمان من يقرب اليه من خواصه، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة ، وفي الشمال ما احتيج اليه من الشراب ، والرواق قد عم فضاؤه الصدر والكمين والابواب الثلاثة على الرواق ، فسمي هذا البنيان الى هذا الوقت بالحيري والكمين (ذي الكمين) اضافة الى الحيرة واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتاما بفعله واشتهر الى هذه الغاية (١٩) » .

وقد استعمل الحيريون في ابنيتهم اللبن والاجر والمرمر والجص والقرمذ، كما تفننوا بنقش بيوتهم وزخرفتها بالرسوم وبطلاء سقفوها بالفسافس والذهب . وقد عثر على عدد من الزخارف في اطلال المدينة ، ووجد معظم الغرف بنا بزخارف من جص ، نات ومشيع وطرز نقشه ثقيل . كما اثبتت التنقيبات في احدى الدور بانها مصبوغة اصباغا لطيفة كل اللطافة وبهيئة رسم صليب محاط بدائرة يتكرر مرارا . كما ان الرسوم كانت تمثل الزهور والفواكه والبقول .

وفي الحيرة عدة اديرة اشهرها دير هند الصغرى ودير هند الكبرى ودير اللج الذي بناه النعمان ابو قابوس . ومن اديرة الحيرة دير ابن مزعوق وهذا الدير في وسطها ، وهو دير كثير الرهبان حسن العمارة . وكان احد المتنزعات المقصودة والاماكن الموصوفة . وبالقرب من هذا الدير دير الحريق ودير علقمة، ودير السوا ودير عبدة ودير حنة ودير ابن براق .

كما اشتهرت الحيرة بكثرة قصورها التي يرد ذكرها في اخبار حروب التحرير في العراق فمنها قصر العدسين والقصر الابيض وقصر بني مازن وقصر الطين ، والزوراء . ومن القصور التي اشتهرت في الادب العربي قصر الخورثاق

ومعه اهل بيته * عليهم حلل الدياج المذهبة ، رؤوسهم اكاليل الذهب وفي
اوساطهم الزناير المفضضة بالجواهر وبين ايديهم اعلام فوقها صلبان ، فاذا
قضوا صلواتهم انصرفوا الى مستشرق في النجف » *

وكانت انية الذهب والفضة كثيرة في قصور المناذرة و اشار النابغة
الى انه كان يأكل فيها وهي من عطايا النعمان واييه وجده *

ومن انيتهم الديسق وهو خوان من فضة وما يشبه ذلك *

وكان النصارى يلبسون اطفالهم وصبيانهم اطواق الذهب وكان لاهل
الحيرة اليد الطولى في التجارة والتنجيد ، التجارة لبناء العمارات والقصور
والبيع والديارات والتنجيد للفراش ، فقد اشتهرت رقمها ، وكان يتخذ بها من
الفراش اشياء ظريفة *

وكانوا يصنعون اواني الفخار ويطلون بعضها طلاء ذا الوان زاهية *

واشتهرت الحيرة بصنع الخمر ولاسيما خمور العباديين النصارى
وكثرت المرويات التاريخية والاشعار فيها فقصد حاناتها
قبل الاسلام وفي الاسلام طبقات كثيرة من الناس وتغنى الشعراء بذكرها
وتلذذوا بنشوتها وكان الملوك المناذرة انفسهم يعقدون مجالس الشرب مع
ندمائهم ويقدمون الخمر لضيوفهم (٣٣) *

الدين :

عبد سكان الحيرة الاصنام * وجاء عن جذيمة الابرش انه تكهن وكان
له صنمان يدعيان الضيزين * وقد ظل هذان الصنمان حتى ايام المنذر بن ماء
السماء (ت ٥٥٤) حيث نقلهما واقامهما على باب الحيرة ، ينحني لهما الداخلون
الى المدينة * كما كانوا يحلفون بسبده وهو صنم كان في الحيرة ولا يعرفه

تفاصيل عن هذه الالهة او طريقة عبادتها ، وبجانب هذا فقد كانوا يعبدون العزى ، كما قدم المنذر نفسه احد ابناء الحارث الغساني ضحية للعزى •

ان اهم الديانات التي انتشرت في الحيرة هي النصرانية ولا يعرف مدى انتشار النصرانية بينهم ، ولكن الراجح ان الحيرة كان عليها اسقف سنة ٤١٠ م وان ملكها حمى النصرانية سنة ٤٢٠ م الا انه لا يعني ان ملكها قد تنصر ، ونرى ايضا ان النساطرة واليعاقبة اشتهر جدالهم في اوائل القرن السادس للميلاد وتنافسوا في الرئاسة ففاز النساطرة •

وكان هند الكبرى ام عمرو بن هند كانت على النصرانية فبثت مبادئ النصرانية وبنت ديرا سمي بدير هند •

التعليم :

لقد ذكر مدارس الحيرة في كتاب العفة ، وقد درس فيها ايليا الحيري مؤسس ديرمار ايليا بالموصل وغيره • كما كان زيد بن عدي قد تعلم الكتابة العربية في الحيرة ، وكان زيد هذا اول من كتب في ديوان كسرى •

وكان اولاد الحيرة يتعلمون الكتابة والقراءة في مدارسهم وكانت بعض المدارس في الكنائس فعندما جاء خالد بن الوليد الى ، عين التمر وجد في بيعة قرية من قراها اسمها النقيرة صبيانا يتعلمون الكتابة وقد ذهب العرب الى ابعاد حد من هذا اذ قالوا ان اول من كتب منهم بالعربية حرب بن امية بن عبد شمس

يعلم من اهل الحيرة . ونعلم اهل الحيرة من اهل الانبار . ويذكر ابن سعد ان مي عهد عمر بن الخطاب (رض) كان جفينة النصراني من اهل الحيرة يعلم الكتاب في المدينة وذلك بعد ان امر عمر بخروج النصارى من جزيرة العرب .

وكان كثير من الحيريين يتعلسون اكثر من لغة واحدة فكانوا يتقنون العربية لانها لغتهم وكانوا يتعلسون الارامية ، وهي لغة بيعتهم وصلواتهم .

وللحيرة منزله تاريخيه في آداب اللغة العربية سواء كان بالشعراء الذين انجبنهم . ١٠ بالسعراء الذين فصدوا ملوكها المناذرة للحدح والتقريظ ووصف البلاد بالحوادث او الوضائع التي نبت في ارضها وقبائلها ، فاهتم الشعراء مواضع المعلقات والمجهرات والقصائد .

١١ في اللغة العربية عشرات من الامثال السائرة على الالسنه نبتات في الحيرة . لما كان للتعليم الديني اهمية في معرفة الفلسفة ومباحثها التي سمع من النجاشي ونبيعته وسنانه وطرق المعرفة لذلك أخذوا يتداولون الابواب المتعصبه ويدرسونها وترجموا الكتب اليونانية التي كانت قد عالجت هذه المواضيع والواقع انهم درسوا وترجموا كثيرا من الكتب الفلسفية . ١٢ في اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم ولما بدأ العرب بخرجه الى العربية في العصر العباسي الاول قام اهل الحيرة بالدور الاول فيها فنقلوا مئات الكتب ، حتى ان حنين بن اسحق وحده نسبت اليه ترجمه اكثر من مائة كتاب الى العربية ولم يكن عملهم مقصورا على الترجمة فحسب بل وعلى الشرح والتأليف والدرس سواء في الفلسفة او الطب او العلوم الاخرى . وهكذا كان لهذه المدينة الاثر الاول في نقل تراث الفكر اليوناني الى العرب او في ترويض اللغة العربية وجعلها اداة ممتازة للتعبير عن الفلسفة والعلوم (٢٤) .

الهوامش :

- ١١ - انظر الدراسة القيمة للدكتور صالح احمد العلي « منطقة الحيرة » مجلة كلية الاداب العدد الخامس (١٩٦٢) ص ١٧-٤٤ .
- ٢ - غنيمه : يوسف رزق الله « الحيرة المدينة والمملكة العربية » . بغداد . ١٩٣٦ ص ١١ .
- ٣ - الارداف وهم عرفاء الجند وزعمائهم وقوادهم وازمتهم « ابو البقاء هبة الله على كتاب المناقب المزيرية من اخبار الملوك الاسدية » . تحقيق : الحاج موسى درامكه ، الاردن ، ١٩٨٤ ص ١٠٥ .
- ٤ - ابو البقاء ص ١٠٦ .
- ٥ - يقول المبرد : ان اكثرهم من بكر بن وائل . الكامل ج ٢ ص ٨٣ .
- ٦ - كسر : الحيرة : ملاحظات في علاقاتها ترجمة خالد العسلي ، مجلة بين النهرين العدد السابع (١٩٧٤) ص ٢٣١ - ٢٦٦ .
- ٧ - ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة : ١٩٦٢) ص ٣٦٩ .
- ٨ - ابن دريد : الاشتقاق . ط ٢ تحقيق عبدالسلام محمد هارون (بيروت ، ١٩٧٩) ص ٣٨٦ .
- ٩ - ابو البقاء ص ١٠٧ .
- ١٠ - ابو البقاء ص ١١٠ .
- ١١ - ابو البقاء ص ١١٠ .
- ١٢ - العلي صالح احمد . محاضرات في تاريخ العرب . ط ٤ ، بغداد ، ١٩٦٧ ص ٧٦ .
- ١٣ - ابو البقاء ص ١١٠ .

- ١٤- انظر الطبري تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٤٣ (طبعت ابو الفضل) .
- ١٥- ابو البقاء ص ١٠٩ .
- ١٦- ابو البقاء ، ص ١٠٩ - ١١٠ .
- ١٦- العلي محاضرات ص ٧٤ .
- ١٧- مصعب الزبيري : نسب قريش ، ص ٢١٠ « ان قريشا لقاح لا تملك ولا تملك .
- ١٨- كستر ٢٤٧ .
- ١٩- المسعودي : مروج الذهب ص ٣١ (القاهرة ، ١٩٥٨) ج ٤ ص ٨٧ .
- ٢٠- غنيمه : الحيرة ص ٢٠ - ٢٧ .
- ٢١- العلي : صالح احمد « منطقة الحيرة » ص ١٧ - ٤٤ .
- ٢٢- ينظر وصف هذه القصور : غنيمه : الحيرة ص ٢٠ - ٢٧ .
- ٢٣- غنيمه : الحيرة ص ٩٠ .
- ٢٤- العلي : محاضرات ص ٨٠ .

المحتوى

١٢- ٥

تقديم : بقلم الدكتور صالح احمد العلي
رئيس المجمع العلمي العراقي

٥٦-١٣

الفصل الاول

من القرية الى المدينة الاولى
الدكتور تقي الدباغ
استاذ الآثار القديمة - كلية الآداب - جامعة بغداد

١١٢-٥٧

الفصل الثاني

التجمعات الزراعية الاولى
الدكتور وليد الجادر
كلية الآداب - جامعة بغداد

١٣٣-١١٣

الفصل الثالث

تخطيط المدن في العراق القديم
المستوطنات الاولى
الدكتور بهنام ابو الصوف

١٤٤-١٣٥

الفصل الرابع

المدن الدينية والمعابد
الدكتور مؤيد سعيد
دائرة الآثار والتراث

١٤٥-١٧٦

الفصل الخامس

المدن الملكية والعسكرية

الدكتور سامي سعيد الأحمد
الأستاذ في كلية الآداب - جامعة بغداد

١٧٧-٢٣٤

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية والخدمات في المدن العراقية

في الأزمنة التاريخية القديمة
الدكتور عامر سليمان
أستاذ التاريخ القديم في كلية الآداب - جامعة الموصل

٢٣٥-٢٨٢

الفصل السابع

اقتصاد المدينة العراقية القديمة

الدكتور فاروق ناصر الراوي
أستاذ مساعد - كلية الآداب - قسم الآثار - جامعة بغداد

٢٨٣-٣٧٧

الفصل الثامن

مدن القوافل والحاميات العسكرية

٢٨٣-٣٢٢

١ - الحضرة

الدكتور واثق اسماعيل الصالحي
كلية الآداب - جامعة بغداد

٣٢٣-٣٥٨

٢ - الأخيضر

الدكتور عبدالعزيز حميد صالح
الأستاذ في كلية الآداب - جامعة بغداد

٣٥٩-٣٧٧

٣ - الحيرة

خالد صالح الغسلي
كلية الآداب - جامعة بغداد

